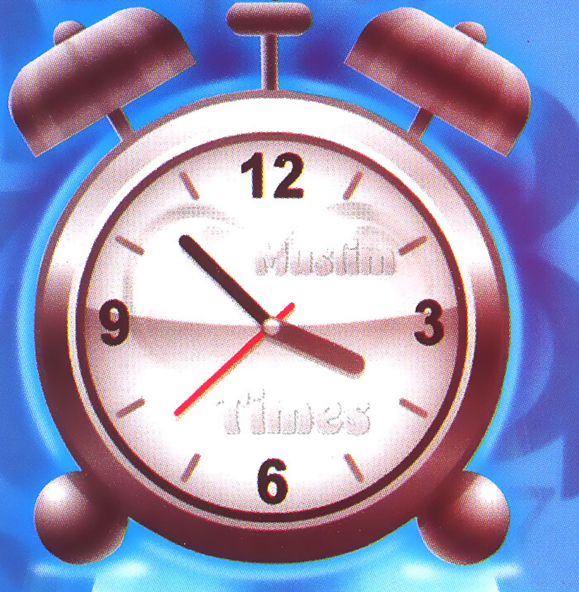
الدَّقائِقُ الغالِيَة

الشَّيخُ الدُّكْتور
جَاسِمُ بْنُ مُحمَّدِ بْنِ المُهَلْهِلِ الْيَاسِين



مؤسسة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - المنطقة التجارية رقم ٩ بلوك ١ مكتب ١٢.

الدقائق الغالية

الموضـــــوع: سلسلة بيت الدعوة.
اسم الكتـــاب: الدقائق الغالية.
التـــأليـف: الشيخ د. جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
عدد الصفحات: ٢١٦ صفحة = ١٤ ملزمة.
قياس الصفحة: ١٧×٢٤ سم.
رقـم الإيـداع: ٢٠٠٨/١٠٨٥٦

الطبعة الثانية
١٤٣٣هـ
٢٠١٢م

شركة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت

طبعة مزيدة
ومنقحة

الدقائق الغالية

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

مؤسسة السماحة

للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

١٤٣٣هـ /٢٠١٢م

تطلب منشوراتنا

فى الكويت من : شركة السماحة ــ الكويت.

الرمز البريدي: ٤٣٧٥٦ ص. ب: ٦٦٥٢٠ بيان.

ت/٩٩٥٥٧٤٧١

فى مصــر من : مؤسسة شروق للنشر والتوزيع

المنصورة - شارع جيهان - أمام مستشفى الطوارئ - ت : ٠٥٠/٢٢٥٢٨٦٠

سلسلة بيت الدعوة

رقم السلسلة (١٦) الرقم الفني (١٦)

الإهْدَاءُ نَثْراً

إلَى وَالِدَتِي مُنِيرَةَ، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي أرْضَعَتْنِي مَعَانِي الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإحْسَانَ إلَى الآخَرِينَ وإنْ أسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِي الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي الْمُجَلَّدَاتِ وكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَىٰ الإنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَىٰ الآخَرِينَ.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَىٰ فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنّ مَعَ كَثْرَةِ أمْرَاضِهَا.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا ـ رَحِمَهَا اللهُ ـ بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأذْكُرُ قَوْلَ أحَدِ الأصْدِقَاءِ عَنْ أمِّهِ بَعْدَ وفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وإنِّي لأقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ ـ فِيمَا أنْعَمَ بِهِ مِنْ فَضْلٍ ـ خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي ـ رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَىٰ. وَأَسْأَلُ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ أنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّىٰ بِالإيذَاءِ، فَكَانَتْ لَا

تُؤْذِي أحَداً وَلَا شَيْئاً حَتَّىٰ الأرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِي كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إلَى وَالِدَتِي الَّتِي أعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلَا يَسَعنِي ذِكْرُهُ فِي هَـٰذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إنْ شَاءَ اللهُ.

إلَى وَالِدَتِي أُهْدِي ثَوَابَ هَـٰذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلَادَتِي.

وَأهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إلَىٰ وَالِدِي ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ.

وَأهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إلَىٰ رَفِيقَةِ الدَّرْبِ أُمِّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَىٰ سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إلَىٰ أوْلَادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإنَاثاً.

وَأهْدِي هَـٰذِهِ الرَّسَائِلَ إلَىٰ كُلِّ مَنْ أسْهَمَ فِي إخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي الـمَشْرِقِ وَالـمَغْرِبِ.

وَإنَّنِي إذْ أكْتُبُ هَـٰذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أيْدِيهِمْ هَـٰذَا الْكِتَابُ أَلَّا يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

الشَّيْخُ الدّكْتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين





الإهْدَاءُ شِعْراً

أُمَّاهُ كُنْتِ مُنِيرَةً وَمَنَارَةً ... عُلْيَا وَصَرْحاً ثَابِتَ الأَرْكَانِ
قَدْ كُنْتِ مَدْرَسَةً تُعِدُّ نُفُوسَنَا ... لِصَنَائِعِ المَعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ
قَدْ كُنْتِ لِلأَيْتَامِ أُمّاً بَرَّةً ... وَالجَارِ وَالمِسْكِينِ أَرْأَفَ حَانِ
أَرْضَعْتِنَا الأَخْلاقَ شَهْداً سَلْسَلاً ... تَدْنُو ثِمَارُ قُطُوفِهَا لِلْجَانِي
عَلَّمْتِنَا الصَّبْرَ الجَمِيلَ خَلِيقَةً ... وَالقَوْلَ لِلحُسْنَى وَكَفَّ لِسَانِ

***

أَبَتَاهُ قَدْ رَبَّيْتَنِي وَأَحَطْتَنِي ... بِرِعَايَةٍ فِي غِبْطَةٍ وَأَمَانِ
وَفَّرْتَ أَسْبَابَ السَّعَادَةِ وَالهَنَا ... فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَى الأَقْرَانِ
فَجَزَاكَ رَبُّ العَرْشِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... وَأُسْكِنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَانِ

***

نَوَّرْتَ يَا بَدْرَ الدُّجَا سُبُلَ العُلا ... بِالفَضْلِ لاَ فَظٍّ وَلاَ مَنَّانِ
كَمْ ذَا تُقَابِلُ بِالسُّرُورِ تَدَلُّلِي ... بِمَحَبَّةٍ وَبِرَأْفَةٍ وَحَنَانِ
أَحْبَبْتَنِي قَرَّبْتَنِي رَبَّيْتَنِي ... بِالعِزِّ فِي ثِقَةٍ وَفِي اطْمِئْنَانِ

***

أَرَفِيقَتِي كُنْتِ الشُّعَاعَ إِذَا دَجَا ... لَيْلُ الحَيَاةِ بِمُظْلِمِ الحِدْثَانِ
قَدْ كُنْتِ خَيْرَ شَرِيكَةٍ وَمُعِينَةٍ ... فِي البِرِّ عِنْدَ تَقَاعُسِ الأَعْوَانِ
الصَّبْرُ فِيكِ مَعَ الوَفَاءِ سَجِيَّةٌ ... بِتَعَاقُبِ الأَفْرَاحِ وَالأَحْزَانِ

***

يَا حَبَّذَا أَفْلاذُ أَكْبَادٍ بِهَا	كَمُلَ الْمُرَادُ وَقَرَّتِ الْعَيْنَانِ
فَاحْفَظْ مُعَاذاً وَاحْفَظَنَّ مُهَلْهِلاً	أَمَدَ الزَّمَانِ وَعَابِدَ الرَّحْمَنِ
لاَ زَالَ عَبْدُ اللهِ فِي حِفْظٍ وَلاَ	زَالُوا جَمِيعاً غُرَّةَ الْفِتْيَانِ
وَلْتَحْظَ عَائِشَةٌ وَفَاطِمَةٌ بِمَا	قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ
وَاحْفَظْ هَيَا وَمُنِيرَةً يَا رَبَّنَا	مِنْ مُبْطِنِ الْبَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

* * *

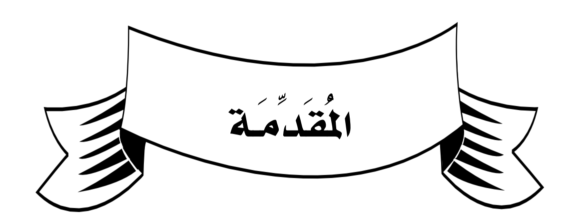
يَا رَبِّ لاَ زَالَ الْجَمِيعُ بِنِعْمَةٍ	وَقِهِمْ شُرُورَ الْحَاسِدِ الْمِعْيَانِ
صَلَّى الإِلَهُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ	وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

* * *

الشَّيْخُ الدّكْتُور

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُهَلْهِل الْيَاسِين





الْحَمْدُ لله الَّذي مَا طَابَت الدُّنْيَا إلَّا بذكْرِه، ولَا دَامَت الآخرَةُ إلَّا بعَفْوِه، وأَشْهَدُ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكه، لَا رَادَّ لفَضْله، ولَا مُعقِّبَ لقَضَائه ولأمْرِه. وأَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً ﷺ خيرتُه منْ خَلْقه، وأَمينُه علَىٰ وَحْيِه. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وعلَىٰ آله وَصَحْبِه.

وَبَعْدُ:

الزَّمَنُ هُوَ الْمُهِمُّ فِي حَيَاةِ الإنْسَانِ، بَلِ الإِنْسَانُ مَا هُوَ إلَّا دَقَائِقَ وَسَاعَاتٌ.

وَالإنْسَانُ كتَابٌ مَفْتُوحٌ، ولَا بُدَّ يومًا منَ الأيَّامِ أنْ يُغْلَقَ، ثُمَّ لَا يُفْتَحُ إلَّا منْ أوَّلِ مَرَاحلِ يوْمِ الْقيَامَةِ فِي حَيَاةِ الْبَرْزَخِ؛ ليُرَىٰ مَا فيه، إنْ كَانَ خَيْرًا فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وجَنَّةُ نَعيمٍ، وإنْ كَانَ غَيْرَ ذَلكَ فنَسْأَلُ اللهَ الْعَفْوَ والْعَافيَةَ.

إنَّهُ زَمَنٌ للْمُؤْمنِ فيه استثْمَارٌ واسْتِثْمَارٌ، شعَارُهُ: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾(١).

إنَّهُ الزَّمَنُ الَّذِي يَفْرَحُ بِهِ الْمُؤْمنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّه وَيَتَجَلَّىٰ عَفْوُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْه.

وهُوَ الزَّمَنُ الَّذِي يكُونُ حَسْرَةً عَلَىٰ الْكَافِرِينَ، فَيَتَصَاغَرُ بهِمُ الزَّمَنُ؛ لخُلُوِّه منَ الأعْمَالِ، ﴿**قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ**﴾(٢).

وَممَّا يُرْوَىٰ: أَنَّ قَرْيَةً كَانَتْ تُعَنْونُ فِي شَوَاهدِ قُبُورِهَا بمِقْدَارِ الْعَمَلِ الصَّالحِ

---

(١) البقرة: ٢٠١.

(٢) المؤمنون: ١١٢، ١١٣.

الَّذِي يَعْمَلُهُ الإِنْسَانُ، فَيَكْتُبُونَ: مَاتَ عَنْ خَمْسَةِ أَعْوَامٍ أَوْ عَشْرَةِ أَعْوَامٍ.

وَكَمَا قِيلَ:

دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانِ

لَكِنْ هَـٰذِهِ الدَّقَائِقُ وَتِلْكَ الثَّوَانِي، إِنْ كَانَتْ فِي طَاعَةِ اللهِ، فَهِيَ تُسَاوِي الْكَثِيرَ؛ وَلِهَـٰذَا لَا بُدَّ أَنْ يَحْرِصَ كُلُّ فَرْدٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَمُرَّ دَقِيقَةٌ مِن دُونِ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْهَا أَوْ أَنْ يُؤْجَرَ عَلَيْهَا.

وَكِتَابُنَا هَـٰذَا الْمَوْسُومُ بِـ «**الدَّقَائِقُ الْغَالِيَةُ**»، كَانَ فِي أَصْلِهِ، حَلَقَاتٍ تِلِيفِزْيُونِيَّةً، عُرِضَتْ فِي رَمَضَانَ، وَفِي دَقَائِقَ غَالِيَةٍ مِنْهُ قَبْلَ الإِفْطَارِ عِنْدَمَا يَفْرَحُ الصَّائِمُ بِفِطْرِهِ، فَسُمِّيَتْ بِهَـٰذَا الاسْمِ، وَمَعَ إِلْحَاحِ الإِخْوَةِ وَالْمُحِبِّينَ عَلَىٰ أَنْ يَعُمَّ النَّفْعُ وَتَتَنَوَّعَ وَسَائِلُهُ، حَاوَلْنَا جَمْعَهَا فِي كِتَابٍ وَأَسْمَيْنَاهُ أَيْضًا: «**الدَّقَائِقُ الْغَالِيَةُ**»، حَاوَلْتُ أَنْ أَجْمَعَ فِيهِ اللَّطَائِفَ وَالطَّرَائِفَ فِي الأَخْلَاقِ وَالْمَوَاقِفِ، يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ مَنْهَجًا، عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ لِلأَبِ مَعَ أَهْلِهِ، وَلِلأُمِّ مَعَ أَوْلَادِهَا، فِيهِ حِكَمٌ لِلصَّالِحِينَ، وَأَقْوَالٌ لِلْمُفَسِّرِينَ، وَلَطَائِفُ لِلرَّبَّانِيِّينَ؛ لِذَا لَنْ يَمَلَّ قَارِئُهَا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ.

أَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، أَنْ يَكُونَ هَـٰذَا ذُخْرًا لَنَا يَوْمَ نَلْقَاهُ، وَأَنْ يَكُونَ شَاهِدًا لَنَا لَا عَلَيْنَا. وَأَسْأَلُ قَارِئَنَا الْكَرِيمَ دَعْوَةً بِظَهْرِ الْغَيْبِ، فَلَعَلَّ الْمَلَكَ أَنْ يَقُولَ بِإِذْنِ اللهِ: «وَلَكَ بِمِثْلِهِ».

وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.





الفُرْصَةُ الجَدِيدَةُ

هَا هُوَ رَمَضَانُ أَقْبَلَ . . .

وَهَا هِي مَواسِمُ الطَّاعَاتِ تَغْشَانَا فِي لَيْلِنَا وَفِي نَهَارِنَا . . .

وَهَا هِي الفُرَصُ الرَّبَانِيَّةُ تُمْنَحُ لِلعِبَادِ . . .

وَهَا هِي الخَيْرَاتُ والنَّفَحَاتُ **تُنَادِي:**

يَا بَاغِيَ الخَيْرِ أَقْبِلْ

وَيَا بَاغِيَ الشَّرِ أَقْصِرْ

يَا بَاحِثِينَ عَنِ السَّعَادَةِ وَالطُّمَأنِينَةِ!!!

يَا بَاحِثِينَ عَنِ المَغْفِرَةِ وَالعِتْقِ مِنَ النِّيرَانِ . . .

يَا بَاحِثِينَ عَنْ راحةِ البَالِ وهدوءِ الأَعصابِ . . .

هَا هُوَ رَمَضانُ أَقْبَلَ . . .

هَا هُوَ شَهرُ العتقِ . . . شهرُ السَّكِينَةِ . . . شهرُ الطُّمأنِينةِ . . . شهرُ الرَّاحةِ . . .

إِنَّ مِنْ سُنَنَ الله تَعالَىٰ أَنْ يُفَضِّلَ مَكَانًا عَلَىٰ مَكَانٍ وزَمَانًا عَلَىٰ زَمَانٍ وَإِنْسَانًا عَلَىٰ إِنْسَانٍ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ تَفْضِيلُ رَمَضَانَ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ الشُّهُورِ، فَهُوَ شَهْرٌ خَصَّهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ بِمِيزَاتٍ خَاصَّةٍ.

فَقَدْ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الجِنِّ، وَغُلِّقَتْ أَبْوابُ**

النَّارِ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ، وَفُتِّحَتْ أَبْوابُ الجَنَّةِ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا بَاغِيَ الخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ، ولله عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ وذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ»(١).

وَعَنْ سَهْلِ بن سَعْدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ، يُدْعَى يَوْمَ القِيَامَةِ يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ، فَمَنْ كَانَ مِنَ الصَّائِمِينَ دَخَلَهُ، وَمَنْ دَخَلَهُ، لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا**»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: «**كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلى سَبْعِمَائَةِ ضِعْفٍ قَالَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ: إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ**»(٣).

وَرُوِيَ عن سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ عَظِيمٌ، شَهْرٌ مُبَارَكٌ، شَهْرٌ فِيهِ لَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، جَعَلَ اللهُ صِيَامَهُ فَرِيضَةً، وَقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعًا، مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخَصْلَةٍ مِنَ الخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ، وَمَنْ أَدَّى فَرِيضَةً فِيهِ كَانَ كَمَنْ أَدَّى سَبْعِينَ فَرِيضَةً فِيمَا سِوَاهُ، وَهُوَ شَهْرُ الصَّبْرِ، وَالصَّبْرُ ثَوَابُهُ الجَنَّةُ. وَشَهْرُ المُوَاسَاةِ، وَشَهْرٌ يَزْدَادُ فِيهِ رِزْقُ المُؤْمِنِ، مَنْ فَطَّرَ فِيهِ صَائِمًا كَانَ لَهُ مَغْفِرَةً لِذُنُوبِهِ، وَعِتْقَ رَقَبَتِهِ مِنَ النَّارِ، وَكَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْءٌ**»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيْسَ كُلُّنَا يَجِدُ مَا يُفَطِّرُ الصَّائِمَ، فَقَالَ ﷺ: «**يُعْطِي اللهُ هَذَا الثَّوَابَ مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا عَلَى مَذْقَةِ لَبَنٍ،**

(١) أخرجه الترمذي (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢)، وصححه الألباني، وهو عند البخاري (٣٢٧٧)، ومسلم (١٠٧٩) عن أبي هريرة # ولفظه عند البخاري: «**إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين**».

(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٦)، ومسلم (١١٥٢)، والترمذي (٧٦٥)، والنسائي (٢٢٣٦)، وابن ماجه (١٦٤٠)، واللفظ للترمذي وابن ماجه.

(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١)، والترمذي (٧٦٤)، والنسائي (٢٢١٥)، وابن ماجه (١٦٣٨).

أَوْ تَمْرَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ مِنْ مَاءٍ، وَمَنْ أَشْبَعَ صَائِمًا سَقَاهُ اللهُ مِنْ حَوْضِي شَرْبَةً لاَ يَظْمَأُ حَتَّى يَدْخُلَ الجَنَّةَ، وَهُوَ شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ، وَمَنْ خَفَّفَ عَنْ مَمْلُوكِهِ فِيهِ غَفَرَ اللهُ لَهُ وَأَعْتَقَهُ مِنَ النَّارِ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: «**رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلاهُ الجَنَّةَ**»[2]. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ: وَأَظُنُّهُ قَالَ: «**أَوْ أَحَدُهُمَا**».

وَذَكَرَ البَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الإِيمَانِ»: «أَنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يُحَاسِبُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدَهُ، وَيُؤَدِّي مَا عَلَيْهِ مِنَ المَظَالِمِ مِنْ سَائِرِ عَمَلِهِ، حَتَّى لاَ يَبْقَىٰ إِلَّا الصَّوْمُ، فَيَتَحَمَّلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ مِنَ المَظَالِمِ، وَيُدْخِلُهُ بِالصَّوْمِ الجَنَّةَ»[3]. قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: «هَـٰذَا مِنْ أَجْوَدِ الأَحَادِيثِ وَأَحْكَمِهَا».

فَيَا أَيُّهَا العَامِلُ... هَـٰذَا أَوَانُ الجِدِّ وَالاجْتِهَادِ، وَيَا أَيُّهَا الغَافِلُ هَـٰذَا وَقْتُ التَّيَقُّظِ لِإِعْدَادِ الزَّادِ، هَيَّا لِنَغْتَنِمَ فَضْلَ رَبِّنَا، هَيَّا لِنَتَعَرَّضَ لِنَفَحَاتِهِ فِي هَـٰذَا الشَّهْرِ، فَلِلَّهِ تَعَالَىٰ فِي هَـٰذَا الشَّهْرِ نَفَحَاتٌ، مَنْ حُرِمَهَا، فَقَدْ حُرِمَ، وَمَنْ أَصَابَتْهُ نَفْحَةٌ مِنْهَا أَصَابَهُ الخَيْرُ كُلُّهُ.

كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ، تَرَكَ جَمِيعَ العِبَادَةِ، وَأَقْبَلَ عَلَىٰ قِرَاءَةِ القُرْآنِ.

وَكَانَ لِلإِمَامِ الشَّافِعِيِّ فِي رَمَضَانَ، سِتُّونَ خَتْمَةً لِلقُرْآنِ فِي غَيْرِ الصَّلاةِ.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٠٨)، وابن خزيمة في صحيحه (١٨٨٧) عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، وقال الألباني في «الضعيفة» (٨٧١): «منكر».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥) وقال: «حسن غريب من هـٰذا الوجه»، وأحمد (٢/ ٢٥٤)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٣) شعب الإيمان، للبيهقي عقب حديث (٣٥٨٢).

وكَانَ الإِمَامُ الزُّهْرِيُّ إِذَا دَخلَ رَمَضَانُ يَقُولُ: إِنَّمَا هُوَ تلاوَةُ القُرْآنِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ.

وقَالَ ابنُ الحَكَمِ: كَانَ مَالكُ بنُ أَنَسٍ إِذَا دَخلَ رَمَضَانُ يَفِرُّ مِنْ قِرَاءَةِ الحَديثِ وَمُجَالَسَةِ أَهْلِ العِلَمِ، ويُقْبِلُ عَلَىٰ تِلاوَةِ القُرْآنِ.

وكَانَ ابنُ عُمَرَ رضي الله عنه إِذَا دَخلَ رَمَضَانُ يَقُولُ: «مَرْحَبًا بِشَهْرٍ خَيْرٍ كُلِّهِ، نَهَارُهُ صِيامٌ، لَيْلُهُ قِيامٌ، النَّفَقَةُ فِيهِ كَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ الله».

● **وَمِنَ اللَّطَائِف:**

مَا رُوِيَ أَنَّ بَعْضَ السَّلَفِ - رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمْ - كَانَ كَثِيرَ التَّهَجُّدِ وَالصِّيَامِ فَصَلَّىٰ لَيْلَةً فِي المَسْجِدِ وَدَعَا فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَرَأَىٰ فِي مَنَامِه جَمَاعَةً، عَلِمَ أَنَّهُم لَيْسُوا مِنَ الآدَمِيينَ، بِأَيْدِيهِم أَطْبَاقٌ عَلَيْهَا أَرْغِفَةٌ بِبيَاضِ الثَّلْجِ، فَوْقَ كُلِّ رَغِيفٍ دُرَّةٌ كَأَمْثَالِ الرُّمَّانِ، فَقَالُوا: كُلْ، فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ الصَّوْمَ؛ يَعْنِي إِنِّي صَائِمٌ، فَقَالُوا لَهُ: يَأْمُرُكَ صَاحِبُ هَذَا البَيْتِ أَنْ تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلْتُ وَجَعَلْتُ آخُذُ ذَلِكَ الدُّرَّ لأَحْتَمِلَهُ، فَقَالُوا لَهُ: دَعْهُ نَغْرِسْهُ لَكَ شَجَرًا يَنْبُتُ لَكَ خَيْرًا مِنْ هَـٰذَا، قَالَ: أَيْنَ؟ قَالُوا: فِي دَارٍ لاَ تَخْرَبُ، وَثَمَرٍ لاَ يَتَغَيَّرُ، وَمُلْكٍ لاَ يَنْقَطِعُ، وَثِيَابٍ لاَ تَبْلَىٰ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا هِيَ إِلَّا غَفْوَةٌ حَتَّىٰ تَرْتَحِلَ، فَتَنزِلَ الدَّارَ!! فَمَا مَكَثَ بَعْدَ هَـٰذِه الرُّؤْيَا إِلاَّ جُمْعَتَيْنِ حَتَّىٰ تُوفِّيَ، فَرَآهُ لَيْلَةَ وَفَاتِهِ أَحدُ أَصْحَابِهِ الذينَ حَدَّثَهُمْ بِرُؤْيَاهُ وَهُوَ يَقُولُ: أَلا تَعْجَبْ مِنْ شَجَرٍ غُرِسَ لِي فِي يَوْمِ حَدَّثْتُكَ وَقَدْ حَمَلَ؟! فَقَالَ لَهُ: وَمَا حَمَلَ؟ قَالَ: لاَ تَسْأَلْ، لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَىٰ صِفَتِهِ، لَمْ يُرَ مِثْلَ الكَرِيمِ إِذَا حَلَّ بِهِ مُطِيعٌ.

نَعَمْ... «لَمْ يُرَ مِثْلُ الكَرِيمِ إِذَا حَلَّ بِهِ مُطِيعٌ»، وَهَلْ هُنَاكَ أَكْرَمُ مِنَ اللهِ الكَرِيمِ؟!

أَلاَ خَاطِبٌ لِهَذَا الشَّهْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ؟

أَلاَ رَاغِبٌ فِيمَا أَعَدَّه اللهُ لِلطَّامِعِينَ فِي الجِنَانِ؟

أَلاَ طَالِبٌ لِمَا أَخبَرَ عنْهُ من النَّعِيمِ المُقِيمِ؟ مَعَ أنَّه ليْسَ الخَبَرُ كَالعِيانِ؟

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «طُوبَىٰ لِمَنْ تَرَكَ شَهْوَةً حَاضِرَةً لِمَوْعِدِ غَيْبٍ لَمْ يرَهْ».

وَمَنْ صَامَ عَنْ شَهْوَتِهِ فِي الدُّنْيَا، أَدْرَكَهَا غَدًا فِي الجَنَّةِ، وَمَنْ صَامَ عَمَّا سِوَىٰ اللهِ، فَعِيدُهُ يَوْمَ لُقْيَاه، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾[1].

أَمَّا عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِرَمَضَانَ وَالاجْتِهَادِ فِي الطَّاعَاتِ فِيهِ، فَيُرْوَىٰ عَنْ السَّلَفِ ـ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ ـ فِي ذَلِكَ الكَثِيرُ، يَقُولُ المُعَلَّى بنُ الفَضْلِ: كَانَ السَّلَفُ يَدْعُونَ اللهَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ رَمَضَانَ، ثُمَّ يَدْعُونَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنْهُمْ، وَقَالَ يَحْيَىٰ بنُ أَبِي كَثِيرٍ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ السَّلَفِ: اللَّهُمَّ سَلِّمْنِي إِلَىٰ رَمَضَانَ وَسَلِّمْ لِي رَمَضَانَ وَتَسَلَّمْهُ مِنِّي مُتَقَبَّلاً.

وَالحَاصِلُ فِي وَقْتِنَا هَذَا: أَنَّ الكُلَّ يَسْتَعِدُّ لِرَمَضَانَ وَلَكِنْ بِطُرُقِهِ الخَاصَّةِ؛ فَالإِعْلامُ يَسْتَعِدُّ بِسَيْلٍ مِنَ المُسَلْسَلاتِ وَالأَفْلامِ وَالبَرَامِجِ، وَرَبَّةُ الأُسْرَةِ تَسْتَعِدُّ بِشِرَاءِ مَا يَلْزَمُ المَطْبَخَ مِنْ أَشْهَىٰ الأَطْبَاقِ، وَكَأَنَّ رَمَضَانَ لَيْسَ إِلاَّ شَهْرَ مَأْكَلٍ وَمَشْرَبٍ وَفُسَحٍ وَسَهَرَاتٍ، وَغَابَ عَنِ النَّاسِ أَنْ شَهْرَ رَمَضَانَ شَهْرُ الرَّحْمَةِ وَالمَغْفِرَةِ وَشَهْرُ قِرَاءَةِ القُرْآنِ وَشَهْرُ الصِّيَامِ وَشَهْرُ القِيَامِ وَشَهْرُ الطَّاعَاتِ، فَعَلَىٰ العَبْدِ أَنْ يَسْتَعِدَّ بِجَوَارِحِهِ وَبِقَلْبِهِ، فَلِلقَلْبِ فِي رَمَضَانَ أَعْمَالٌ، وَلِلجَوَارِحِ أَعْمَالٌ، وَعَلَىٰ الصَّائِمِ أَنْ يُخَفِّفَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ حَتَّىٰ لاَ يَتَثَاقَلَ عَنِ العِبَادَةِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالصُّحْبَةِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تُعِينُهُ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ فِي هَذَا الشَّهْرِ وَعَلَيْهِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَىٰ التَّرَاوِيحِ فِي المَسْجِدِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ فِي بَيْتِهِ وَمَعَ أَهْلِهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُحَافِظَ عَلَىٰ سُنَّةِ الاعْتِكَافِ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ وِرْدٌ مِنَ القُرْآنِ وَوِرْدٌ مِنَ الأَذْكَارِ

(١) العنكبوت: ٥.

وَالاسْتِغْفَارِ، وَعَلَيْه أَنْ يَحرِصَ عَلَىٰ أَلاَّ يَفُوتَهُ وَقْتٌ فِي رَمَضَانَ مِنْ غَيْرِ طَاعَةٍ؛ فَرَمَضَانُ سُوقٌ عَظِيمَةٌ والرِّبْحُ فِيهَا مَيْسُورٌ لِلجَمِيعِ، وَإِنْ فَاتَ رَمَضَانُ انْفَضَّ السُّوقُ، وَرَبِحَ مَنْ رَبِحَ وَخَسِرَ مَنْ خَسِرَ، وَهُوَ فُرْصَةٌ وَمِنْحَةٌ إِلَـٰهِيَّةٌ، فَلْيَحْرِصْ العَبْدُ عَلَىٰ أَلاَّ يَضِيعَ مِنْهُ هَبَاءً.

أَمَّا بَعْدُ:

صُومُوا اليَوْمَ عَنْ شَهَوَاتِ الهَوَىٰ؛ لِتُدْرِكُوا عِيدَ الفِطْرِ يَوْمَ اللِّقَاءِ، وَلاَ يَطُولَنَّ عَلَيْكُم الأَمَلُ بِاسْتِبْطَاءِ الأَجَلِ، فَإِنَّ مُعْظَمَ نَهَارِ الصِّيَامِ قَدْ ذَهَبَ، وعِيدُ اللِّقَاءِ قَدِ اقْتَرَبَ. . .

اللهُمَّ بِرَحْمَتِكَ بَلِّغْنَا رَمَضَانَ. . .

اللهُمَّ لاَ تَدَعْ لَنَا فِي هَـٰذَا الشَّهْرِ الكَرِيمِ ذَنْبًا إِلاَّ غَفَرْتَهُ، وَلاَ هَمًّا إِلاَّ فَرَّجْتَه وَلاَ كَرْبًا إِلاَّ نَفَّسْتَهُ وَلاَ دَيْنًا إِلاَّ قَضَيْتَه وَلاَ مَرِيضًا إِلاَّ شَفَيْتَه وَلاَ عَسِيرًا إِلاَّ يَسَّرْتَه وَلاَ مَظْلُومًا إِلاَّ نَصَرْتَهُ، وَلاَ ظَالِمًا إِلاَّ قَصَمْتَه وَلاَ مُحْتَسِبًا إِلاَّ وَفَّقْتَه وَلاَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِكَ إِلاَّ نَصَرْتَه، وَلاَ دَاعِيًا إِلىٰ هُدَاكَ إِلاَّ أَغْنَيْتَه وَلاَ حَاجَةً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا هِيَ لَكَ رِضَىٰ وَلَنَا فِيهَا صَلاحٌ إِلاَّ أَعَنْتَنَا عَلَىٰ قَضَائِهَا وَيَسَّرْتَهَا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.





الدَّقِيقَةُ الثَّانِيَةُ

لِمَاذَا نَعْصِي اللَّهَ؟!

يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي مُخْتَتَمِ سُورَةِ الذَّارِيَاتِ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾(١).

وَالمُرَادُ: مَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيُذْعِنُوا لِي بِالعُبُودِيةِ . . .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَيْ: مَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيُقِرُّوا بِالعُبُودِيَّةِ طَوْعًا وَكَرْهًا.

وَالسُّؤَالُ:

إِذَا كَانَ الإِنْسَانُ خُلِقَ لِلعِبَادَةِ، فَلِمَاذَا المَعْصِيَةُ إِذَنْ؟ وَلِمَاذَا يَنْتَهِجُ النَّاسُ غَيْرَ سَبِيلِ اللهِ؟

وَهُنَا نَجِدُ تَفْصِيلاً لِلمَسْأَلَةِ عِنْدَ ابْنِ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ - حِينَ يَقُولُ: أُصُولُ المَعَاصِي كُلُّهَا، كِبَارُهَا وَصِغَارُهَا ثَلاثَةٌ:

تَعَلُّقُ القَلْبِ بِغَيْرِ اللهِ . . .

وَطَاعَةُ القُوَّةِ الغَضَبِيَّةِ . . .

وَطَاعَةُ القُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ . . .

وَهَـٰذِهِ الثَّلاثَةُ يُقَالُ لَهَا: الشِّرْكُ وَالظُّلْمُ وَالفَوَاحِشُ.

فَغَايَةُ المُتَعَلِّقِ بِغَيْرِ اللهِ الشِّرْكُ . . .

وَغَايَةُ طَاعَةِ القُوَّةِ القَتْلُ وَظُلْمُ النَّاسِ . . .

---

(١) الذاريات: ٥٦ - ٥٨.

وَغَايَةُ طَاعَةِ القُوَّةِ الشَّهْوَانِيَّةِ الزِّنَىٰ وَالفَوَاحِشُ.

وَلِهَـٰذَا جَمَعَ المَوْلَىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَيْنَ هَذِهِ الثَّلاثَةِ فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴾[1].

لَكِنَّ هَـٰذِهِ الثَّلاثَةَ... يَدْعُو بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ...

فَالشِّرْكُ يَدْعُو إِلَىٰ الظُّلْمِ وَالفَوَاحِشِ، كَمَا أَنَّ الإِخْلاَصَ وَالتَّوْحِيدَ يَصْرِفَانِ العَبْدَ عَنْهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾[2].

وَالظُّلْمُ كَذَلِكَ يَدْعُو إِلىٰ الشِّرْكِ وَالفَوَاحِشِ، فَالشِّرْكُ أَظْلَمُ الظُّلْمِ، كَمَا أَنَّ أَعْدَلَ العَدْلِ التَّوْحِيدُ، وَالفَاحِشَةُ تَدْعُو إِلَىٰ الظُّلْمِ وَالشِّرْكِ، فَهَـٰذِهِ الثَّلاثَةُ يَجُرُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيَأْمُرُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، وَلِهَذَا كُلَّمَا كَانَ القَلْبُ أَضْعَفَ تَوْحِيداً، وَأَعْظَمَ شِرْكًا كَانَ أَكْثَرَ فَاحِشَةً.

يَقُولُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ: «بَلَغَنَا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: يَا بْنَ آدَمَ! خَلَقْتُكَ وَتَعْبُدُ غَيْرِي! وَأَذْكُرُكَ وَتَنْسَانِي! وَأَدْعُوكَ وَتَفِرُّ مِنِّي! إِنَّ هَذَا لأَظْلَمُ ظُلْمٍ فِي الأَرْضِ، ثُمَّ تَلاَ الحَسَنُ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ **يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾[3].

واسْمَعُوا إِلَىٰ عَبدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه حِينَمَا يُقَرِّرُ أَنَّ الإِنْسَانَ لَيْسَ مَعْصُومًا مِنَ الخَطَأ، لَكِنْ إِنْ وَقَعَ فِيهِ فَلاَ نَكُنْ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ، يَقُولُ رَحِمَهُ الله: «إِذَا رَأَيْتَ أَخَاكَ قَارَفَ ذَنْبًا فَلاَ تَكُنْ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ تَقُولُ: اللهُمَّ اخْزِهِ، اللهُمَّ العَنْهُ، وَلَكِنْ سَلِ اللهَ تَعَالَىٰ لَهُ العَافِيَةَ، فَنَحْنُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ كُنَّا لاَ نَقُولُ فِي أَحَدٍ شَيْئًا حَتَّىٰ نَعْلَمَ عَلاَمَ يَمُوتُ؟ فَإِنْ خُتِمَ لَهُ بِخَيْرٍ عَلِمْنَا أَنَّهُ قَدْ أَصَابَ

(١) الفرقان: ٦٨.
(٢) يوسف: ٢٤.
(٣) لقمان: ١٣.

خَيْرًا وَإِنْ خُتِمَ لَهُ بِشَرٍّ خِفْنَا عَلَيْهِ» .

● **إِنَّ بَابَ التَّوْبَةِ لاَ يَزَالُ مَفْتُوحًا عَلَى مِصْرَاعَيْهِ:**

ذَكَرَ ابْنُ الجَوْزِيِّ أَنَّ أَحَدَ جِيرَانِ الإِمَامِ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ الله - كَانَ مِمَّنْ يُمَارِسُ المَعَاصِي وَالفَوَاحِشَ، فَجَاءَ يَوْمًا إِلَىٰ مَجْلِسِ الإِمَامِ أَحْمَدَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ فَكَأَنَّ الإِمَامَ أَحْمَدَ لَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلاَمَ رَدًا تَامًا، وانْقَبَضَ مِنْهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! لِمَ تَنْقَبِضُ مِنِّي؟ فَإِنِّي قَدِ انْتَقَلْتُ عَمَا كُنْت تَعْهَدُنِي بِرُؤْيَا رَأَيْتُهَا .

فَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: وَأَيَّ شَيءٍ رَأَيْتَ؟

قَالَ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ كَأَنَّهُ عَلَىٰ عُلُوٍّ مِنَ الأَرْضِ، وَنَاسٌ كَثِيرٌ جُلُوسٌ أَسْفَلَ، فَيَقُومُ رَجُلٌ مِنْهُمْ إِلَيْهِ، فَيَقُولُ: ادْعُ لِي، فَيَدْعُو النَّبِيُّ ﷺ لَهُ حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ مِنَ القَوْمِ غَيْرِي، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُومَ فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْ قَبِيحِ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لِي: يَا فُلاَنُ! لِمَ لاَ تَقُومُ إِليَّ فَتَسْأَلُنِي أَدْعُو لَكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، يَمْنَعُنِي الحَيَاءُ لِقَبِيحِ مَا أَنَا عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ يَمْنَعُكَ الحَيَاءُ، فَقُمْ وَسَلْنِي أَدْعُ لَكَ قَالَ: فَقُمْتُ، فَدَعَا لِي، فَانْتَبَهْتُ وَقَدْ بَغَّضَ اللهُ إِليَّ مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ لِلحَاضِرِينَ: حَدِّثُوا بِهَـٰذَا وَاحْفَظُوا، فَإِنَّهُ يَنْفَعُ» .

وَلِهَـٰذَا يَقُولُ بِلالُ بْنُ سَعْدٍ: إِنَّ لَكُمْ رَبًا لَيْسَ إِلَىٰ عِقَابِ أَحَدِكُمْ بِسَرِيعٍ، يُقِيلُ العَثْرَةَ، وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ، وَيَقْبَلُ مِنَ المُقْبِلِ وَيَعْطِفُ عَلَىٰ المُدْبِرِ .

وَيَقُولُ عَلِيٌّ رضي الله عنه: «يَا عَبْدَ اللهِ! لاَ تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلاَ تَأْمَنْ عَلَىٰ نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ بِهَا، فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ، لِمَا يَعْلَمَنَّ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَىٰ مُعَافَاتِهِ مِمَّا ابْتُلِيَ بِهِ غَيْرُهُ» .

وَإِلَىٰ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ! وَإِلَىٰ المُفَرِّطِ فِي طَاعَةِ اللهِ نَذْكُرُ هَـٰذَا الحِوَارَ الذِي دَارَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ بنِ أَدْهَمَ وَأَحَدِ السَّائِلِينَ، حِينَمَا **قَالَ لَهُ**

السَّـائِـلُ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ، إِنِّي مُسْرِفٌ عَلَىٰ نَفْسِي مِنَ المَعَاصِي، فَاعْرِضْ عَليَّ مَا يَكُونُ لِنَفْسِي زَاجِراً.

فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: إِنْ قَبِلْتَ خَمْسَ خِصَالٍ، وَقَدَرْتَ عَلَيْهَا لَمْ تَضُرَّكَ مَعْصِيَةٌ!!

قَالَ: هَاتِ يَا أَبَا إِسْحَاقَ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: **أَمَّا الأُولَى**: فَإِذَا أَرَدْتَّ أَنْ تَعْصِيَ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ، فَلاَ تَأْكُلْ رِزْقَهُ.

قَالَ الرَّجُلُ: فَمِنْ أَيْنَ آكُلُ؟ وَكلُّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ رِزْقِهِ..؟!

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا هَذَا أَفَيَحْسُنُ أَنْ تَأْكُلَ رِزْقَهُ وَتَعْصِيَهُ؟!

قَالَ الرَّجُلُ: لاَ. هَاتِ الثَّانِيَةَ.

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِذَا أَرَدْتَّ أَنْ تَعْصِيَ اللهَ، فَلاَ تَسْكُنْ شَيْئًا مِنْ بِلاَدِ اللهِ.

قَالَ الرَّجُلُ: هَذِهِ أَعْظَمُ مِنَ الأُولَىٰ، إِذَا كَانَ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ وَمَا بَيْنَهُمَا للهِ، فَأَيْنَ أَسْكُنُ؟!

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا هَذَا!! أَفَيَحْسُنُ أَنْ تَأْكُلَ رِزْقَهُ، وَتَسْكُنَ بِلاَدَهُ وَتَعْصِيَهُ؟!

فَقَالَ الرَّجُلُ: لاَ. هَاتِ الثَّالِثَةَ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِذَا أَرَدْتَّ أَنْ تَعْصِيَهُ، وَأَنْتَ تَأْكُلُ رِزْقَهُ وَفِي بِلاَدِهِ فَانْظُرْ مَوْضِعًا لاَ يَرَاكَ فِيهِ مُبَارِزاً لَهُ، فَاعْصِهِ فِيهِ.

قَالَ الرَّجُلُ: يَا إِبْرَاهِيم! كَيْفَ وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَىٰ مَا فِي السَّرَائِرِ؟!

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: يَا هَـٰذَا أَفَيَحْسُنُ أَنْ تَأْكُلَ رِزْقَهُ وَتَسْكُنَ بِلاَدَهُ وَتَعْصِيَهُ وَهُوَ يَرَاكَ وَيَرَىٰ مَا تُجَاهِرُ بِهِ؟!

قَالَ: لاَ. هَاتِ الرَّابِعَةَ...

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِذَا جَاءَكَ مَلَكُ المَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَكَ، فَقُلْ لَهُ: أَخِّرْنِي حَتَّىٰ أَتُوبَ تَوْبَةً نَصُوحًا وَأَعْمَلَ لله عَمَلاً صَالِحًا!!

قَالَ الرَّجُلُ: لاَ يَقْبَلُ مِنِّي ذَلِكَ.

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَأَنْتَ إِذَنْ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَدْفَعَ عَنْكَ المَوْتَ لِتَتُوبَ، وَتَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا جَاءَ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَأْخِيرٌ، فَكَيْفَ تَرْجُو الخَلاصَ؟!

فَقَالَ الرَّجُلُ: هَاتِ الخَامِسَةَ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِذَا جَاءَكَ الزَّبَانِيَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ لِيَأْخُذُوكَ إِلَىٰ النَّارِ، فَلاَ تَذْهَبْ مَعَهُمْ.

قَالَ الرَّجُلُ: لاَ يَقْبَلُونَ مِنِّي ذَلِكَ.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَكَيْفَ تَرْجُو الجَنَّةَ إِذَن؟!

فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا إِبْرَاهِيمُ حَسْبِي حَسْبِي!! أَنَا أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، ثُمَّ لَزِمَ هَذَا الرَّجُلُ إِبْرَاهِيمَ فِي الزُّهْدِ وَالعِبَادَةِ حَتَّىٰ فَرَّقَ المَوْتُ بَيْنَهُمَا.

فَالتَّوْبَةَ التَّوْبَةَ إِخْوَتِي فِي اللهِ، وَاتَّقُوا مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ الصَّغِيرَةَ مَعَ الصَّغِيرَةِ تُؤَدِي إِلَىٰ كَبِيرَةٍ.

وَيُرْوَىٰ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه سُئِلَ: مَا التَّقْوَىٰ؟ فَأَجَابَ أَبُو هُرَيْرَةَ قَائِلاً لِسَائِلِهِ: «هَلْ مَشَيْتَ فِي طَرِيقٍ فِيهِ شَوْكٌ؟»، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: «وَمَاذَا كُنْتَ تَفْعَلُ؟»، فَقَالَ: كُنْتُ أَتَّقِي الشَّوْكَ حَتَّىٰ لاَ يُصِيبَنِي، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «كَذَلِكَ التَّقْوَىٰ: أَنْ تَتَّقِي المَعَاصِيَ حَتَّىٰ لاَ يُصِيبَكَ عَذَابُ اللهِ».

فَأَخَذَ هَـٰذَا المَعْنَىٰ أَحَدُ الشُّعَرَاءِ فَقَالَ:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى
وَاصْنَعْ كَمَاشٍ فَوْقَ أَرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى
لاَ تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

اللهُمَّ، إِنَّ ذُنُوبَنَا وَإِنْ كَثُرَتْ وَجَلَّتْ عَنْ الصِّفَةِ، فَإِنَّهَا صَغِيرَةٌ فِي جَنْبِ عَفْوِكَ فَاعْفُ عَنَّا.

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[1].



(١) البقرة: ٢٨٦.



الغَنيمةُ البَارِدةُ

أتدْرونَ مَا الغَنيمةُ البَارِدةُ ؟

إنَّهَا دَعْوَةُ اللهِ تَعَالَىٰ للمؤمنينِ ﴿ **وتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾(١).

هِي التي لاَ تُغْلَقُ دُونَهَا الأَبْوابُ، هِيَ حَالُ سَيِّدِ الخَلْقِ ﷺ دائمًا وَأَبدًا، فَفِي الحَدِيث الصَّحيح قال ﷺ: «**إنِّي لأسْتَغْفرُ اللهَ - عزَّ وجلَّ - وأَتُوبُ إليه فِي كُلِّ يَوْمٍ مائةَ مَرَّةٍ**»(٢).

التَّوْبةُ . . . هِي الشِّفَاءُ مِنْ كُلِّ الأَدْوَاء.

قَالَ الربيعُ بنُ خُثَيْمٍ لأَصْحَابِه: أَتَدْرونَ مَا الدَّاءُ والدَّوَاءُ والشِّفَاءُ؟ قَالوا: لاَ، قَالَ: الدَّاءُ هُوَ الذُّنوبُ، وَالدَّواءُ الاسْتِغْفَارُ والشِّفَاءُ أَنْ تَتُوبَ، فَلاَ تَعُودَ.

التَوْبَةُ هِي الغَنيمَةُ البَارِدَةُ كَمَا قَالَ أَحْمَدُ بن عاصم: «التَّوْبَةُ أَيُّهَا المُسْلِمُ جَعَلَهَا اللهُ مَطهرةً لِكلِ ذَنْبٍ وَقَعَ فِيهِ العَبْدُ، فَعَنْ أَبِي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: «**التَائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ**»(٣).

- **عِنْدَمَا يَفْرَحُ الرَّبّ:**

أَتَدْرِي - أَخِي - مَتَىٰ يَفْرَحُ اللهُ تَعَالَىٰ بِكَ، اسْمَعْ إِلَىٰ مَا وَرَدَ فِي «صَحِيحِ

---

(١) النور: ٣١.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨١٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي الزوائد: «صحيح رجاله ثقات»، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في المعجم الكبير (١٠/ ١٥٠) (١٠١٢٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. و حسَّنه الألباني.

مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**للَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ، فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ العَطَشُ ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ العَبْدِ المُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ**»(1) .

وَهَـٰذَا الحسنُ البَصْرِيُّ رضي الله عنه يُسْأَلُ عَنْ حَالِه، فَيَبْتَسِمُ ويقولُ لسَائله: تَسْأَلُنِي عَنْ حَالِي. . .؟!! مَا ظَنُّكَ بِنَاسٍ رَكِبُوا سَفِينةً، حَتَىٰ تَوَسَّطُوا البَحْرَ، فانْكَسَرَتْ سَفِينَتُهُمْ، فَتعلَّقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ بِخَشَبَةٍ. . .!! عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ يَكُونُونَ. . .؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: عَلَىٰ حَالٍ شَدِيدةٍ. . .! فَقَالَ الحَسَنُ: حَالِي أَشَدُّ مِنْ حَالِهِمْ!!!

إِنَّ حَالَ البَعْضِ مِنَّا اليَومَ كَمَا قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَرْبٍ: «إِنَّ أَحَدَنَا يُؤْثِرُ الظِّلَّ عَلَىٰ الشَّمْسِ، ثُمَّ لاَ يُؤْثِرُ الجَنَّةَ عَلَىٰ النَّارِ. . .».

فَمَا بَالُ أَقْوامٍ يَهرُبُونَ من الصَّيْفِ بِحَرارَتِه ظَنًا أَنْهَا لاَ تُطَاق، ثُمَّ لاَ يَهرُبونَ مِنَ النَّارِ وَحَرَارَتِهَا. . .؟ يَخْشَىٰ الإِنْسَانُ مِنْ أَنْ تُصِيبَهُ فِي الدنْيَا شَوْكَةٌ، ثُمَّ لاَ يَخْشَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَالعِيَاذُ بِالله!!

- **التِّجَارَةُ مَعَ الخَلْقِ وَالتِّجَارَةُ مَعَ الخَالِقِ:**

إِنَّ لُغَةَ التِّجَّارَةِ وَالتُّجَارِ تَقُولُ: «كُنْ عَالِمًا بِأَحْوَالِ السُّوقِ وَلاَ تَدَعْ فُرْصَةً مِنْ رِبْحٍ تَفُوتُكَ»، وَإِنَّ التِّجَارَةَ مَعَ الله تَقُولُ: لاَ تُضَيِّعْ فُرْصَةً مِنْ طَاعَةٍ، كُنْ دَائِمًا عَلَىٰ حَذَرٍ، وَلاَ تَغْتَرَّ بِطُولِ الأَمَلِ، فَالمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً، وَالقَبْرُ صُنْدُوقُ العَمَلِ.

يَقُولُ عَونُ بنُ عَبْدِ الله: «كَمْ مِنْ مُسْتَقْبِلٍ يَوْمًا لاَ يَسْتَكْمِلُهُ، وَرَاجٍ غَدًا لاَ يَبْلُغُهُ، لَوْ تَنْظُرُونَ إِلىٰ الأَجَلِ وَمَسِيرِهِ، لأَبْغَضْتُمُ الأَمَلَ وَغُرُورَهُ». وَقِيلَ: إِنَّ الشَّافِعِيَّ كَانَ

---

(1) أخرجه البخاري (٦٣٠٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفًا، ومسلم (٢٧٤٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا.

يُكْثِرُ مِنَ حَمْلِ العَصَا، فَسُئِلَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: لأُذَكِّرَ نَفْسِي دَائِمًا أَنِّي مُسَافِرٌ.

وَفِي هَـٰذَا المَعنَىٰ قَالَ الشَّاعِرُ:

حَمَلتُ العَصَا لاَ الضَّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا عليَّ ولا أَنِّي تَحَنَّيْتُ مِنْ كِبَرْ

وَلَكِنْ أَلْزَمْتُ نَفْسِي حَمْلَهَا لأُعلِمَهَا أَنَّ المُقِيمَ عَلَى سَفَرْ

فالتَّوبَةَ التَّوْبَةَ!!!

قَالَ النَّبيُّ ﷺ فِيمَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ الأَغَرِّ المُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ ﷺ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي - أَيْ: يُغَطَّى عَلَيْهِ - وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»(١).

وَرَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ وَأَحْمَدُ عَنْ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**»(٢).

وقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: «اجْلِسُوا إِلَىٰ التَّوَّابِينَ، فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً».

وَسَأَلَ رَجُلٌ ابنَ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنْ ذَنْبٍ أَلَمَّ بِهِ، هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟؟!! فَأَعْرَضَ عَنْهُ ابْنُ مَسْعُودٍ ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهِ، فَرَأَىٰ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ بِالدُّمُوعِ، فَقَالَ لَهُ: يَا رَجُلُ إِنَّ لِلجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوابٍ كُلُّهَا تُفْتَحُ وتُغْلَقُ إِلاَّ بَابُ التَّوْبَةِ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَلَكًا مُوكَّلاً بِهِ لاَ يُغْلَقُ، فاعْمَل ولاَ تَيْأَسْ.

- **شُرُوطُ التَّوْبَةِ:**

وَهُنَا... لاَ بُدَّ أَنْ نُفَصِّلَ فِي الأَمْرِ قَلِيلاً، فَإِنَّ لِلتَّوْبَةِ شُرُوطًا لاَ بُدَّ مِنْ مُرَاعَاتِهَا، حَتَّىٰ تَكُونَ التَّوْبَةُ نَصُوحًا، وَيَحْسُنُ أَنْ نَذْكُرَ حَدِيثَ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**الدَّوَاوِينُ عِنْدَ الله عَزَّوَجَلَّ ثَلاثَةٌ: دِيوَانٌ لاَ يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لاَ يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لاَ يَغْفِرُهُ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢)، وأبو داود (١٥١٥)، وأحمد (٤/ ٢١١).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧) وقال: «حديث حسن غريب»، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (٢/ ١٣٢)، وحسَّنه الألبانيّ.

الله» ، **فأمَّا الدِّيوانُ الّذي لا يغفرُهُ اللهُ: فالشِّرْكُ باللَّه، قَالَ اللهُ تعالى:** ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[1] . **وأمَّا الدِّيوانُ الَّذي لا يَعبأ اللهُ بهِ شَيْئًا: فَظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ فيما بيْنَهُ وبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ صومِ يومٍ تركَهُ أو صلاةٍ تركَهَا، فإنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يغفرُ ذلكَ ويتجاوزُ إنْ شاءَ. وأمَّا الدِّيوانُ الَّذي لا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا: فَظُلْمُ العِبادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، فالقِصاصُ لا مَحالَةَ**»[2] .

صَدَقَ رَسُولُ الله ﷺ.

فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، فَفِيهِ النَّدَمُ. «**وَالنَّدَمُ تَوْبَةٌ**»[3] !! كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، ذَلِكَ النَّدَمُ يَعْقُبُهُ العَزْمُ عَلَىٰ عَدَمِ العَوْدَةِ إِلىٰ الذَّنْبِ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

فَإِنْ قَصَّرَ العَبْدُ فِي صَلاتِهِ أَوْ صَوْمِهِ أَوْ وَقَعَ فِي بَعْضِ الصَّغَائِرِ مِنَ الذُّنُوبِ تَابَ عَنْ ذَلِكَ وَنَدِمَ، وَعَزَمَ عَلَىٰ أَلاَّ يَعُودَ.

أَمَّا الذَّنْبُ المُتَعَلِّقُ بِالعِبَادِ بَعْضِهِمُ البَعْضَ: فَفِيهِ الشُّرُوطُ السَّابِقَةُ وَزِيَادَةٌ عَلَيْهَا أَنْ يَرُدَّ المَظَالِمَ، فَتَوْبَتُهُ مَوْقُوفَةٌ عَلَىٰ عَفْوِ مَنْ ظَلَمَهُ، فَإِنْ عَفَا وَإِلاَّ كَانَ القِصَاصُ، كَمَا سَبَقَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها.

فَفِي الصَّحِيحِ: يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ؟**»، قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: «**إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[4] ، وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

---

(١) المائدة: ٧٢.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٤٨): «رواه أحمد وفيه صدقة بن موسىٰ وقد ضعَّفه الجمهور».

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وأحمد (١/ ٣٧٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨)، وأحمد (٢/ ٣٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَعَلَى هَذَا، فَشُرُوطُ التَّوْبَةِ هِيَ: الإِقْلاعُ عَنِ الذَّنْبِ، ثم النَّدَمُ عَلَيه، ثُمَّ العَزْمُ عَلَىٰ عَدَمِ الرُّجُوعِ إِلَيه مرة أُخْرَىٰ ، أَمَّا فِي حَقِّ العِبَادِ، فَلاَ بُدَّ مِنْ رَدِّ المَظَالِمِ إِلىٰ أَهْلِهَا .

- **عوَامِلُ مُعِينَةٌ عَلَى التَّوْبَةِ:**

وَيَحْسُنُ للعَبْدِ أَنْ يُقَدِّمَ تَوبَتَهُ بيْنَ يَدَيْ عَمَلٍ صَالِحٍ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾[١] .

فَذكْرُ الله تَعَالَىٰ ثُمَّ الاسْتِغْفَارُ، وَحَبَّذَا لَوْ كَانَتْ صَدَقَةٌ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[٢] .

وَمِنَ العَوَامِلِ الَّتِي تُسَاعِدُ العَبْدَ عَلَىٰ حُسْنِ التَوْبَةِ : الصُّحْبَةُ الصَّالِحَةُ وَالبِيئَةُ الْمُعِينَةُ عَلَىٰ التَّوْبَةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ثُمَّ أَكْمَلَهُمْ بِالمَائَةِ، فَقَنَّطَهُ العَابِدُ وَبَشَّرَهُ العَالِمُ بِقَبُولِ تَوْبَتِه وَنَصَحَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَلَدِه إِلىٰ بَلَدٍ مُعَيَّنَةٍ فِيهَا قَوْمٌ صَالِحُونَ[٣]، فَالصُّحْبَةُ الصَّالِحَةُ وَالبِيئَةُ الطَّيِّبَةُ خَيْرُ مُعِينٍ عَلَىٰ ثَبَاتِ التَّوْبَةِ، بِالإِضَافَةِ إِلىٰ المُحَاسَبَةِ المُسْتَمِرَّةِ، وَسُؤَالِ الله تَعَالَى العَوْنَ عَلَىٰ الثَّبَاتِ .

فَاللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يُقَلِّبُ القُلُوبَ حَيْثُ شَاءَ .

وَهَـٰذَا الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ - رَحِمَهُ الله - كَانَ قَاطِعًا لِلطَّرِيقِ، وَكَانَ يَتَعَشَّقُ جَارِيَةً، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يومٍ يَتَسَوَّرُ عَلَيْهَا جِدَارًا لِيَصِلَ إِلَيهَا؛ إِذْ سَمِعَ قَارِئًا يَقُولُ : ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[٤] .

---

(١) آل عمران : ١٣٥ .
(٢) التوبة : ١٠٣ .
(٣) معنىٰ حديث متفق عليه : البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .
(٤) الحديد : ١٦ .

فَقَالَ الفُضَيْلُ: «بَلَىٰ قَدْ آنَ. . قد آن فَتَابَ مِنْ وَقْتِهِ وأَقْلَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ واسْتَمَرَّ عَلَىٰ تَوْبَتِهِ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلىٰ بَيْتِ الله الحَرَامِ وهُنَاكَ لُقِّبَ بِعَابِدِ الحَرَمَيْنِ».

وَقَالَ هشَامُ بنُ حَسَّانَ: «كُنْتُ أَمْشِي خَلْفَ العَلاءِ بن زِيَادٍ وكَانَ فِي الأَرْضِ طِينٌ فَكُنْتُ أَتَوَقَّاهُ خَشْيَةَ أَنْ أَقَعَ فيه، فَجَاءَ رَجُلٌ ودَفَعَ العَلاءَ فَوَقَعَتْ رِجْلُ العَلاءِ فِي الطِّينِ فَخَاضَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ وَقَفَ وَقَالَ: أَرَأَيْتَ يَا هِشَامُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: كَذَلِكَ المَرْءُ المُسْلِمُ يَتَوَقَّىٰ الذُّنوبَ، فَإِنْ وَقَعَ فيها خَاضَهَا!!».

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها وأَرْضَاهَا: «أَقِلُّوا الذُّنُوبَ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَلْقُوا الله عَزَّ وَجَلَّ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ قِلَّةِ الذُّنُوبِ».

لأَنَّ الذُّنُوبَ قَدْ يَتَعَجَّلُ فِي الدُّنْيَا شُؤْمُهَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالحَاكِمُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: «**إِنَّ العَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**»[1].

وَقَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ: «إِنِّي لأَعْصِي الله، فَأَعْرِفُ ذَلِكَ فِي خُلُقِ حِمَارِي وَخَادِمِي».

وَقَالَ الحَسَنُ رضي الله عنه: «الحَسَنَةُ نُورٌ فِي القَلْبِ وَقُوَّةٌ فِي البَدَنِ، وَالسَّيِّئَةُ ظُلْمَةٌ فِي القَلْبِ وَوَهَنٌ فِي البَدَنِ».

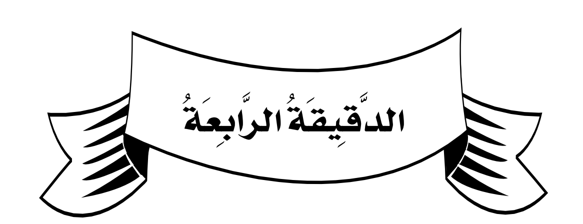
فالتَّوْبَةَ التَّوْبَةَ أَيُّهَا المسْلِمُ الكَرِيمُ. . .

وَإِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَمَا مَاءُ البِحَارِ إِلاَّ ذَرَّاتٌ صَغِيرَةٌ، وَمَا الجِبَالُ الضَّخْمَةُ إِلاَّ حَبَّاتُ رِمَالٍ، وَمَنْ غَاصَ فِي الصَّغَائِرِ يُوشِكُ أَنْ يَغْرَقَ فِي الكَبَائِرِ.

اللهُمَّ بِرَحْمَتِكَ تُبْ عَلَيْنَا لِنَتُوبَ، رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوابُ الرَّحِيمُ.



(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٩٤) عن ثوبان رضي الله عنه، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده حسن».



فَنُّ المُحَاسَبَةِ

يَقُولُ اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾(١).

ويقول اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾(٣).

ويقول سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾(٤).

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ مَحَطَّةٌ مِنْ مَحَطَّاتِ السَّالِكِينَ، وَدَرَجَةٌ مِنْ دَرَجَاتِ الْمُؤْمِنِينَ... فَفِي دُنْيَا النَّاسِ، التَّاجِرُ يَسْتَعِينُ بِشَرِيكِهِ فِي التِّجَارَةِ يُشَارِطُهُ وَيُحَاسِبُهُ طَلَبًا للرِّبْحِ، وكَذلك العَقْلُ يَحْتَاجُ إِلىٰ مُشَارَكَةِ النَّفْسِ ومُشَارَطَتِهَا وَإِرْشَادِهَا إِلَىٰ طَرِيقِ الفَلاَحِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ لاَ يَغْفَلُ عَنِ مُرَاقَبَتِهَا، فَإِنَّهُ لاَ يَأْمَنُ خِيَانَتَهَا وَتَضْيِيعَهَا لرَأْسِ المَالِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُطَالِبُهَا بِالوَفَاءِ بِمَا شَرَطَ عَلَيْهَا.

عَنْ شَدَّادِ بنِ أَوْسٍ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ**

(١) الكهف: ٤٩.
(٢) الأنبياء: ٤٧.
(٣) آل عمران: ٣٠.
(٤) الزلزلة: ٦-٨.

المَوْتِ، والعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَه هَوَاهَا وتَمَنَّى علَى الله»(١) .

وَيَقُولُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه : «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا ، ثُمّ تَلا قوله تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾(٢)» .

وَقَالَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ : سَمِعْتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه وَقَدْ خَرَجَ وَخَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّىٰ دَخَلَ حَائِطًا فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ - وَبَيْنِي وبَيْنَهُ جِدَارٌ : «عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ أَمِيرُ المُؤْمنِينَ بَخٍ بَخٍ ! وَاللَّهِ لَتَتَّقِيَنَّ اللهَ أَوْ لَيُعَذِّبَنَّكَ اللَّهُ ، وَقَالَ الحَسَنُ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَىٰ : ﴿ **وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾(٣) . قَالَ : لاَ يَلْقَى المُؤْمِنُ إلاَّ يُعَاتِبُ نَفْسَهُ ، مَاذَا أَرَدتُ بِكَلِمَتِي . . . ؟ مَاذَا أَرَدتُّ بِأَكْلَتِي . . . ؟ مَاذَا أَرَدتُّ بِشَرْبَتِي . . . ؟ وَالفَاجِرُ يَمْضِي وَلاَ يُعَاتِبُ نَفْسَهُ» .

وَقَالَ مَالِكُ بنُ دِينَارٍ : «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ لِنَفْسِه : أَلَسْتِ صَاحِبَةَ كَذَا ، أَلَسْتِ صَاحِبَةَ كَذَا ، ثُمَّ ذَمَّهَا ، ثُمَّ أَلْزَمَهَا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَكَانَ لَهُ قَائِدًا» .

وَقَالَ مَيْمُونُ بنُ مِهْرَانَ : «التَّقِيُّ أَشَدُّ مُحَاسَبَةً لِنَفْسِهِ مِنْ سُلْطَانٍ غَاشِمٍ وَمِنْ شَرِيكٍ شَحِيحٍ» .

وَقَالَ أَيْضًا - رَحِمَهُ اللهُ : «سَمِعْتُ الحَجَّاجَ يَخْطُبُ وَيَقُولُ : رَحِمَ اللهُ امْرَأً حَاسَبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ الحِسَابُ إِلىٰ غَيْرِهِ ، وَرَحِمَ اللهُ امْرَأً أَخَذَ بِعِنَانِ عَمَلِه فَنَظَرَ مَاذَا يُرِيدُ بِهِ ، وَرَحِمَ اللهُ امْرَأً نَظَرَ فِي مِكْيَالِهِ ، وَرَحِمَ اللهُ امْرَأً نَظَرَ فِي مِيزَانِهِ ، فَمَا زَالَ يَقُولُ حَتَّىٰ أَبْكَانِي» .

وَيَقُولَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ : «المُؤْمِنُ قَوَّامٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، يُحَاسِبُهَا» .

وَيَقُول أَبُو حَامِدٍ الغَزَالِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي تَعْرِيفِهِ لِلمُحَاسَبَةِ : «أَنْ يَنْظُرَ المسلمُ فِي رَأْسِ المَالِ ، وَفِي الرِّبْحِ ، وَفِي الخُسْرَانِ ؛ لِيَتَبَيَّنَ لَهُ الزِّيَادَةُ مِنَ النُّقْصَانِ ، فَرَأْسُ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) وقال : «حديث حسن» ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وأحمد (٤/ ١٢٤) ، وضعفه الألباني .

(٢) الحاقة : ١٨ . (٣) القيامة : ٢ .

مَاله الفَرائضُ، وَرِبْحُهُ؛ النَّوَافِلُ وَالفَضَائِلُ، وَخُسْرَانُهُ؛ المَعَاصِي، فَلْيُحَاسِبْ نَفْسَهُ أَوَّلاً عَلَىٰ الفَرَائِضِ، وَإِنْ تَرَكَ فَرِيضَةً أَوْ ارْتَكَبَ مَعْصِيَةً اشْتَغَلَ بِمُعَاقَبَتِهَا؛ لِيَسْتَوْفِيَ مِنْهَا مَا فَرَطَ».

يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَىٰ جَمِيعِ العُمْرِ يَوْمًا يَوْمًا وَسَاعَةً سَاعَةً فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ الجَسَدِيَّةِ وَالقَلْبِيَّةِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ.

وَمِمَّا أُثِرَ عن «تَوْبَةَ بنِ الصِّمَّةِ» أَنَّهُ قَدْ حَاسَبَ نَفْسَهُ يومًا وهُوَ ابنُ سِتِّينَ سَنَةً، فَحَسبَ أَيَّامَهَا، فَإِذَا هِيَ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ يَوْمٍ وَخَمْسُمَائَة يوم، فَصَرَخَ وَقَالَ: يَا وَيْلَتَاهُ أُلاقِي رَبِّي بِأَحَدَ وَعِشْرِينَ أَلْفَ ذَنْبٍ وَخَمْسُمَائَة ذَنْبٍ؟ كَيْفَ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ عَشَرَةُ آلاَفِ ذَنْبٍ!! ثُمَّ خَرَّ مَغْشِيًا عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ، فَسَمِعُوا قَائِلاً يَقُولُ: يَا لك رَكْضَةً فِي الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَىٰ.

وَمِمَّا يُؤْثَرُ عَنِ السَّلَفِ فِي كَيْفِيَّةِ مُحَاسَبَتِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ، مَا رُوِيَ أَنَّ رَجُلاً كَانَ يَتْبَعُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ، فَيَجِدُهُ دَائِماً يُخْرِجُ مِنْ صَدْرِهِ رُقْعَةً يَنْظُرُ فِيهَا ثُمَّ يُعِيدُهَا!! فَأَحَبَّ الرَّجُلُ أَنْ يَعْلَمَ مَا فِيهَا، وَاجْتَهَدَ فِي الحُصُولِ عَلَيْهَا!! وَشَاءَ اللهُ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِهِ الرُّقْعَةُ فَإِذَا مَكْتَوبٌ فِيهَا: سُفْيَانُ! اذْكُرْ وُقُوفَكَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ....!!هكَذَا كَانَ سُفْيَانُ يُعَالِجُ نَفْسَهُ وَيُحَاسِبُهَا.

وَاسْمَعُوا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ بنِ يَزِيدٍ التَيْمِيِّ كَيْف كَانَ يُعَالِجُ نَفْسَهُ وَيُحَاسِبُهَا كَذلكَ، حَيْثُ قَالَ: مَثَّلْتُ نَفْسِي فِي النَّارِ أُعَالِجُ أَغْلالَهَا وَسَعِيرَهَا، وَآكُلُ مِن زَقُّومِهَا وَأَشْرَبُ مِنْ زَمْهَرِيرِهَا...

فَقُلْتُ: يَا نَفْسُ أَيَّ شَيءٍ تَشْتَهِينَ؟

قَالَتْ: أَرْجِعْنِي إِلَىٰ الدُّنْيَا أَعْمَلْ عَمَلاً أَنْجُو بِهِ مِنْ هَذَا العَذَابِ...!

يقُولُ إبراهيم: وَمَثَّلْتُ نَفْسِي فِي الجَنَّةِ، مَعَ حُورِهَا وَأَلْبَسُ مِن سُنْدُسِهَا وَإِسْتَبْرَقِهَا وَحَرِيرِهَا...

فَقُلْتُ: يَا نَفْسُ! أَيَّ شَيءٍ تَشْتَهِينَ؟

قَالَتْ: أرْجِعني إلَى الدُّنْيَا، فَأَعْمَلَ عَملاً صَالِحًا أَزْدَادُ مِنْ هَذَا الثَّوَاب.

ثم انْظُرْ - أَخِي الْحَبِيب - إلى ابنِ الجَوْزِيِّ وَهُوَ يَضْبِطُ نَفْسَهُ وَيُحَاسِبُهَا، فَيَتَمَثَّلُها وَيُحَدِّثُهَا فِي حوَارٍ عَجِيبٍ . . .

فَيَقُولُ فِي خَلْوَةٍ مَعَ نَفْسِه: تَرَاعَنَتْ عَلَيَّ نَفْسِي فِي طَلَبٍ تَهْوَاهُ بِتَأْوِيلٍ فَاسِدٍ. . . فَقُلْتُ لَهَا: بِاللهِ عَلَيْكِ تَصَبَّرِي، إِذَا هَمَمْتِ بِفِعْلٍ فَقَدِّرِي، ثُمَّ تَلَمَّحِي عَوَاقِبَهُ، وَمَا تَجْنِينَ مِنْ ثَمَرَاتِه، فَأَقَلُّ ذَلِكَ النَّدَمُ عَلَى مَا فَعَلْت، ثُمَّ اعْلَمِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَنَّهُ مَا يَمْضِي شَيءٌ بِدُونِ تَقْدِير، وَأَنَّ مِيزَانَ العَدْلِ لا يُحَابِي فَتَلَمَّحِي الأَمْوَاتَ وَالأَحْيَاءَ، وَانْظُرِي إِلَى مَنْ نُشِرَ ذِكْرُهُ بِالخَيْرِ وَالشَّرِّ.

فقَالَتْ لِي نَفْسِي: لَقَدْ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ عَلَى تَرْكِ مَا أَهْوَى وَمَا أَشْتَهِي وَهَـٰذَا عَذَابٌ، فَقَالَ لَهَا: لَكِ عَنْ هَـٰذَا الصَّبْرِ عِوَضٌ، وَمِنْ كُلِّ مَتْرُوكٍ بَدَلٌ، وَأَنْتِ فِي مَقَامِ العُبُودِيَّةِ وَلاَ يَصِحُّ للأَجِيرِ أَنْ يَلْبَسَ ثِيَابَ الرَّاحَةِ فِي زَمَنِ الاسْتِئْجَار. . . ! يَا نَفْسُ مَنْ خَافَ العِقَابَ تَرَكَ الْمُشْتَهَى، وَمَنْ رَامَ القُرْبَ اسْتَعْمَلَ الوَرَعَ، وَللصَّبْرِ حَلاَوَةٌ تَظْهَرُ فِي العَوَاقِبِ. . . هَـٰؤُلاءِ هُم سَلَفُنَا الّذِينَ. . .

- **أولئك أقوام حاسبوا أنفسهم...!!**

أَقْبَلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ يُحَاسِبُونَهَا، فَمَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ أَخَذَ بِأَيْدِيهَا وَنَجَا، وَمَنْ تَرَكَهَا تَسِيرُ بِهَوَاهَا تُحَقِّقُ مَا تَشْتَهِي مِنَ الأَغْرَاضِ فَلَرُبَّمَا حَادَتْ عَنِ الصَّوَابِ، فَأَوْرَدَتْ نَفْسَها وَصَاحِبَهَا المَهَالِكَ.

وَرَحِمَ اللهُ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه الَّذِي كَانَ يُمْسِكُ بِلِسَانِ نَفْسِه وَيُحَاسِبُهُ وَيُوبِّخُهُ قَائِلاً: «هَـٰذَا الذَّي أَوْرَدَنِي المَوارِدَ. . . هَـٰذَا الذَّي أَوْرَدَنِي المَوَارِدَ»، حَتَّى أَشْفَقَ عَلَيْهِ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه.

وَهَـٰذَا وَهبُ بنُ مُنَبِّهٍ يَقُولُ: «حَقٌّ عَلَى العَاقِلِ أَنْ لاَ يَشْغَلَ نَفْسَهُ عَنِ أَرْبَعِ سَاعَات: سَاعَةٍ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٍ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٍ يُفْضِي فِيهَا إِلَى إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بِعُيُوبِهِ، وَسَاعَةٍ يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّاتِهَا فِيمَا يَحِلُّ

لها وَلاَ يَحْرُمُ».

اسْمَعُوا إِلَىٰ أَبِي حَامِدِ الغَزَّالِيِّ حَيْثُ يقولُ: «مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فَرَأَىٰ مِنْهَا تَقْصِيرًا أَوْ فَعَلَتْ شَيْئًا مِنَ المَعَاصِي، فَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يُهْمِلَهَا، بَلْ يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يُعَاقِبَهَا عُقُوبَةً مُبَاحَةً...»(١).

يُحْكَىٰ عَنِ الجُنَيْدِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ قَالَ: «سَمِعْتُ ابنَ الكَرِيبِي يَقُولُ: أَصَابَتْنِي لَيْلَةً جَنَابَةٌ، فَاحْتَجْتُ أَنْ أَغْتَسِلَ وَكَانَتْ لَيْلَةً بَارِدَةً، فَوَجَدْتُ فِي نَفْسِي تَأَخُّرًا وَتَقْصِيرًا فَحَدَّثَتْنِي نَفْسِي بِالتَّأْخِيرِ حَتَّىٰ أُصْبِحَ وَأُسَخِّنَ المَاءَ أَوْ أَدْخُلَ الحَمَّامَ وَلاَ أَعْنِي عَلَىٰ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ: وَاعَجَبًا أَنَا أُعَامِلُ اللهَ تَعَالَىٰ طَوَالَ عُمْرِي وَعِنْدَمَا يَجِبُ لَهُ عَلَيَّ حَقٌّ لاَ أَجِدُ فِي المُسَارَعَةِ وَأَجِدُ فِي الوُقُوفِ وَالتَّأَخُّرِ هَـٰذَا لاَ يَكُونُ أَبَدًا».

وَيُحْكَىٰ عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّهُ نَامَ لَيْلَةً لَمْ يَقُمْ فِيهَا يَتَهَجَّدُ، فَقَامَ سَنَةً لَمْ يَنَمْ فِيهَا عُقُوبَةً لِنَفْسِهِ.

- **عمر بن الخطاب وطريقته في العقاب...!**

وَيُرْوَىٰ فِي ذلك عَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ خَرَجَ إِلَىٰ حَائِطٍ لَهُ، ثُمَّ رَجَعَ وَقَدْ صَلَّىٰ النَّاسُ العَصْرَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا خَرَجْتُ إِلَىٰ حَائِطِي، وَرَجَعْتُ وَقَدْ صَلَّىٰ النَّاسُ العَصْرَ، حَائِطِي هَـٰذَا صَدَقَةٌ عَلَىٰ المَسَاكِينِ».

هَـٰؤُلاءِ رضي الله عنهما سَاقُوا أَنْفُسَهُمْ رَاغِمَةً حَتَّىٰ سَارَتْ مَعَهُمْ رَاضِيَةً، يَقُولُ أَبُو يَزِيدَ كَمَا فِي «صَيْدِ الخَاطِرِ»: مَا زِلْتُ أَسُوقُ نَفْسِي إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَهِيَ تَبْكِي حَتَّىٰ سُقْتُهَا وَهِيَ تَضْحَكُ.

واعْلَمُوا أَنَّ هَـٰذِهِ المُجَاهَدَةَ وَهَـٰذِهِ المُحَاسَبَةَ تَحْتَاجُ إِلَىٰ فَنٍّ وَحُسْنِ صِنَاعَةٍ، كَمَا يَقُولُ ابْنُ الجَوْزِيِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ: «فَإِنَّ أَقْوَامًا أَطْلَقُوهَا ـ أَي: النَّفْسَ ـ فِيمَا تُحِبُّ

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص ٤٠٠.

فَأَوْقَعَتْهُمْ فِيمَا كَرِهُوا، وَإِنَّ أَقْوَامًا بَالَغُوا فِي خِلافِهَا حَتَّىٰ مَنَعُوهَا حَقَّهَا وَظَلَمُوهَا، والحَازِمُ مَنْ تَعْلَمُ مِنْهُ نَفْسُهُ الجِدَّ، فَإِنْ فَسَحَ لَهَا فِي مُبَاحٍ لَمْ تَتَجَاسَرْ أَنْ تَتَعَدَّاهُ، فَيَكُونُ مَعَهَا كَالمَلِكِ إِذَا مَازَحَ بَعْضَ جُنْدِهِ، كَانَت لَهُ هَيْبَتُهُ وَجِدُّهُ».

• **فن المراقبة:**

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «عَلَيْكَ بِالمُرَاقَبَةِ مِمَّنْ لاَ تَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، وَعَلَيْكَ بِالرَّجَاءِ مِمَّنْ يَمْلِكُ الوَفَاءَ، وَعَلَيْكَ بِالحَذَرِ مِمَّنْ يَمْلِكُ العُقُوبَةَ».

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ دِينَارٍ: «خَرَجْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه إِلَىٰ مَكَّةَ، فَعَرَّسْنَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ، فَانْحَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ الجَبَلِ راعٍ ومعه غنم، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَاعِي! بِعْنِي شَاةً مِن هَذِهِ الغَنَمِ، فَقَالَ: إِنِّي مَمْلُوكٌ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: قُلْ لِسَيِّدِكَ: أَكَلَهَا الذئبُ. فَقَالَ الرَّاعِي: فَأَيْنَ اللهُ؟ قَالَ: فَبَكَىٰ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه، ثُمَّ غَدَا إِلَىٰ المَمْلُوكِ فَاشْتَرَاهُ مِنْ مَوْلاَهُ وَأَعْتَقَهُ وَقَالَ: أَعْتَقَتْكَ فِي الدُّنْيَا هَـٰذِهِ الكَلِمَةُ، وَأَرْجُو أَنْ تُعْتِقَكَ فِي الآخِرَةِ».

• **دَرَجاتُ المُرَاقَبَةِ:**

حَقِيقَةُ المُرَاقَبَةِ: هِيَ مُلاَحَظَةُ الرَّقِيبِ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَالمُرَاقَبَةُ هِيَ حَالَةٌ يُثْمِرُهَا القَلْبُ، لِمَعْرِفَتِه بالله وِلاشْتِغَالِه بِه ومُلاحَظَتِه إِيَّاهُ، وَذَلِكَ لِعِلْمِ القَلْبِ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَيَعْلَمُ سِرَّهُ وَجَهْرَهُ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ، وَهَـٰذِهِ المُرَاقَبَةُ عَلَىٰ دَرَجَتَيْنِ:

الدَّرَجَةُ الأُولى: وَهِيَ دَرَجَةُ المُقَرَّبِينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَذَلِكَ بِأَنْ يَصِيرَ القَلْبُ مُنْصَرِفًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا عَنِ اللهِ، فَلِسَانُهُ لاَ يَنْقَطِعُ عَنِ الذِّكْرِ، وَقَلْبُهُ لاَ يَنْقَطِعُ عَنِ الفِكْرِ وَجَوَارِحُهُ لاَ تَتَعَطَّلُ عَنِ التَّعَبُّدِ، وَهَذَا لَيْسَ مُسْتَغْرَبًا فَفِي دُنْيَا النَّاسِ قَدْ يَهْتَمُّ الإِنْسَانُ لأَمْرٍ مَا، فَتَجِدُهُ مُسْتَغْرِقًا فِيهِ كُلِّيًا، وَلاَ يَدَعُ لأَيِّ أَمْرٍ آخَرَ وَقْتًا وَلاَ مَكَانًا فِي ذِهْنِهِ، فَإِنْ كَانَ هَـٰذَا فِي الدُّنْيَا وَلأَجْلِ الدُّنْيَا، فَلاَ عَجَبَ أَنْ يُصْرَفَ أَهْلُ

الطَّاعَةِ مِن الصِّدِّيقِينَ عَن كُلِّ شَيءٍ إِلاَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَمِمَّا يُرْوَىٰ مِنْ قَصَصِ الصَّالِحِينَ فِي هَذَا الأَمْرِ، أَنَّهُ حَكَىٰ بَعْضُ الصَّالِحِينَ مِثَالاً: مَرَرْتُ بِجَمَاعَةٍ يَتَرَامَوْنَ وَوَاحِدٌ جَالِسٌ بَعِيداً عَنْهُمْ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُكَلِّمَهُ فَقَالَ: ذِكْرُ الله تَعَالَىٰ أَشْهَىٰ، فَقُلْتُ: وَحْدَكَ؟ فَقَالَ: مَعِي رَبِي وَمَلَكَايَ! فَقُلْتُ: مَنْ سَبَقَ مِنْ هَؤُلاءِ؟ فَقَالَ: مَنْ غَفَرَ اللهُ لَهُ، فَقُلْتُ: أَيْنَ الطَّرِيقُ؟ فَأَشَارَ نَحْوَ السَّمَاءِ، وَقَالَ: يَا رَبِّ أَكْثَرُ خَلْقِكَ شَاغِلٌ عَنْكَ.

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: وَهِيَ دَرَجَةُ مُرَاقَبَةِ الوَرِعِينَ، وَهُمْ أُنَاسٌ رَاقَبُوا اللهَ تَعَالَىٰ فِي الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ، وَلَكِنْ بَقِيَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَىٰ حَدِّ الاعْتِدَالِ، وَلَهَا حَظٌّ مِنَ الالْتِفَاتِ إِلَىٰ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ أَعْرَاضٍ.

وَمنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدَّرَجَةِ فَيَحْتَاجُ أَنْ يُرَاقِبَ جَمِيعَ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، فَإِنْ كَانَ العَمَلُ لله مَضَىٰ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِ الله تَوَقَّفَ.

وَقَالَ عَلِيٌّ ـ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: «الهَوَىٰ شَرِيكُ العَمَىٰ، وَمِنَ التَّوْفِيقِ التَّوَقُّفُ عَنِ الْحَيْرَةِ وَنِعْمَ طَارِدُ الْهَمِّ الْيَقِينُ. وَعَاقِبَةُ الْكَذِبِ النَّدَمُ، وَفِي الصِّدْقِ السَّلامَةُ، ورُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، والْحَيَاءُ سَبَبٌ إِلَىٰ كُلِّ جَمِيلٍ، وَأَوْثَقُ الْعُرَا التَّقْوَىٰ، وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الله تَعَالَىٰ، إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَالرِّزْقُ رِزْقَانِ، رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ».

وَقَالَ حُمَيْدُ الطَّوِيلُ لِسُلَيْمَانَ بنِ عَلِيٍّ: «عِظْنِي، فَقَالَ: لَئِنْ كُنْتَ إِذَا عَصَيْتَ اللهَ خَالِيًا ظَنَنْتَ أَنَّهُ يَرَاكَ! لَقَدْ اجْتَرَأْتَ عَلَىٰ أَمْرٍ عَظِيمٍ، وَلَئِنْ كُنْتَ تَظُنُّ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ فَقَدْ كَفَرْتَ».

• **المراقبة وأحوال المؤمن:**

مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِ أَنَّهُ دَائِمًا يُرَاقِبُ رَبَّهُ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ وَأَحْوَالِهِ، والْمُؤْمِنُ لا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ أَوْ مُبَاحٍ، فَمُرَاقَبَتُهُ فِي الطَّاعَةِ يَكُونُ

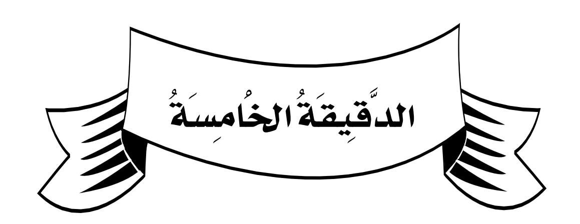
بالإِخْلاصِ وَالْكَمَالِ وَمُرَاعَاةِ الأدَبِ وَحِرَاسَةِ الطَّاعَةِ عَنِ الآفاتِ، وإنْ كَانَ في مَعْصِيَةٍ، فَمُرَاقَبتُهُ بالتَّوْبَةِ والنَّدَمِ، وَالذَّمِّ والإقْلاعِ والْحَيَاءِ والاشْتغَالِ بِالتَّفَكُّرِ، وإنْ كَانَ فِي مُبَاحٍ، فَمُرَاقَبَتُهُ بِمُرَاعَاةِ الأدَبِ وَمُلاحَظَةِ النِّعَمِ وَالشُّكْرِ عَلَيْهَا، وَكَذَلِكَ لا يَخْلُو الْعَبْدُ مِنَ الابْتِلاءِ فَعَلَيْهِ الصَّبْرُ، وَلا يَخْلُو مِنْ نِعْمَةٍ، فَعَلَيْهِ الشُّكْرُ.

وَهَكَذَا، فَعَلَى الْمُؤْمِنِ أنْ يَتَفَقَّدَ أحْوَالَهُ وَأعْمَالَهُ وَأنْ يُدَاوِمَ الْمُرَاقَبَةَ.

اللَّهُمَّ إنا نسألك الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ وَالعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ...

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أمْرِنَا، وَأَصْلِحْ لَنَا دُنْيَانَا التِي فِيهَا مَعَاشُنَا وَأَصْلِحْ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادُنَا وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَالمَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ.





أهْلُ الجَنَّاتِ والعُيُونِ

● **مَنْ هُمْ يَا تُرَى أَهْلُ الجَنَّاتِ والعُيُونِ؟**

اقْرَؤُوا مَعِي قَوْلَ الله تَعَالَىٰ فِي سُورَةِ الذَّارِيَات: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[(١)].

وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ**»[(٢)].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَرْفَعُهُ قَالَ: سُئِلَ أَيُّ الصَّلاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ؟ . . . فَقَالَ: «**أَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ الْمَكْتُوبَةِ: الصَّلاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ...**»[(٣)].

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ ﷺ: «**إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لاَ يُوافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ خَيْراً مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاه وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ**»[(٤)].

عَرَفَ أَبُو الدَرْدَاءِ قِيمَةَ صَلاةِ اللَّيْلِ فَقَالَ: «صَلُّوا رَكْعَتَيْنِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ لِظُلْمَةِ القُبُورِ».

وَهَـٰذَا أَحْمَدُ بنُ حَرْبٍ يَتَعَجَّبُ وَيَقُولُ: «عَجِبْتُ لِمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الجَنَّةَ تُزَيَّنُ

---

(١) الذاريات: ١٥ ـ ١٨.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩)، وابن خزيمة في صحيحه (١١٣٥) (٤/ ٣١٣)، وحسَّنه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (١١٦٣)، وأحمد (٢/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه مسلم (٧٥٧)، وأحمد (٣/ ٣١٣).

فَوْقَهُ، وَالنَّارَ تُضْرَمُ تَحْتَهُ، كَيْفَ يَنَامُ بَيْنَهُمَا».

لَبِسْتُ ثَوْبَ الرَّجَا وَالنَّاسُ قَدْ رَقَدُوا	وقُمْتُ أَشْكُو إِلى مَوْلَايَ مَا أَجِدُ
وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بِالضُّرِّ مُبْتَهِلاً	إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ مُدَّتْ إِلَيْهِ يَدُ
فَلاَ تَرُدَّنَّهَا يَا رَبِّ خَائِبَةً	فَبَحْرُ جُودِكَ يَرْوِى كُلَّ مَنْ يَرِدُ

وكانَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه إِذَا هَدَأَتِ الْعُيُونُ قَامَ، فَيُسْمَعُ لَه دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ حَتَّىٰ يُصْبِحَ.

وَهَـٰذَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يَقُولُ: «لَمْ أَجِدْ مِن الْعِبَادَةِ شَيْئًا أَشَدَّ مِن الصَّلَاةِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا بَالُ الْمُتَهَجِّدِينَ أَحْسَنَ النَّاسِ وُجُوهًا؟! فَقَالَ: لأَنَّهُمْ خَلَوْا بالرَّحْمَـٰنِ، فَأَلْبَسَهُمْ مِنْ نُورِهِ.

وَكَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بنُ أَبِي رَوَّادٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يَأْتِي فِرَاشَهُ، فَيَمْسَحُ عَلَيْه بِيَدِه، وَيَقُولُ: إِنَّكَ لَلَيِّنٌ، وَاللهِ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ أَلْيَنَ مِنْكَ، وَلا يَزَالُ يُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ.

وَقَالَ الْفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ: إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَىٰ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، فَاْعَلَمْ أَنَّكَ مَحْرُومٌ وَقَدْ كَثُرَتْ خَطِيئَتُكَ.

وَكَانَ صِلَةُ بنُ أَشْيَمَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَإِذَا كَانَ فِي السَّحَرِ قَالَ: إِلَـٰهِي، لَيْسَ مِثْلِي يَطْلُبُ الْجَنَّةَ، وَلَكِنْ أَجِرْنِي بِرَحْمَتِكَ مِنَ النَّارِ.

وَقَالَ الرَّبِيعُ: بِتُّ فِي مَنْزِلِ الشَّافِعِيِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ لَيَالِيَ كَثِيرَةً، فَلَمْ يَنَمْ مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا يَسِيراً.

وَيُقَالُ: إِنَّ مَالِكَ بنَ دِينَارٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ بَاتَ يُرَدِّدُ هَـٰذِهِ الآيَةَ لَيْلَةً حَتَّىٰ أَصْبَحَ: ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾[1].

وَقَالَ الْمُغِيرَةُ بنُ حَبِيبٍ: «رَمَقْتُ مَالِكَ بنَ دِينَارٍ، فَتَوَضَّأَ بَعْدَ الْعِشَاءِ، ثُمَّ قَامَ وقَالَ: إِلَـٰهِي، قَدْ عَلِمْتَ سَاكِنَ الْجَنَّةِ مِنْ سَاكِنِ النَّارِ، فَأَيُّ الرَّجُلَيْنِ مَالِكٌ؟ وَأَيُّ

(١) الجاثية: ٢١.

الدَّارَيْنِ دَارُ مَالِك؟ فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ قَوْلَهُ حَتَّىٰ طَلَعَ الْفَجْرُ».

وَقِيلَ: إِنَّ مَسْرُوقًا ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ حَجَّ، فَمَا بَاتَ لَيْلَةً إِلَّا سَاجِدًا.

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: «مَنْ صَفَىٰ صُفِّيَ لَهُ وَمَنْ كَدَرَ كُدِّرَ عَلَيهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي لَيْلِهِ كُوفِئَ فِي نَهَارِهِ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِي نَهَارِهِ كُوفِئَ فِي لَيْلِهِ».

وَكَانَ شَدَّادُ بنُ أَوْسٍ إِذَا دَخَلَ الفِرَاشَ يَتَقَلَّبُ عَلَىٰ فِرَاشِهِ لاَ يَأْتِيهِ النَّوْمُ، فَيَقُولُ: «اللهُمَّ إِنَّ النَّارَ أَذْهَبَتِ النَّوْمَ؟، فَيَقُومُ فَيُصَلِّي حَتَّىٰ يُصْبِحَ».

وَقَالَ هَرِمُ بنُ حَيَّان: «لَمْ أَرَ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا».

وَقَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا لَمْ تَقْدِرْ عَلَىٰ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ، فاعْلَمْ أَنَّكَ مَحْرُومٌ كَبَّلَتْكَ خَطِيئَتُكَ».

وَهَـٰذَا عَمْرُو بنُ دِينَارٍ قَدْ جَزَّأَ لَيْلَهُ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ، ثُلُثًا يَنَامُ، وَثُلُثًا يَدْرُسُ حَدِيثَهُ، وَثُلُثًا يُصَلِّي.

بَلْ ذُكِرَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ قَامَ لَيْلَةً كَامِلَةً بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿ **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ** ﴾[(١)]، يُرَدِّدُهَا وَيَبْكِي وَيَتَضَرَّعُ.

وَرَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِه» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: **«رَحِمَ اللهُ رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا المَاءَ، رَحِمَ اللهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ المَاءَ»**[(٢)].

وَلِلتَّوْضِيحِ وَالبَيَانِ نَقُولُ: إِنَّ هَـٰذَا يَجْرِي إِنِ اتَّفَقَ الزَّوْجَانِ عَلَىٰ قِيَامِ اللَّيْلِ وَالطَّاعَةِ، فَالأَمْرُ لَيْسَ عَلَىٰ إِطْلاقِهِ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ هُنَاكَ مُشَادَّةٌ عَلَىٰ نَفْلٍ أَوْ تَطَوُّعٍ.

---

(١) القمر: ٤٦.

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٨، ١٤٥٠)، والنسائي (١٦١٠)، وأحمد (٢/ ٢٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الألباني: «حسن صحيح».

وَمِنْ أَلْطَفِ مَا رُوِيَ: أَنَّ أَحَدَ الصَّالِحِينَ وَاسْمُهُ رِيَاحٌ قَدْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً، فَبَنَى بِهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ قَامَتْ إِلَىٰ عَجِينِهَا فَقَالَ لَهَا: لَوْ نَظَرْتِ إِلَىٰ امْرَأَةٍ تَكْفِيكِ هَذَا؟ فَقَالَتْ: إِنَّمَا تَزَوَّجْتُ رِيَاحًا وَلَمْ أَرَنِي تَزَوَّجْتُ جَبَّارًا عَنِيدًا!! فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ نَامَ لِيَخْتَبِرَهَا، فَقَامَتْ رُبُعَ اللَّيْلِ ثُمَّ نَادَتْهُ: قُمْ يَا رِيَاحُ، فَقَالَ: أَقُومُ وَلَمْ يَقُمْ، فَقَامَتِ الرُّبُعَ الثَّانِي ثُمَّ نَادَتْهُ، فَقَالَتْ: قُمْ يَا رِيَاحُ، فَقَالَ: أَقُومُ، وَلَمْ يَقُمْ، فَقَامَتِ الرُّبُعَ الثَّالِثَ، ثُمَّ نَادَتْهُ فَقَالَتْ: قُمْ يَا رِيَاحُ، فَقَالَ: أَقُومُ، فَقَالَتْ: مَضَىٰ اللَّيْلُ وَعَسْكَرَ، وَأَنْتَ نَائِمٌ، لَيْتَ شِعْرِي مَنْ غَرَّنِي بِكَ يَا رِيَاحُ، قَالَ: وَقَامَتِ الرُّبُعَ الأَخِيرَ.

وَرُوِيَ أَنَّ امْرَأَةَ حَبِيبٍ العَجَمِيِّ قَدْ انْتَبَهَتْ لَيْلَةً وَهُوَ نَائِمٌ، فَأَنْبَهَتْهُ فِي السَّحَرِ، وَقَالَتْ لَهُ: قُمْ يَا رَجُلُ قَدْ ذَهَبَ اللَّيْلُ وَجَاءَ النَّهَارُ وَبَيْنَ يَدَيْكَ طَرِيقٌ طَوِيلٌ وَزَادٌ قَلِيلٌ، وَقَوَافِلُ الصَّالِحِينَ قَدْ سَارَتْ وَنَحْنُ قَدْ بَقِينَا.

وَكَانَ لِلحُسَيْنِ بْنِ صَالِحٍ جَارِيَةٌ، فَبَاعَهَا إِلَىٰ قَوْمٍ، فَلَمَّا كَانَ جَوْفُ اللَّيْلِ قَامَتِ الجَارِيَةُ وَقَالَتْ: يَا أَهْلَ الدَّارِ الصَّلاةَ، فَقَالُوا: أَصْبَحْنَا؟ أَطَلَعَ الفَجْرُ؟ فَقَالَتْ: وَمَا تُصَلُّونَ إِلاَّ المَكْتُوبَةَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَرَجَعَتْ إِلَىٰ الحُسَيْنِ، فَقَالَتْ: يَا مَوْلاي بِعْتَنِي إِلَىٰ قَوْمٍ لا يُصَلُّونَ إِلاَّ المَكْتُوبَةَ رُدَّنِي، فَرَدَّهَا.

تَعَالَوا نَنْظُرْ إِلَىٰ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه كَيْفَ كَانَ يَقْضِيهَا؟ فَعَنْ أَبِي عُثْمَانَ الهِنْدِيِّ قَالَ: تَضَيَّفْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ، فَكَانَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَخَادِمُهُ يَعْتَقِبُونَ اللَّيْلَ ثَلاثًا، يُصَلِّي هَـٰذَا، ثُمَّ يُوقِظُ هَـٰذَا، وَيُصَلِّي هَـٰذَا، ثُمَّ يُوقِظُ هَـٰذَا.

• حَلاوَةُ قِيَامِ اللَّيْلِ:

هَـٰؤُلاءِ قَامُوا اللَّيْلَ حُبًا فِيمَا عِنْدَ اللهِ مِنْ أَجْرٍ لِقَائِمِ اللَّيْلِ، وَقَدْ أَوْرَثَ القِيَامُ عِنْدَهُمْ سَعَادَةً لاَ تُقَاسُ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَتَجِدُ الوَاحِدَ مِنْهُمْ يَسْتَيْقِظُ وَيَلْبَسُ أَفْضَلَ مَا عِنْدَهُ، وَيَصُفُّ قَدَمَيْهِ بَيْنَ يَدَي رَبِّهِ، فَهَـٰذَا الإِمَامُ أَحْمَدُ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ كَانَتْ لَهُ مَلابِسُ خَاطَهَا بِيَدِهِ، فَإِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ لَبِسَهَا.

وَكَانَ لأَحَدِ الصَّالِحِينَ ثَوْبٌ اشْتَرَاهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ قَامَ وَلَبِسَهُ، ثُمَّ

يَقُولُ: «اللهُمَّ إِنَّكَ جَمِيلٌ تُحبُّ الجَمَالَ مَا لَبِسْتُهُ إِلاَّ لَكَ، ثُمَّ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ خَلَعَهُ» مَعْ أَنَّ التَّجَمُّلَ لِلنَّاسِ مَطْلُوبٌ إِلاَّ أَنَّ التَّجَمُّلَ للهِ أَنْسَاهُ التَّجَمُّلَ لِلنَّاسِ.

- **مُعِينَاتُ قِيَامِ اللَّيْلِ:**

وَحَتَّىٰ يَسْتَطِيعَ الْمُؤْمِنُ أَنْ يُدَاوِمَ عَلَىٰ قِيَامِ اللَّيْلِ لاَ بُدَّ أَنْ يُرَاعِيَ بَعْضَ الآدَابِ الْمُعِينَةِ عَلَىٰ قِيَامِهِ وَالَّتِي مِنْهَا:

أَنْ يَنَامَ عَلَىٰ وُضُوءٍ؛ وَذَلِكَ لِحَدِيثِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ رضي الله عنه أَنْ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاَةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ**»(١).

وَمِنْهَا أَيْضًا أَنْ يَحْرِصَ عَلَىٰ أَنْ لاَ يَنَامَ عَلَىٰ مَعْصِيَةٍ أَوْ ذَنْبٍ يَقُولُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ: «حُرِمْتُ قِيَامَ اللَّيْلِ خَمْسَةَ أَشْهُرٍ مِنْ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ».

وَمِنْهَا أَنْ يَحْرِصَ عَلَىٰ نَوْمِ شَيْءٍ مِنَ القَيْلُولَةِ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لاَ تَقِيلُ**»(٢).

وَمِنْهَا أَيْضًا: أَنْ يَحْرِصَ عَلَىٰ اتِّخَاذِ كُلِّ سَبَبٍ مُمْكِنٍ وَمُبَاحٍ يُعِينُهُ عَلَىٰ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَهَذِهِ الأَسْبَابُ قَدْ تَخْتَلِفُ مِنْ شَخْصٍ لآخَرَ، وَكُلٌّ أَعْرَفُ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِهِ.

وَهَـٰذِهِ الْمُعِينَاتُ تُعَدُّ مُعِينَاتٍ مَادِّيَّةً وَاضِحَةً، وَهُنَاكَ أَيْضًا بَعْضُ الأَسْبَابِ البَاطِنَةِ يَحْسُنُ بِالْمُسْلِمِ وَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِهَا، وَهِيَ:

أَوَّلاً: سَلاَمَةُ الْقَلْبِ وَحُبُّهُ الْخَيْرَ لِلنَّاسِ، وَلاَ نَنْسَىٰ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي بَشَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَلَمَّا أَرَادَ عَبْدُ اللهِ بنِ عَمْرٍو رضي الله عنه مَعْرِفَةَ

---

(١) متفق عليه: البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٨)، والديلمي في مسند الفردوس (٤٥٧٠) عن أنس رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١١٢): «رواه الطبراني في الأوسط وفيه: كثير بن مروان وهو كذاب»، وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٧): «وفي سنده كثير بن مروان وهو متروك».

السَّبَبِ، أخْبَرَهُ هَـٰذَا الصَّحَابِيُّ، بِأَنَّهُ يَنَامُ وَلَيْس فِي قَلْبِهِ حِقْدٌ لأَحَدٍ.

ثَانِيًا: الْخَوْفُ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفِي الْحَدِيثِ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ خَافَ أدْلَجَ ومَنْ أدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ...**»(١).

وَلِهَـٰذَا يَقُولُ طَاوُوسُ - رَحِمَهُ اللهُ: إنَّ ذِكْرَ جَهَنَّمَ طَيَّرَ نَومَ الْعَابِدِينَ.

وَقَالَ أَحَدُ الْعَابِدِينَ: إذَا ذُكِرَتِ النَّارُ، اشْتَدَّ خَوْفِي، وإذَا ذُكِرَتِ الْجَنَّةُ اشْتَدَّ شَوْقِي، فَلا أَقْدِرُ أَنْ أَنَامَ.

وَهَـٰذَا ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ يَقُولُ:

مَنَعَ الْقُرْآنُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ... مُقَلَ الْعُيُونِ بِلَيْلِهَا أنْ تَهْجَعَا

ثَالِثًا: مَعْرِفَةُ فَضْلِ قِيَامِ اللَّيْلِ وَإحْيَائِهِ بِالصَّلَاةِ والذِّكْرِ والدُّعَاءِ، وَفِي هَـٰذَا آيَاتٌ وَأَحَادِيثُ بَيَّنَّا بَعْضَهَا فِي الْبِدَايَةِ.

رَابِعًا: حَنِينُ قُلُوبِهِمْ إلَىٰ الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الله تَعَالَىٰ، قَالَ الْفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ: «إذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ فَرِحْتُ بِالظَّلَامِ لِخَلْوَتِي بِرَبِّي، وَإذَا طَلَعَتْ حَزِنْتُ لِدُخُولِ النَّاسِ عَلَيَّ».

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: أَهْلُ اللَّيْلِ فِي لَيْلِهِمْ أَلَذُّ مِن أهْلِ اللَّهْوِ فِي لَهْوِهِم، وَلَوْلَا اللَّيْلُ مَا أَحْبَبْتُ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا.

وَقَالَ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا وَقْتٌ يُشْبِهُ نَعِيمَ أَهْلِ الْجَنَّةِ إلَّا مَا يَجِدُهُ أَهْلُ التَّمَلُّقِ فِي قُلُوبِهِمْ بِاللَّيْلِ مِنْ حَلَاوَةِ الْمُنَاجَاةِ.

وَقَالَ آخَرُ: لَذَّةُ الْمُنَاجَاةِ لَيْسَتْ مِنَ الدُّنْيَا إنَّمَا هِيَ مِنَ الْجَنَّةِ أَظْهَرَهَا اللهُ تَعَالَىٰ لأَوْلِيائِهِ لَا يَجِدُهَا سِوَاهُمْ.

اللَّيَالِي الْفَاضِلَةُ:

لأَهْلِ الْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ أَيَّامٌ وَلَيَالٍ فَاضِلَةٌ، خَصَّهَا اللهُ تَعَالَىٰ بِالْفَضْلِ، عَرَفُوا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب»، وصححه الألباني.

فَضْلَهَا وَمَكَانَتَهَا مِن السُّنَّة، فَلَمَّا عَرَفُوا فَضْلَهَا أَحَبُّوا قِيامَهَا وَهِيَ أَيَّامٌ وَلَيَالٍ كَثِيرَةٌ تُعَدُّ فِي مِيزانِ الْمَكْسَبِ وَالْخَسَارَةِ مَوَاسِمُ لِلطَّاعَةِ، وَصَفَقَاتٌ رَابِحَةٌ لَا تَعْرِفُ الْخُسْرَانَ. وَهَـٰذِهِ اللَّيَالِي، هِيَ:

لَيَالِي رَمَضَانَ وَخَاصَّةً الْعَشْرُ الأَوَاخِرُ مِنْهَا، وَبِخَاصَّةٍ اللَّيَالِي الْوِتْرُ الَّتِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَمَا سُئِلَ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، فَقَالَ: «**فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ فِي الْوِتْرِ**»(١).

وَمِنْ هَـٰذِهِ الأَيَّامِ: يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ الْجُمُعَةِ، وَيَوْمُ الإِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، وَثَلاثَةُ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ عَرَبِيٍّ؛ الثَّالِثَ عَشَرَ، وَالرَّابِعَ عَشَرَ، وَالْخَامِسَ عَشَرَ.

وَكُلُّ يَوْمٍ لأَهْلِ الْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ يَصُومُونَ نَهَارَهُ وَيَقُومُونَ لَيْلَهُ، يُعَدُّ عِيداً عِنْدَهُمْ، فَلَهُمْ مَوَازِينُ لِلأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، لَيْسَتْ إِلَّا عِنْدَهُمْ، فَقِيَامُ اللَّيْلِ عِنْدَهُمْ شَرَفٌ وَرَاحَةٌ بَعْدَ تَعَبٍ، وَمُنَاجَاةٌ لِرَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَسَعَادَةٌ لَا تُقَدَّرُ بِالدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

- **مَرَاتِبُ قِيَامِ اللَّيْلِ.**

لأَهْلِ الْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ مَرَاتِبُ فِي قِيَامِهِمُ اللَّيْلَ، فَحَتَّى يُحَقِّقُوا الدَّيْمُومَةَ وَالاسْتِمْرَارَ، قَسَّمُوا لَيْلَهُمْ أَجْزَاءً، وَلِكُلِّ جُزْءٍ وَظِيفَةٌ وَحَالٌ. مِنْ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ:

الْمَرْتَبَةُ الأُولَى: أَنْ يُحْيِيَ اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَهَـٰذِهِ الْمَرْتَبَةُ عُرِفَ بِهَا بَعْضُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ.

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَقُومَ نِصْفَ اللَّيْلِ.

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: أَنْ يَقُومَ ثُلُثَ اللَّيْلِ، وَهُوَ قِيَامُ دَاوُدَ عليه السلام:

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ: صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ: صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ**»(١).

(١) أخرجه البخاري في (٢٠١٦)، ومسلم (١١٦٧)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: أَنْ يَقُومَ سُدُسَ اللَّيْلِ أَوْ خُمُسَهُ، وَحَبَّذَا لَوْ كَانَ هَـٰذَا السُّدُسُ أَوِ الْخُمُسُ فِي الثُّلُثِ الأَخِيرِ مِنَ اللَّيْلِ، فَفِيهِ سَاعَةٌ مُبَارَكَةٌ.

الْمَرْتَبَةُ الْخَامِسَةُ: أَنْ يَقُومَ اللَّيْلَ، وَلَكِنْ بِغَيْرِ تَقْدِيرٍ مُعَيَّنٍ أَوْ تَرْتِيبٍ وَحِسَابٍ لِلْوَقْتِ، وَلَهُ طُرُقٌ وَهَيْئَاتٌ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُومُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، فَإِذَا غَلَبَهُ النُّعَاسُ نَامَ، فَإِذَا انْتَبَهَ قَامَ، فَإِذَا غَلَبَهُ النَّوْمُ نَامَ، وَهَـٰكَذَا إِلَىٰ أَنْ يَطْلُعَ الصُّبْحُ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «**... وَكَانَ لا تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إلاَّ رَأَيْتَهُ، وَلاَ نَائِمًا إلاَّ رَأَيْتَهُ**»[٢].

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِذَا أَخَذَ قِسْطَهُ مِنَ النَّوْمِ وانْتَبَهَ قَامَ الْبَاقِي أَيًا كَانَ مِقْدَارُهُ. قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّمَا هِيَ أَوَّلُ نَوْمَةٍ، فَإِذَا انْتَبَهْتُ لَمْ أَقِلْهَا ـ أَيْ: لَا أَعُودُ إِلَىٰ النَّوْمِ لَيْلَتِي هَـٰذِهِ».

الْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ ـ وَرُبَّمَا الأَخِيرَةُ: أَنْ يَقُومَ مِقْدَارًا مِنَ الصَّلَاةِ قَلِيلاً كَانَ أَوْ كَثِيرًا، وَأَقَلُّهُ رَكْعَتَانِ، وَفِي الْحَدِيثِ الَّـذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «سُنَنِهِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**»[٣].

فَهَـٰذِهِ مَجْمُوعَةُ طُرُقٍ أُثِرَتْ عَنِ أَهْلِ الْجَنَّاتِ وَالْعُيُونِ، وَعَلَىٰ أَصْحَابِ اللَّيْلِ أَنْ يَتَمَثَّلُوا مِنْهَا مَا يَصْلُحُ لَهُمْ وَيَنْفَعُهُمْ، وَفِي كُلِّهَا نَفْعٌ وَبَرَكَةٌ.

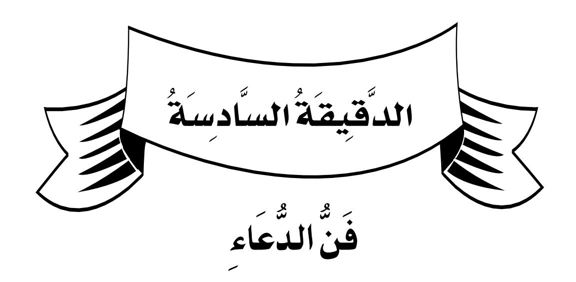
اللهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالعَزِيمَةَ عَلَىٰ الرُّشْدِ، وَالغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَالفَوْزَ بِالْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، بِرَحْمَتِكَ يَا عَزِيزُ يَا غَفَّارُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٢٠)، ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (١١٤١).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٥١)، وابن ماجه (١٣٣٥)، وصححه الألباني.



فَنُّ الدُّعَاءِ

سَنَعِيشُ هَـٰذِهِ الدَّقَائِقَ مَعَ فَنٍّ مِنْ أَبْدَعِ الفُنُونِ، فَنٌّ لَوْ عَرَفَ النَّاسُ قِيمَتَهُ لاحْتَرَفُوهُ كُلُّهُمْ . . . **إِنَّهُ فَنُّ الدُّعَاءِ.**

يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾[(١)].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**»، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: «**اللَّهُ أَكْثَرُ**»[(٢)].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾[(٣)].

الدُّعَاءُ وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا الدُّعَاءُ، سِهَامُ اللَّيْلِ، أَشْرَفُ عِبَادَةٍ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَشْرَفُ العِبَادَةِ الدُّعَاءُ**»[(٤)]، وَكَمَا رَوَىٰ النُّعْمَانُ بنُ بَشِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) أخرجه أحمد (٣/١٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠)، وأبو يعلىٰ في مسنده (١٠١٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/١٤٨): «رواه أحمد وأبو يعلىٰ بنحوه والبزار والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد وأبي يعلىٰ وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح غير عليّ بن رفاعة وهو ثقة»، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٣) غافر: ٦٠

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٣)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٧٠) عن أبي هريرة #، وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد.

قَالَ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى:** ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾»[١].

عَرَفَ العَرَبِيُّ قَبْلَ الإِسْلامِ قِيمَةَ الدُّعَاءِ والتَوَجُّهَ إِلىٰ اللهِ فَقَالَ:

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَائِلُ اللهِ لاَ يَخِيبُ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ**»[٢]، وَقَالَ ﷺ: «**إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»[٣].

يَا أَيُّهَا البَاحِثُونَ عَنِ السَّعَادَةِ...

يَا بَاحِثِينَ عَنْ رَاحَةِ البَالِ وَطُمَأْنِينَةِ النَّفْسِ...

أَقْبِلُوا عَلَىٰ اللهِ وَاسْأَلُوهُ مِنْ فَضْلِه، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرِيمٌ، بَلْ هوَ أَكْرَمُ الأَكْرَمِينَ، وَيُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَيَسْتَحِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ بِالدُّعَاءِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا بِلاَ إِجَابَة.

فَعَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ فَيَرُدَّهُمَا صِفْرًا - أَوْ قَالَ - خَائِبَتَيْنِ**»[٤].

يَقُولُ ابْنُ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ العَبْدَ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ سُؤَالِ رَبِّه، وَيَكُونُ سُؤَالُهُ عَلَىٰ وَجْهِ التَّذَلُّلِ وَإِظْهَارِ فَقْرِ العُبُودِيَّةِ وَذُلِّهَا بَيْنَ يَدَيْ عِزِّ الرُّبُوبِيَّةِ، فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَسْأَلَهُ وَيَرْغَبَ إِلَيْهِ.

وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنِ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ**

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩، ٣٢٤٧، ٣٣٧٢) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وأحمد (٢/ ٣٦٢)، وقال الترمذي: «حسن غريب»، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وأحمد (٢/ ٤٤٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجة (٣٨٦٥)، وصححه الألباني.

مَنْ أَطْعَمْتَهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِيَ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»[1].

وَهَـٰذَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه يَقُولُ: «إِنِّي لاَ أَحْمِلُ هَمَّ الإِجَابَةِ، وَلَكِنْ أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعَاءِ، فَإِذَا أُلْهِمْتُ الدُّعَاءَ عَلِمْتُ أَنَّ الإِجَابَةَ مَعَهُ».

وَهَـٰذَا الإِمَامُ أَحْمَدُ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يَقُولُ: «حَدَّثَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ عَنِ إِسْحَاقَ عَنِ مُطَرِّفٍ قَالَ: تَذَكَّرْتُ جِمَاعَ الْخَيْرِ، فَإِذَا الخَيْرُ كَثِيرٌ: الصَّوْمُ وَالصَّلاَةُ وَإِذَا هُوَ فِي يَدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِذَا أَنْتَ لاَ تَقْدِرُ عَلَىٰ مَا فِي يَدِ اللهِ إِلاَّ أَنْ تَسْأَلَهُ فَيُعْطِيَكَ، فَإِذَا جِمَاعُ الخَيْرِ الدُّعَاءُ»[2].

يُحْكَىٰ أَنَّ قُتَيْبَةَ بنَ مُسْلِمٍ البَاهِلِيَّ كَانَ قَائِدًا عَامًا عَلَىٰ الجُيُوشِ الإِسلاَمِيَّةِ فِي بِلادِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَذَاتَ يَوْمٍ، وَقَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ إِحْدَىٰ مَعَارِكِهِ، قَالَ لأَصْحَابِهِ: الْتَمِسُوا لِي مُحَمَّدَ بنَ وَاسِعٍ، وَكَانَ مُحَمدٌ هَذَا مِمَّنْ تُجَابُ دَعْوَتُهُم، فَبَحَثُوا عَنْهُ، فَوَجَدُوهُ قَدْ تَرَكَ الجَيْشَ وَأَتَىٰ مَكَانًا فِي الغَابَةِ، وَهُوَ رَافِعٌ يَدَيْهِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ يَدْعُو. فَلَمَّا عَادُوا إِلَىٰ قُتَيْبَةَ وَأَخْبَرُوهُ بِخَبَرِهِ قَالَ: وَاللهِ الذي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِنَّ إِصْبَعَ مُحَمَّدِ بنِ وَاسِعٍ خَيْرٌ عِنْدِي مِنْ أَلْفِ شَابٍّ طَرِيرٍ، وَمِنْ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ.

وَمِنَ اللَّطَائِفِ فِي فَنِّ الدُّعَاءِ: أَنَّ (بَقِيَّ بنَ مَخْلَدٍ) وَهُوَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّنْ يُجَابُ دُعَاؤُهُمْ قَدْ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ وَقَالَتْ لَهُ: يَا بَقِيُّ إِنَّ ابْنِي أَسَرَهُ الأَعْدَاءُ فِي أَرْضِ الرُّومِ، وَلَيْسَ لِي مِنْ مُعِينٍ بَعْدَ اللهِ إِلاَّ ابْنِي هَـٰذَا، فَادْعُ اللهَ أَنْ يَرُدَّهُ إِليَّ سَالِمًا، فَمَا كَانَ مِنْ بَقِيٍّ إِلاَّ أَنْ قَامَ ـ وَانْتَبِهُوا إِلَىٰ مَا فَعَلَ ـ وَتَوَضَّأَ وُضُوءَهُ لِلصَّلاَةِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلىَ السَّمَاءِ وَظَلَّ يَدْعُو . . . !

وَبَعْدَ أَيَّامٍ فُوجِئَتِ المَرْأَةُ بِابْنِهَا يَقِفُ أَمَامَهَا!! فَتَعَجَّبَتْ وَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ مَا الذي حَدَثَ؟، فَقَالَ لَهَا: فِي يَوْمِ كَذَا فِي سَاعَةِ كَذَا سَقَطَ قَيْدِي مِنْ رِجْلِي، أَعَادُوهُ فَسَقَطَ، أَحْمُوهُ فَسَقَطَ، فَخَافُوا وَذُعِرُوا وَقَالُوا: أَطْلِقُوهُ! فَعَلِمَتِ المَرْأَةُ أَنَّ ذَلِكَ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) الزهد للإمام لأحمد بن حنبل ص (٢٤١).

مِنْ دُعَاءِ بَقِي ؛ لأَنَّ الوَقْتَ هُوَ نَفْسُ الوَقْتِ الَّذِي دَعَا فِيهِ بَقِيٌّ . . . !

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(١) .

قِيلَ لأَعْرَابِي : أَتُحْسِنُ أَنْ تَدْعُوَ رَبَّكَ؟

فَقَالَ : نَعَمْ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ ، وَقَالَ : اللهُمَّ إِنَّكَ أَعْطَيْتَنَا الإِسْلامَ مِنْ غَيْرِ أَنْ نَسْأَلَكَ ، فَلاَ تَحْرِمْنَا الجَنَّةَ وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ .

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ : «كَانَ مِنْ دُعَاءِ السَّلَفِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ : اللهُمَّ زَهِّدْنَا فِي الدُّنْيَا وَوَسِّعْ عَلَيْنَا فِيهَا ، وَلاَ تَزْوِهَا عَنَّا وَلاَ تُرَغِّبْنَا فِيهَا . . . » .

وَقَالَ سَعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ : «سَمِعْتُ رَجُلاً يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ : اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَمَلاً بَاراً ، وَرِزْقًا دَارًا ، وَعَيْشًا قَاراً فَدَعَوْتُ بِهِ فَمَا وَجَدْتُ إِلاَّ خَيْراً» .

وَدَعَتْ أَعْرَابِيَّةٌ يَوْمَ عَرَفَةَ ، فَقَالَتْ : «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ سِتْرَكَ الذِي لاَ تُزِيلُهُ الرِّيَاحُ ، وَلاَ تَخْرِقُهُ الرِّمَاحُ» .

● **وإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ:**

جَاءَ فِي «الحِلْيَةِ» : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ جَأَرَتْ عَامَّةُ الخَلِيقَةِ إِلَىٰ رَبِّهَا ، فَقَالُوا : يَا رَبِّ خَلِيلُكَ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ فَائْذَنْ لَنَا أَنْ نُطْفِئَ عَنْهُ ، قَالَ اللهُ : هُوَ خَلِيلِي لَيْسَ لِي فِي الأَرْضِ خَلِيلٌ غَيْرُهُ ، وَأَنَا رَبُّهُ لَيْسَ لَهُ رَبٌّ غَيْرِي ، فَإِنِ اسْتَغَاثَكُمْ فَأَغِيثُوهُ وَإِلاَّ فَدَعُوهُ ، قَالَ : فَجَاءَ مَلَكُ الْقَطْرِ فَقَالَ : يَا رَبِّ خَلِيلُكَ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ فَائْذَنْ لِي أَنْ أُطْفِئَ بِالْقَطْرِ ، قَالَ : هُوَ خَلِيلِي لَيْسَ لِي فِي الأَرْضِ خَلِيلٌ غَيْرُهُ وَأَنَا رَبُّهُ لَيْسَ لَهُ رَبٌّ غَيْرِي فَإِنِ اسْتَغَاثَكَ فَأَغِثْهُ وَإِلَّا فَدَعْهُ ، فَلَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ دَعَا رَبَّهُ ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾(٢) ، قَالَ : فَبَرَدَتْ يَوْمَئِذٍ عَلَىٰ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، فَلَمْ يَنْضَجْ بِهَا كُرَاعٌ(٣) .

---

(١) البقرة : ١٨٦ .

(٢) الأنبياء : ٦٩ .

(٣) حلية الأولياء ، لأبي نعيم الأصبهاني (١/ ١٩ ـ ٢٠) .

• التَّوْبَةُ وَالدُّعَاءُ:

يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾(١).

وَالتَّوْبَةُ سَبَبٌ عَظِيمٌ مِنْ أَسْبَابِ إِجَابَةِ الدُّعَاءِ عَنْ رِضًا، قَالَ الإِمَامُ الأَوْزَاعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ: خَرَجَ النَّاسُ يَسْتَسْقُونَ، فَقَامَ فِيهِمْ بِلالُ بنُ سَعْدٍ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ مَنْ حَضَرَ أَلَسْتُمْ مُقِرِّينَ بِالإِسَاءَةِ؟ فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّا قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾(٢)، وَقَدْ أَقْرَرْنَا بِالإِسَاءَةِ فَهَلْ تَكُونُ مَغْفِرَتُكَ إِلاَّ لِمِثْلِنَا، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَاسْقِنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَرَفَعُوا أَيْدِيَهُمْ فَسُقُوا؟

وَيُرْوَىٰ أَنَّ أَحَدَ الصَّالِحِينَ تَرَاكَمَتْ عَلَيْهِ الدُّيُونُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: يَا أَبَتِ أَنْتَ مِمَّنْ يُجَابُ دُعَاؤُهُمْ، فَادْعُوا اللهَ أَنْ يَسُدَّ عَنْكَ دَيْنَكَ، فَقَامَ الرَّجُلُ وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَتُبْ عَلَيَّ، فَقَالَ ابْنُهُ: يَا أَبَتِ، أَلاَ تَدْعُو اللهَ أَنْ يَسُدَّ دَيْنَكَ؟ فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ، لَوْ غَفَرَ وَتَابَ لَسَدَّ عَنَّا دُيُونَنَا.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ: «بَلَغَنِي أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَحَطُوا سَبْعَ سِنِينَ حَتَّىٰ أَكَلُوا الْمَيْتَةَ، وَكَانُوا يَخْرُجُونَ إِلَىٰ الجِبَالِ يَبْكُونَ، فَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ - عَلَيْهِمْ السَّلامُ: إِنِّي لاَ أُجِيبُ لَكُمْ دَاعِيًا حَتَّىٰ تَرُدُّوا الْمَظَالِمَ إِلَىٰ أَهْلِهَا، فَفَعَلُوا فَمُطِرُوا».

فَالتَّوْبَةُ وَرَدُّ الْمَظَالِمِ قَرِينَةُ الدُّعَاءِ، إِنْ قُدِّمَ الدُّعَاءُ فِي وِعَاءِ التَّوْبَةِ قُبِلَتِ التَّوْبَةُ وَمُلِئَ الوِعَاءُ رَحْمَةً وَمَغْفِرَةً وَرِضىً.

---

(١) النور: ٣١.
(٢) التوبة: ٩١.

• **السَّفَرُ وَالدُّعَاءِ:**

المُسَافِرُ فِي خَيْرٍ مِمَّنْ يُجَابُ دُعَاؤُهُمْ، فَقَدْ رَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا قَالَ ﷺ: « **ثَلاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ: دَعْوَةُ المَظْلُومِ وَدَعْوَةُ المُسَافِرِ وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ**»[١].

وَرَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي العُمْرَةِ فَأَذِنَ وَقَالَ: «**لاَ تَنْسَنَا يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ**»، وَفِي رِوَايَةٍ: «**أَشْرِكْنَا يَا أَخِي فِي دُعَائِكَ**»، فَقَالَ عُمَرُ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الدُّنْيَا؟[٢].

أَخِي المُسْلِمُ... أَتَدْرِي مَتَى تَدْعُو لَكَ المَلائِكَةُ؟!

إِنَّهَا تَدْعُو لَكَ حِينَمَا تَدْعُو أَنْتَ لأَخِيكَ بِظَهْرِ الغَيْبِ فَفِي الحَدِيثِ: «**مَنْ دَعَا لأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ**»[٣].

وَجَاءَ فِي «سِيَرِ أَعْلامِ النُّبَلاءِ» عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: «أَنَّ أُمَّ الدَّرْدَاءِ قَالَتْ: كَانَ لأَبِي الدَّرْدَاءِ ثَلاثُمَائَةٍ وَسِتُونَ خَلِيلاً فِي اللهِ يَدْعُو لَهُمْ فِي الصَّلاةِ، فَقُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ رَجُلٌ يَدْعُو لأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ إِلاَّ وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكَيْنِ يَقُولاَنِ: وَلَكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ. أَفَلاَ أَرْغَبُ أَنْ تَدْعُوَ لِي المَلائِكَةُ!!»[٤].

• **آدَابُ الدُّعَاءِ:**

وَلاَ يَفُوتُنَا أَحِبَّتِي أَنْ نَذْكُرَ آدَابَ الدُّعَاءِ وَالأُمُورَ المُعِينَةَ عَلَىٰ الاسْتِجَابَةِ.

فَمِنْ هَذِهِ الآدَابِ: أَنْ يَتَحَرَّىٰ العَبْدُ الأَوْقَاتِ الَّتِي يَدْعُو فِيهَا، فَهُنَاكَ أَوْقَاتٌ مُبَارَكَةٌ كَيَوْمِ عَرَفَةَ وَرَمَضَانَ وَيَوْمِ الجُمُعَةِ وَوَقْتِ السَّحَرِ، وَبَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٣٦)، والترمذي (٣٤٤٨) وقال: «حديث حسن»، وحسنه الألباني.
(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢) وقال: حسن صحيح. وضعفه الألباني.
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٣٢)، وأبو داود (١٥٣٤)، وابن ماجه (٢٨٩٥) عن أبي الدرداء رضي الله عنه.
(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/ ٣٥١).

وَعَقِبَ الصَّلاةِ، وَعِنْدَ نُزُولِ المَطَرِ، وَعِنْدَ خَتْمِ القُرْآنِ، وَفِي السُّجُودِ، وَعِنْدَ الإِفْطَارِ بَعْدَ الصِّيَامِ.

وَمِنَ الآدَابِ أيضاً: أَنْ يَدْعُوَ العَبْدُ، وَهُوَ مُسْتَقْبِلٌ القِبْلَةَ، وَعَلَىٰ وُضُوءٍ، وَأَنْ يَبْدَأَ بِذِكْرِ الله تَعَالَىٰ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَلَيْهِ أَلاَّ يَتَكَلَّفَ السَّجْعَ فِي دُعَائِه، بَلْ يَدْعُو بِمَا يُحِبُّ، وَيُرْوَىٰ أَنْ أَحَدَ الصَّحَابَةِ جَاءَ إِلىٰ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَقَالَ لَهُ: أَنَا لاَ أُجِيدُ تَمْتَمَتَكَ أَنْتَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَصُنْعَكَ فِي الدَّعَاءِ وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَجْتَهِدُ فِي دُعَائِه، فَسَأَلَهُ ابنُ عَبَّاسٍ فَبِمَاذَا تَدْعُو أَنْتَ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: أَقُولُ: اللَّهُمَّ قَرِّبْنِي إِلىٰ الجَنَّةِ وَبَاعِدْنِي عَنِ النَّارِ فَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: حَوْلَهَا نُتَمْتِمُ.

ثُمَّ عَلَيْهِ أَنْ يَخْفِضَ الصَّوْتَ بَيْنَ المُخَافَتَةِ وَالجَهْرِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾(١).

وَرَوَىٰ أَبُو مُوسَىٰ الأَشْعَرِيُّ قَالَ: قَدِمْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ كَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَصَمَّ وَلاَ غَائِبٍ، هُوَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رُؤُوسِ رِحَالِكُمْ**»(٢).

وَمِنَ الآدَابِ: أَنْ يَدْعُوَ العَبْدُ وَيَتَمَثَّلَ حَالَ التَّضَرُّعِ وَالخُشُوعِ وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾(٣).

وَأَنْ يَكُونَ عَلَىٰ يَقِينٍ بِالإِجَابَةِ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ**»(٤).

وَقَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ: «لاَ يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ مِنَ الدُّعَاءِ مَا يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّ

---

(١) الإسراء: ١١٠.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأبو داود (١٥٢٧)، والترمذي (٣٤٦١).

(٣) الأنبياء: ٩٠.

(٤) الترمذي في الدعوات (٣٤٧٩): «حديث غريب»، عن أبي هريرة #، وحسَّنه الألباني.

اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَجَابَ دُعَاءَ شَرِّ الخَلْقِ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللهُ: ﴿**قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ**﴾[1]».

وَمِنْ آدَابِ الدُّعَاءِ أَيْضًا: أَنْ لاَ يَبْدَأَ بِالدُّعَاءِ، وَلَكِنْ بِالحَمْدِ وَالثَّنَاءِ وَالصَّلاةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، يَقُولُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ حَاجَةً فَلْيَبْدَأْ بِالصَّلاةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَسْأَلُهُ حَاجَتَهُ، ثُمَّ يَخْتِمْ بِالصَّلاةِ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقْبَلُ الصَّلاتَيْنِ وَهُوَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَدَعَ مَا بَيْنَهُمَا.

وَقَبْلَ هَـٰذِهِ الآدَابِ عَلَىٰ العَبْدِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَطِيبَ طَعَامَهُ، وَفِي الحَدِيثِ عِنْدَمَا سَأَلَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَكُونَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ**»[2].



اللَّهُمَّ إِنَّا نَدْعُوكَ كَمَا أَمَرْتَنَا، فَاسْتَجِبْ لَنَا كَمَا وَعَدْتَنَا، لَيْسَ لَنَا إِلَـٰهٌ غَيْرُكَ نَدْعُوهُ، وَلاَ لَنَا رَبٌّ سِوَاكَ نَرْجُوهُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

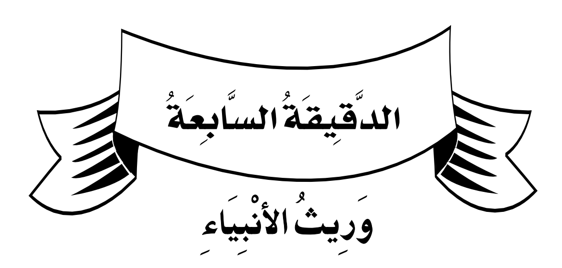
اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الخَيْرَ كُلَّهُ عَاجِلَهُ وَآجِلَهُ مَا عَلِمْنَا مِنْهُ وَمَا لَمْ نَعْلَمْ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْنَا مِنْهُ وَمَا لَمْ نَعْلَمْ.

❖ ❖ ❖

---

(١) الأعراف: ١٤، ١٥.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦٤٩٥) عن ابن عباس ٪، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩١): «وفيه من لم أعرفهم»، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٠٧١): «ضعيف جدا».



الدَّقِيقَةُ السَّابِعَةُ

وَرِيثُ الأَنْبِيَاءِ

• **قِيَمُ الْعِلْمِ وَالْعُلَمَاءِ:**

وَرِيْثُ الأَنْبِيَاءِ وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا وَرِيثُ الأَنْبِيَاءِ؟! . . . إِنَّهُ مَنْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾(١).

هُوَ مَنْ أَعْلَى اللهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ حِينَ قَالَ: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾(٢).

هُوَ مَنْ رَفَعَ اللهُ قَدْرَهُ حِينَ قَالَ: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾(٣).

هُوَ وَرِيثُ الأنبياءِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(٤).

وَرِيثُ الأَنبياءِ هُوَ العَالِمُ وَطَالِبُ العِلْمِ وَمُعَلِّمُ النَّاسِ الخَيْرَ، خَيْرُ النَّاسِ بِنَصِّ كَلامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(٥).

تَسْتَغْفِرُ لَهُ المَلائِكَةُ حَتَّى الحِيتَانُ فِي المَاءِ، وَفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ، قَالَ النَّبِيُّ

---

(١) فاطر: ٢٨.
(٢) الزمر: ٩.
(٣) المجادلة: ١١.
(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه الألباني.
(٥) أخرجه البخاري (٥٠٢٧)، وأبو داود (١٤٥٢)، والترمذي (٢٩٠٧) عن عثمان رضي الله عنه.

ﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًى بِمَا يَصْنَعُ، وإنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ، وَمَنْ فِي الأَرْضِ، والحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ، وإنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وإنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وإنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، إنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١).

تَعَالُوا بِنَا نَقْطُفْ زَهَرَاتٍ مِنْ حَيَاةِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ رضي الله عنهما أَجْمَعِينَ لِنَرَىٰ كَيْفَ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ العَالِمِ وَإِلَىٰ طَالِبِ العِلْمِ؟ وَكَيْفَ كَانُوا يُنْزِلُونَهُمْ مَنَازِلَهُمْ:

جَاءَ فِي سِيرَةِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَىٰ بْنِ زِيَادٍ الفَرَّاء: أَنَّ المَأْمُونَ ـ الخَلِيفَةَ العَبَّاسِي ـ قَدْ وَكَّلَ الفَرَّاءَ أَنْ يُعَلِّمَ ابْنَيْهِ العَرَبِيَّةَ وَالنَّحْوَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمًا أَرَادَ الفَرَّاءُ أَنْ يَنْهَضَ إِلَىٰ بَعْضِ حَوَائِجِهِ، فَابْتَدَرَ ابْنَا المَأْمُونِ إِلَىٰ نَعْلِ الفَرَّاءِ يُقَدِّمَانِهِ لَهُ، فَتَنَازَعَا أَيُّهُمَا يُقَدِّمُهُ ثُمَّ اصْطَلَحَا عَلَىٰ أَنْ يُقَدِّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَرْدًا فَقَدَّمَاهَا، فَلَمَّا عَلِمَ المَأْمُونُ بِذَلِكَ اسْتَدْعَىٰ الفَرَّاءَ، وَسَأَلَهُ قَائِلاً يَا فَرَّاءُ: مَنْ أَعَزُّ النَّاسِ؟ فَقَالَ الفَرَّاءُ: مَا أَعْرِفُ أَعَزَّ مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، فَقَالَ المَأْمُونُ: بَلَىٰ الأَعَزُّ مَنْ إِذَا نَهَضَ تَقَاتَلَ عَلَىٰ تَقْدِيمِ نَعْلَيْهِ وَلِيَّا عَهْدِ المُسْلِمِينَ حَتَّىٰ رَضِيَ كُلُّ وَاحِدٍ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُ فَرْدًا.

وَقَالَ الإِمَامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه: كَفَىٰ بِالعِلْمِ شَرَفًا أَنْ يَدَّعِيَهُ مَنْ لاَ يُحْسِنُهُ، وَيَفْرَحُ بِهِ إِذَا نُسِبَ إِلَيْهِ، وَكَفَىٰ بِالجَهْلِ ضِعَةً أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ مَنْ هُوَ فِيهِ، وَيَغْضَبُ إِذَا نُسِبَ إِلَيْهِ.

وَقَالَ الشَافِعِيُّ:

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ المَرْءُ يُولَدُ عَالِمًا ... وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «كُونُوا لِلْعِلْمِ رُعَاةً، وَلاَ تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً، فَقَدْ يَرْعَوِي مَنْ لاَ يَرْوِي، وَقَدْ يَرْوِي مَنْ لاَ يَرْعَوِي».

وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: أَكْمَلُ الرَّاحَةِ مَا كَانَتْ مِنْ كَدِّ التَّعَبِ، وَأَعَزُّ العِلْمِ مَا

---

(١) سبق تخريجه.

كَانَ عَنْ ذُلِّ الطَّلَبِ.

وَإِلَيْكُمْ هَذِهِ الحِكَايَةَ التِي أَوْرَدَهَا الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: «إِنَّ الشَّيَاطِينَ قَالُوا لإِبْلِيسَ: مَا لَنَا نَرَاكَ تَفْرَحُ بِمَوْتِ الْعَالِمِ، مَا لَا تَفْرَحُ بِمَوْتِ الْعَابِدِ، وَالْعَالِمُ لا تُصِيبُ مِنْهُ وَالْعَابِدُ تُصِيبُ مِنْهُ؟!

قَالَ لَهُمْ: انْطَلِقُوا، فَانْطَلَقُوا إِلَىٰ عَابِدٍ فَأَتَوهُ فِي عِبَادَتِهِ، فَقَالُوا: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَسْأَلَكَ، فَانْصَرَفَ، فَقَالَ لَهُ إِبْلِيسُ: هَلْ يَقْدِرُ رَبُّكَ أَنْ يَجْعَلَ الدُّنْيَا فِي جَوْفِ بَيْضَةٍ؟ فَقَالَ: لاَ أَدْرِي، فَقَالَ: أَتَرَوْنَهُ! ! كَفَرَ فِي السَّاعَةِ، ثُمَّ جَاؤُوا إِلَىٰ عَالِمٍ فِي حَلْقَتِهِ يُضَاحِكُ أَصْحَابَهُ وَيُحَدِّثُهُم، فَقَالَ: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَسْأَلَكَ، فَقَالَ: سَلْ، فَقَالَ: هَلْ يَقْدِرُ رَبُّكَ أَنْ يَجْعَلَ الدُّنْيَا فِي جَوْفِ بَيْضَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: يَقُولُ: كُنْ فَيَكُونُ، فَقَالَ: أَتَرَوْنَ الْعَابِدَ لا يَعْدُو نَفْسَهُ، وهَـٰذَا يُفْسِدُ عَلَيَّ عَالَمًا كَثِيرًا»(١).

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: «إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ يُؤْتَى بِالعَابِدِ، وَالفَقِيهِ فَيُقَالُ - يَعْنِي للعَابِدِ: ادْخُلِ الجَنَّةَ وَيُقَالُ للفَقِيهِ: اشْفَعْ»(٢).

- **شُرُوطُ طَلَبِ الْعِلْمِ وَغَايَتُهُ:**

غَايَةُ طَلَبِ الْعِلْمِ فِي الإِسْلامِ، لَا يَخْتَلِفُ فِيهَا اثْنَانِ، وَهُوَ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَقُرْبَةٌ مِنَ الْقُرَبِ، وَلَابُدَّ مِنْ حُسْنِ النِّيَّةِ فِي طَلَبِهِ، وذَلِكَ بِأَنْ يُقْصَدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ تَعَالَىٰ وَالْعَمَلُ لَهُ وَإِحْيَاءُ الشَّرِيعَةِ وَتَنْوِيرُ الْقُلُوبِ، وَقَدْ أَتَىٰ فِي ذَلِكَ تَحْذِيرَاتٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا:

مَا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه حِينَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ:**

(١) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي (١/ ١٢٥).

(٢) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي (١/ ١١١، ١١٢).

كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[١] .

مِنْ هُنَا ، كَانَ عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ ، أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ فِي عِبَادَةٍ بِطَلَبِهِ الْعِلْمَ ، فَيَكُونُ الإِخْلاصُ فِي سَبِيلِهِ ، فَلا يَرَىٰ لِنَفْسِهِ الْفَضْلَ فِي سَعْيِهِ ، بَلْ يَرَىٰ للهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ الْفَضْلَ عَلَيْهِ ؛ إِذْ وَفَّقَهُ لِطَلَبِ عِلْمٍ مَا يَعْبُدُهُ مِنْ أَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ .

وَالْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الَّذِي يُورِثُ الْخَشْيَةَ وَالْمَخَافَةَ مِنَ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يَقُولُ مَسْرُوقٌ فِيمَا يَرْوِي عَنِ الأَعْمَشِ : «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَخْشَىٰ اللهَ ، وَبِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الْجَهْلِ أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ» .

وَلِهَـٰذَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[٢] .

لِذَلِكَ كَانَ حِرْصُ السَّلَفِ رضي الله عنهم عَلَىٰ تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ عَلَىٰ تَحَرِّي الْغَايَةِ وَالْهَدَفِ مِن تَعَلُّمِ الْعِلْمِ ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ يُوصِي ابْنَهُ فَيَقُولُ : «يَا بُنَيَّ ، لا تَتَعَلَّمِ الْعِلْمَ لِثَلاثٍ ، وَلَا تَدَعْهُ لِثَلاثٍ ، لَا تَتَعَلَّمْهُ لِتُمَارِيَ بِهِ ، وَلَا لِتُبَاهِيَ بِهِ ، وَلَا لِتُرَائِيَ بِهِ ، وَلَا تَدَعْهُ زَهَادَةً فِيهِ ، وَلَا حَيَاءً مِنَ النَّاسِ ، وَلَا رِضًا بِالْجَهَالَةِ .

وَلأَهَمِّيَّةِ تَحَرِّي الْغَايَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، لا يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ**[٣]

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٣١٣٧)، وأحمد (٢/ ٣٢١، ٣٢٢).
(٢) فاطر : ٢٨ .
(٣) **عَرْفُ الجَنَّة**: رِيحُهَا .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

- **مِنْ صُوَرِ تَوْقِيرِ واحْتِرَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ والْعُلَمَاءِ:**

يَحْكِي الْبُخَارِيُّ عَنْ أَحَدِ شُيُوخِهِ - رَحِمَهُمُ اللهُ - أَنَّهُ كَانَ يَقُومُ مِنْ خِلالِ دَرْسِهِ أَحْيَانًا، فَلَمَّا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ قَالَ: «إِنَّ ابنَ أُسْتَاذِي يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ فِي السِّكَّةِ وَيَجِيءُ أَحْيَانًا، إِلَىٰ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ أَقُومُ لَهُ؛ تَعْظِيمًا لأُسْتَاذِي».

وَهَـٰذَا الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ يُبَيِّنُ حَالَةَ الرَّهْبَةِ وَالتَّعْظِيمِ لأُسْتَاذِهِ فَيَقُولُ: «كُنْتُ أَصْفَحُ الْوَرَقَةَ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ صَفْحًا رَقِيقًا هَيْبَةً لِئَلَّا يَسْمَعَ وَقْعَهَا».

وَهَـٰذَا أَحَدُ طُلَّابِ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - يَقُولُ: «وَاللهِ مَا اجْتَرَأْتُ أَنْ أَشْرَبَ الْمَاءَ، وَالشَّافِعِيُّ يَنْظُرُ إِلَيَّ هَيْبَةً لَهُ».

وَهَـٰذَا سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - يَسْمَعُ بِأَنَّ عَالِمَ أَهْلِ الشَّامِ الإِمَامَ الأَوْزَاعِيَّ قَادِمٌ إِلَىٰ مَكَّةَ، فَخَرَجَ سُفْيَانُ فِي اسْتِقْبَالِهِ، فَلَقِيَهُ بِذِي طَوَىٰ فَحَلَّ رَسْنَ بَعِيرِ الإِمَامِ وَوَضَعَهُ عَلَىٰ رَقَبَتِهِ، فَكَانَ إِذَا مَرَّ بِجَمَاعَةٍ يَشْغَلُونَ الطَّرِيقَ قَالَ: «الطَّرِيقُ لِلشَّيْخِ».

وَكَانَ مِنْ تَقْدِيرِ طَالِبِ الْعِلْمِ لِشَيْخِهِ: أَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ إِلَىٰ شَيْخِهِ تَصَدَّقَ بِشَيْءٍ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَيْبَ شَيْخِي عَنِّي، وَلَا تُذْهِبْ عِلْمَهُ مِنِّي».

- **مِيزَانُ طَلَبِ الْعِلْمِ عِنْدَ السَّلَفِ:**

مَعَ تَيْسِيرِ وَسَائِلِ الطَّلَبِ الْمَادِّيَّةِ فِي عَصْرِنَا، إِلَّا أَنَّ أَسْلَافَنَا تَمَيَّزُوا بِأُمُورٍ جَوْهَرِيَّةٍ أَسَاسِيَّةٍ مَتَىٰ وُجِدَتْ حُصِّلَ الْعِلْمُ، وَإِذَا فُقِدَتْ فُقِدَ الْعِلْمُ، **وَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الْمِيزَاتِ:**

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجة (٢٥٢)، وأحمد (٢/٣٣٨) عن أبي هريرة رضي الله عنهم، وصححه الشيخ الألباني.

١ ـ **الإِخْلاص:** فَقَدْ كَانَ دَافِعَهُمْ رضي الله عنهم هُوَ ابْتِغَاءُ وَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ فِيمَا يَتَعَلَّمُونَ، فَلَمْ يَكُنْ قَصْدُهُمْ مُبَاهَاةَ الْعُلَمَاءِ، أَوْ تَصَدُّرَ الْمَجَالِسِ، وَإِنَّمَا كَانَ هَدَفُهُمْ مَعْرِفَةَ شَرِيعَةِ اللهِ وَالْعَمَلَ بِهَا وَنَقْلَهَا إِلَىٰ النَّاسِ.

٢ ـ **عُلُوُّ الْهِمَّةِ:** فَبِالْهِمَّةِ الْعَالِيَةِ يُسْتَسْهَلُ الصَّعْبُ، وَمَا قَطْعُهُمْ لِلْمَسَافَاتِ وَتَحَمُّلُهُمْ لِلْمَشَاقِّ فِي تَحْصِيلِ الْعِلْمِ إِلَّا بِالْهِمَّةِ الْقَوِيَّةِ.

٣ ـ **وُجُودُ الْقُدْوَةِ الصَّالِحَةِ:** فَكَانَ السَّلَفُ رضي الله عنهم يَجِدُونَ الْقُدْوَةَ الصَّالِحَةَ فِي هَـٰذَا السَّبِيلِ، وَالْقُدْوَةُ تَضْعُفُ كُلَّمَا تَقَدَّمَ الزَّمَنُ، فَالْجِيلُ الأَوَّلُ؛ جِيلُ الصَّحَابَةِ، عَاصَرُوا النَّبِيَّ وَاقْتَدَوا بِهِ، وَالتَّابِعُونَ اقْتَدَوْا بِالصَّحَابَةِ، وَأَتْبَاعُ التَّابِعِينَ اقْتَدَوْا بِالتَّابِعِينَ.

يَقُولُ الذَّهَبِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «كَانَ أَبُو دَاوُدَ ـ صَاحِبُ السُّنَنِ ـ يُشَبَّهُ بِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي هَدْيِهِ وَدَلِّهِ وَسَمْتِهِ، وَكَانَ أَحْمَدُ يُشَبَّهُ فِي ذَلِكَ بِوَكِيعٍ، وَكَانَ وَكِيعٌ يُشَبَّهُ فِي ذَلِكَ بِسُفْيَانَ، وَسُفْيَانُ بِمَنْصُورٍ، وَمَنْصُورٌ بِإِبْرَاهِيمَ، وَإِبْرَاهِيمُ بِعَلْقَمَةَ، وَعَلْقَمَةُ بِعَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

• **حَاجَةُ الْعِلْمِ لِلأَدَبِ:**

إِنْ تَحَدَّثْنَا عَنْ العِلْمِ، فَقَرِينُهُ الأَدَبُ، فَلاَ عِلْمَ بِلاَ أَدَبٍ وَأَخْلاقٍ؛ وَلِهَـٰذَا قَالَ ابْنُ سِيرِينَ مُبَيِّنًا حَالَ السَّلَفِ ـ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ: «كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الْهَدْيَ[1] كَمَا يَتَعَلَّمُونَ العِلْمَ».

وَكَانَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ يَقُولُ عَنْهُمْ: «إِنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ لَيَخْرُجُ فِي أَدَبٍ وَاحِدٍ السَّنَتَيْنِ وَالسِّنِينَ»، وَمِنْ هُنَا كَانَتْ وَصِيَّةُ الفَقِيهِ حَبِيبِ بنِ الشَّهِيدِ لابْنِه: «يَا بُنَيَّ اصْحَبِ الفُقَهَاءَ وَالعُلَمَاءَ وَتَعَلَّمْ مِنْهُمْ وَخُذْ مِنْ أَدَبِهِمْ، فَإِنَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْحَدِيثِ».

---

(١) **الْهَدْي:** السيرة والهيئة والطريقة.

وَهَذَا لَيْسَ كَلامَ الفُقَهَاءِ وَحْدَهُمْ، إِنَّمَا كَلامُ أَهْلِ الحَدِيث أَيْضًا، فَاسْمَعْ مَخْلَدَ بنَ الحَسَنِ وَهُو ثِقَةٌ، رَوَىٰ عَنْهُ ابْنُ المُبَارَكِ، وَهُوَ يَقُولُ: «نَحْنُ إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الأَدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ حَدِيثٍ».

• آدَابُ الْعَالِمِ:

أوَّلاً: مُرَاقَبَتُهُ للَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَ:

فَيَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَنْ يَتَحَلَّىٰ بِمُرَاقَبَةِ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عَلَىٰ الدَّوَامِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ وَالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِه، فَإِنَّهُ أَمِينٌ عَلَىٰ مَا أُوْدِعَ مِنَ الْعُلُومِ، وَمَا مُنِحَ مِنَ الْحَوَاسِّ.

ثَانِيًا: نَظْرَتُهُ إِلَى الدُّنْيَا:

يَنْبَغِي لِلْعَالِمِ أَلَّا يَطْلُبَ الدُّنْيَا بِعِلْمِهِ، يَقُولُ يَحْيَىٰ بنُ مُعَاذٍ: «إِنَّما يَذْهَبُ بَهَاءُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ إِذَا طُلِبَ بِهِ الدُّنْيَا».

وكَتَبَ رَجُلٌ إِلَىٰ أَخٍ لَهُ: «إِنَّكَ قَدْ أُوتِيتَ عِلْمًا، فَلَا تُطْفِئَنَّ نُورَ عِلْمِكَ بِظُلْمَةِ الذُّنُوبِ، فَتَبْقَىٰ فِي الظُّلْمَةِ يَوْمَ يَسْعَىٰ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي نُورِ عِلْمِهِمْ».

وَهَـٰذَا لا يَمْنَعُ الْعَالِمَ مِنْ أَنْ يَطْلُبَ رِزْقَهُ وَمَعَاشَهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَكِنْ لِيَحْذَرْ حَتَّىٰ لَا يَقَعَ فِي شَرَكِ الدُّنْيَا؛ وَلْيَجْعَلْهَا دَائِمًا فِي يَدِهِ لَا فِي قَلْبِهِ.

ثَالِثًا: التَّمَتُّعُ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ:

فَحَتَّىٰ يُؤَلِّفَ قُلُوبَ النَّاسِ، عَلَيْهِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ مِنْ طَلَاقَةِ الْوَجْهِ، وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَكَفِّ الأَذَىٰ، وَالسَّعْيِ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ، وَالرِّفْقِ بِطَلَبَةِ الْعِلْمِ وَإِعَانَتِهِمْ وَبِرِّهِمْ، وَيَبْتَعِدَ مَعَهُمْ عَنْ أَسْبَابِ النِّزَاعِ وَالشِّقَاقِ، وَأَنْ يُبْعِدَهُمْ عَنِ ازْدِرَاءِ الآخَرِينَ وَالْعَيْبِ عَلَيْهِمْ وَيُعَوِّدَهُمْ نَظَافَةَ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ.

يَقُولُ عَبْدُ الله بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «كُونُوا يَنَابِيعَ الْعِلْمِ، مَصَابِيحَ الْهُدَىٰ، أحْلاسَ الْبُيُوتِ، سُرُجَ اللَّيْلِ، جُدُدَ الْقَلْبِ، تُعْرَفُونَ فِي السَّمَاءِ وَتَخْفَوْنَ عَلَىٰ أَهْلِ الأرْضِ».

رَابعًا: اخْتِيَارُ الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِتَبْلِيغِ الْعِلْمِ:

وَذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: حَدِّث النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً، فَإِنْ أَبيتَ فَمرَّتينِ، فَإِنْ أَكْثَرْتَ فَثَلاثَ مِرَارٍ، وَلَا تُمِلَّ النَّاسَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَلَا أُلْفِيَنَّكَ تَأْتِي الْقَوْمَ، وَهُمْ فِي حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِهِمْ فَتَقُصُّ عَلَيْهِمْ فَتَقْطَعُ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ فَتُمِلُّهُمْ، وَلَكِنْ أَنْصِتْ، فَإِذَا أَمَرُوكَ فَحَدِّثْهُمْ وَهُمْ يَشْتَهُونَهُ...» الْحَدِيث[1].

خَامِساً: عَدَمُ الاسْتِحْيَاءِ مِنْ الإجَابَةِ بِـ «لا أدْرِي»:

وَذَلِكَ لأنَّ «لَا أدْرِي»: نِصْفُ الْعِلْمِ، وَمَنْ قَالَ: لَا أدْرِي، فَقَدْ أفْتَىٰ، وَهَـٰذَا لَيْس بِدعًا مِنَ الأمْرِ، بَلْ مِنْ نَهْجِ الرَّسُولِ ﷺ، فَعَنْ مُحَمَّدِ بنِ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ: أنَّ رَجُلاً أتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، أيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ قَالَ: فَقَالَ: **«لا أدْرِي»**، فَلَمَّا أتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام - فَقَالَ: **«يَا جِبْرِيلُ، أيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟»**، قَالَ: **«لا أدْرِي حَتَّى أسْألَ رَبِّي عَزَّ وجلَّ، فَانْطَلَقَ جِبْرِيلُ** عليه السلام**، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ أنْ يَمْكُثَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، إنَّكَ سَألْتَنِي أيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ، فَقُلْتُ: لا أدْرِي، وإنِّي سَألْتُ رَبِّي عَزَّ وجلَّ أيُّ الْبُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: أسْوَاقُهَا»**[2].

- **آدَابُ الْمُتَعَلِّمِ:**

لِلْمُتَعَلِّمِ جُمْلَةٌ مِنَ الآدَابِ: آدَابٌ فِي الدَّرْسِ، وَآدَابٌ مَعَ الْعِلْمِ، وَآدَابٌ مَعَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٨١)، وأبو يعلىٰ في مسنده (٧٤٠٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٧٦): «ورجال أحمد وأبي يعلىٰ والبزار رجال الصحيح خلا عبد الله بن محمد بن عقيل وهو حسن الحديث وفيه كلام».

شَيْخِهِ:

أوَّلاً: فِي الدَّرْسِ:

فَيَنْبَغِي عَلَيْهِ أنْ يَلْزَمَ الْهُدُوءَ وَالسَّكِينَةَ، وَيَتَّقِي المِزَاحَ وَكَثْرَةَ الضَّحك، «**فَمَنْ أكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ**»، وَعَلَيْهِ الصَّمْتُ والإِنْصَاتُ وَلَا يَتَحَدَّثُ إِلَّا أنْ يُؤْذَنَ لَهُ».

ثَانِيًا: مَعَ الْعِلْمِ:

عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أنْ يَتَحَلَّىٰ بِحُسْنِ الطَّلَبِ؛ مِنْ تَعْظِيمِ الْعِلْمِ، وَتَوْقِيرِ الْعُلَمَاءِ، وَعَدَمِ التَّعَالِي عَلَىٰ زُمَلائِهِ من الطُّلَّابِ، وَعَلَيْهِ أنْ يَكُونَ حَسَنَ السَّمْتِ، طَوِيلَ الصَّمْتِ إِلَّا لِسُؤَالٍ، وَيَلْتَزِمَ حُدُودَ الأَدَبِ فِي الطَّلَبِ مِنَ التَّوَاضُعِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَعَلَيْهِ أَلَّا يَتَكَلَّفَ فِي كَلَامِهِ، أَوْ أنْ يَنْتَحِلَ صِفَةً لَيْسَتْ فِيهِ؛ لِكَيْ يُعْرَفَ بِهَا.

وَفِي الْحَدِيثِ: يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أحَاسِنَكُمْ أخْلَاقًا، وَإِنَّ أبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ**[١] **وَالْمُتَشَدِّقُونَ**[٢]، **وَالْمُتَفَيْهِقُونَ**[٣]»[٤].

ثَالِثًا: مَعَ شَيْخِهِ:

عَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ أنْ يَتَحَلَّىٰ بِحُسْنِ الْخُلُقِ خَاصَّةً مَعَ شَيْخِهِ.

يَقُولُ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه فِي وَصِيَّتِهِ لِطَلَبَةِ الْعِلْمِ: «مِنْ حَقِّ الْعَالِمِ عَلَيْكَ: أنْ تُسَلِّمَ عَلَىٰ الْقَوْمِ عَامَّةً وَتَخُصَّهُ دُونَهُمْ بِالتَّحِيَّةِ، وَأنْ تَجْلِسَ أمَامَهُ، وَلَا تُشِيرَنَّ عِنْدَهُ بِيَدَيْكَ، وَلَا تَغْمِزَنَّ بِعَيْنَيْكَ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ سَبَقْتَ

---

(١) **الثَّرْثَارُونَ:** هُمْ الَّذِينَ يَتَكَلَّفُونَ كَثْرَةَ الْكَلَامِ.

(٢) **الْمُتَشَدِّقُونَ:** هُمْ الْمُتَطَاوِلُونَ عَلَىٰ النَّاسِ بِكَلَامِهِمْ.

(٣) **الْمُتَفَيْهِقُونَ:** هُمْ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ بِمِلْءِ أفْوَاهِهِمْ وَيَتَوَسَّعُونَ فِي الْكَلَامِ؛ وَذَلِكَ تَكَبُّرًا وإظْهَارًا لِفَضْلِهِمْ عَلَىٰ غَيْرِهِمْ.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠١٨) وقال: «حديث حسن غريب»، عن جابر رضي الله عنهم، وصححه الألباني.

الْقَوْمَ إِلَىٰ خِدْمَتِهِ وَلَا تَشْبَعْ مِنْ طُولِ صُحْبَتِهِ كَالنَّخْلَةِ تَنْتَظِرُ مَتَىٰ يَسْقُطُ عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ».

فَعَلَىٰ طَالِبِ الْعِلْمِ: أَنْ يَتَحَلَّىٰ بِحُسْنِ الأَدَبِ مَع شَيْخِهِ، وَلَا يُثْقِلْ عَلَيْهِ بِمَا يُؤْذِيه.

يَقُولُ الْحَسَنُ بنُ عَلِيٍّ رضي الله عنهما: «يَا بُنَيَّ، إِذَا جَالَسْتَ الْعُلَمَاءَ، فَكُنْ عَلَىٰ أَنْ تَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنْكَ عَلىٰ أَنْ تَقُولَ، وَتَعلَّمْ حُسْنَ الاسْتِمَاعِ، كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ الْكَلَامِ، وَلَا تَقْطَعْ عَلَىٰ أحَدٍ، وَإِنْ طَالَ حَتَّىٰ يُمْسِكَ».

وَمِنْ حُسْنِ الأَدَبِ مَعَ الْعُلَمَاءِ: عَدَمُ الْمُمَارَاةِ، كَمَا يَقُولُ مَيْمُونُ بنُ مِهْرَانَ: «لَا تُمَارِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ خَزَنَ عَنْكَ عِلْمَهُ، وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا».

وَيَقُولُ ابْنُ جُرَيْجٍ: «لَمْ أَسْتَخْرِجْ الَّذِي اسْتَخْرَجْتُ مِنْ عَطَاءٍ إِلَّا بِرِفْقٍ بِهِ».

وَهَنَا آدَابٌ لاَ بُدَّ أَنْ يَتَحَلَّىٰ بِهَا الْمُتَعَلِّمُ وَطَالِبُ العِلْمِ، مِنْهَا: أَنْ يُنْصِتَ لِلسَّمَاعِ وَيَلْزَمَ الهُدُوءَ وَالصَّمْتَ وَيُعْمِلَ الفِكْرَ، وَلاَ يَتَكَلَّمَ إِلاَّ بِإِذْنٍ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُرَاعِيَ التَرْتِيبَ فِيمَا يَطْلُبُ، فَيَطْلُبُ الأَهَمَّ، فَالْمُهِمَّ.

كَذَلِكَ لاَ يَطْلُبُ أَحَدٌ العِلْمَ بِالْمُلْكِ وَعِزِّ النَفْسِ، لَكِنْ يَطْلُبُهُ بِالتَّوَاضُعِ وَخِدْمَةِ العُلَمَاءِ وَتَوقِيرِ العِلْمِ وَعَدَمِ التَّعَلُّقِ بِالدُّنْيَا؛ وَلِهَذَا نَادَىٰ الحَسَنُ بنُ صَالِحٍ طَالِبَ العِلْمِ: «إِنَّكَ لاَ تَفْقَهُ حَتَّىٰ لاَ تُبَالِي فِي يَدِ مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا».

لَكِنْ بِالرِّفْقِ وَالأَدَبِ وَالتَّوَاضُعِ يَسْتَطِيعُ الإِنْسَانُ أَنْ يَأْخُذَ العِلْمَ مِنَ العُلَمَاءِ وَهَذَا مَا بَيَّنَهُ ابنُ جُرَيْجٍ حِينَ قَالَ: «لَمْ أَسْتَخْرِجِ الَّذِي اسْتَخْرَجْتُ مِنْ عَطَاءٍ إِلاَّ بِرِفْقٍ بِهِ».

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ ـ رِضْوَانُ الله تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ ـ يَضَعُونَ عِقَابًا لَطِيفًا لِمَنْ يَنْحَرِفُ فِي أَدَبِهِ، فَيُبْعِدُونَهُ، كَمَا قَالَ أَحْمَدُ بنُ عُمَرَ بْنِ الضَّحَّاكِ: «لاَ أُحِبُّ أَنْ يَحْضُرَ مَجْلِسِي مُبْتَدِعٌ وَلاَ طَعَّانٌ وَلاَ لَعَّانٌ وَلاَ فَاحِشٌ وَلاَ بَذِيءٌ وَلاَ مُنْحَرِفٌ».

وَمِنْ هُنَا كَانَ مِنْ تَقْدِيرِ طَالِبِ العِلْمِ لِشَيْخِهِ أَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ إِلَىٰ شَيْخِهِ تَصَدَّقَ بِشَيءٍ وَقَالَ: اَللَّهُمَّ اسْتُرْ عَيْبَ شَيْخِي عَنِي وَلاَ تُذْهِبْ عِلْمَهُ مِنِّي، وَكُلُّ ذَلِكَ حَتَّىٰ لاَ يُؤْذِي شَيْخَهُ؛ لأَنَّ مَنْ تَأَذَّىٰ مِنْهُ أُسْتَاذُهُ يُحْرَمُ بَرَكَةَ العِلْمِ وَلاَ يَنْتَفِعُ بِهِ إِلاَّ قَلِيلاً.

• **اقْتِضَاءُ الْعِلْمِ بِالْعَمَلِ:**

نَأْتِي عِنْدَ النُّقْطَةِ الأَخِيرَةِ وَهِيَ: «اقْتِضَاءُ العِلْمِ بِالْعَمَلِ»، وَنَسْأَلُ سُؤَالاً وَهُوَ: **مَتَى يَنْفَعُ العِلْمُ صَاحِبَهُ؟**

نَقُولُ: يَنْفَعُ العِلْمُ صَاحِبَهُ حِينَمَا يَضَعُ العَالِمُ عِلْمَهُ مَحَلَّ العَمَلِ، يَضَعُهُ فِي حَيِّزِ التَنْفِيذِ، يَقُولُ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «لاَ تَكُونُ تَقِيًا حَتَّىٰ تَكُونَ عَالِمًا، وَلاَ تَكُونُ بِالعِلْمِ جَمِيلاً حَتَّىٰ تَكُونَ بِهِ عَامِلاً».

وَيَقُولُ الإِمَامُ عَلِيٌّ رضي الله عنه: يَا حَمَلَةَ العِلْمِ اعْمَلُوا بِهِ، فَإِنَّ العَالِمَ مَنْ عَلِمَ، ثُمَّ عَمِلَ وَوَافَقَ عَمَلُهُ عِلْمَهُ.

إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْـمَفَاسِدِ الَّتِي تَقَعُ فِيهَا الأُمَّةُ: هِيَ الْعَالِمُ الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ وَالْعَابِدُ الَّذِي يَعْبُدُ اللهَ عَلَىٰ غَيْرِ عِلْمٍ، وَمَا ضَيَاعُ الأَخْلاقِ وَانْتِشَارُ الْبِدَعِ إِلَّا مِنْ وُجُودِ هَـٰذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ.

لِذَلِكَ، كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يَسْتَعِيذُ مِنْهُمَا وَيَقُولُ: «نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْعَابِدِ الْـجَاهِلِ، وَفِتْنَةِ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ، فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ».

وَلِهَـٰذَا قِيلَ:

فَسَادٌ كَبِيرٌ عَالِمٌ مُتَهَتِّكٌ ... وَأَكْبَرُ مِنْهُ جَاهِلٌ مُتَنَسِّكُ

هُمَا فِتْنَةٌ فِي الْعَالَمِينَ عَظِيمَةٌ ... لِمَنْ بِهِمَا فِي دِينِهِ يَتَمَسَّكُ

وَهُوَ نَفْسُ كَلامِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه حِينَ قَالَ: «قَصَمَ ظَهْرِي رَجُلَانِ: عَالِمٌ مُتَهَتِّكٌ، وَجَاهِلٌ مُتَنَسِّكٌ».

وَلِهَـٰذَا رَمَزَ ﷺ إِلَىٰ قَبْضِ الْعِلْمِ بِمَوْتِ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ.

فَعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرو بنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[١].

وَقَالَ ابنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنهم: «إِنَّ النَّاسَ أَحْسَنُوا القَوْلَ كُلُّهُمْ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ فِعْلَهُ، فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ حَظَّهُ، وَمَنْ خَالَفَ قَوْلُهُ فِعْلَهُ، فَإِنَّمَا يُوبِّخُ نَفْسَهُ».

فَالجَهْلُ يَقْتَضِي مِنْ صَاحِبِهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ، وَالعِلْمُ يَقْتَضِي أَنْ يَعْمَلَ العَالِمُ بِمَا عَلِمَ وَإِلاَّ صَدَقَ فِيهِ قَوْلُ رَبِّنَا: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[٢].

هَـٰذَا، وَأَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ، أَنْ لاَ أَكُونَ جِسْرًا تَعْبُرُونَ بِهِ إِلَىٰ الجَنَّةِ، ثُمَّ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَعَمَلاً مُتَقَبَّلاً، وَرِزْقًا طَيِّبًا حَلالاً، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين.



---

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وهـٰذا لفظ البخاري.



اصْطِنَاعُ الْـمَعْرُوفِ وَإِغَاثَةُ الْـمَلْهُوفِ

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [١]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [٢].

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: **«مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** [٣].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ وَيُقِرُّهُمْ فِيهَا مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا، نَزَعَهَا مِنْهُمْ، فَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ»** [٤].

وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ الْعِبَادِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ؟ قَالَ: **«أَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ»**، قِيلَ: فَأَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: **«إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِ»**، قِيلَ: وَمَا سُرُورُ الْمُؤْمِنِ؟ قَالَ: **«إِشْبَاعُ جَوْعَتِهِ، وَتَنْفِيسُ كُرْبَتِهِ، وَقَضَاءُ دَيْنِهِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَتِهِ كَانَ كَصِيَامِ شَهْرٍ**

---

(١) البقرة: ٢٣٧.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٥٦٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٦٦٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٩٢): «وفيه محمد بن حسان السمتي وثقه ابن معين وغيره وفيه لين، ولكن شيخه أبو عثمان عبد الله بن زيد الحمصي ضعفه الأزديّ».

وَاعْتِكَافِهِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ مَظْلُومٍ يُعِينُهُ ثَبَّتَ اللهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ تَزِلُّ الأَقْدَامُ، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَإِنَّ الخُلُقَ السَّيِّئَ يُفْسِدُ الأَعْمَالَ، كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ»[1] .

وَعَنْ عبدِ اللهِ بنِ الحَسَنِ بنِ الحُسَيْنِ رضي الله عنهم قَالَ: «أَتَيْتُ بَابَ عُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ فِي حَاجَةٍ فَقَالَ لي: «إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ إِليَّ، فَأَرْسِلْ إِليَّ رَسُولاً أَوِ اكْتُبْ لِي كِتَابًا، فَإِنِي لأَسْتَحِي مِنَ اللهِ أَنْ يَرَاكَ عَلَىٰ بَابِي» .

وَعَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: «وَالَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتِ، مَا مِنْ أَحَدٍ أَوْدَعَ قَلْبًا سُرُوراً إِلاَّ خَلَقَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطْفًا، فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَائِبَةٌ جَرَىٰ إِلَيْهَا كَالمَاءِ فِي انْحِدَارِهِ حَتَّىٰ يَطْرُدَهَا عَنْهُ، كَمَا تُطْرَدُ غَرِيبَةُ الإِبِلِ» .

وَأُثِرَ عَنْ بَعْضِ الحُكَمَاءِ قَوْلُهُ: إِذَا سَأَلْتَ الكَرِيمَ حَاجَةً، فَدَعْهُ يُفَكِّرْ، فَإِنَّهُ لاَ يُفَكِّرُ إِلاَّ بِخَيْرٍ، وَفِي خَيْرٍ وَإِذَا سَأَلْتَ لَئِيمًا حَاجَةً، فَعَاجِلْهُ لِئَلاَّ يُشِيرَ عَلَيْهِ طَبْعُهُ أَنْ لاَ يَفْعَلَ .

وَنَحْنُ نَقُولُ: إِذَا سَأَلْتَ الكَرِيمَ وَمَنَعَكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَمْرًا مَنَعَهُ مِنْ إِجَابَةِ طَلَبِكَ وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلَرُبَّمَا مَنَعَ الكَرِيمُ وَمَا بِهِ ... بُخْلٌ وَلَكِنْ سُوءُ حَظِّ الطَّالِبِ

قَالَ أَحَدُ الحُكَمَاءِ: «أَصْلُ المَحَاسِنِ كُلِّهَا الكَرَمُ، وَأَصْلُ الكَرَمِ نَزَاهَةُ النفس عَنِ الحَرَامِ، وَسَخَاؤُهَا بِمَا تَمْلِكُ عَلَىٰ الخَاصِّ وَالعَامِّ، وَجَمِيعُ خِصَالِ الخَيْرِ مِنْ فُرُوعِهِ» .

وَرَوَىٰ المِقْدَامُ بنُ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، دُلَّنِي عَلَىٰ عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ، قَالَ: «**إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ المَغْفِرَةِ بَذْلُ السَّلَامِ وَحُسْنُ الكَلَامِ**»[2] .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ٣٤٨) عن ابن عمر ٪، وابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج ص (٤٧) عن بعض أصحاب النبي ﷺ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١٧٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٨٠) (٤٦٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٧٦) عن الحسين بن عليّ رضي الله عنهما ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٩): «رواه الطبراني وفيه أبو عبيدة=

وقال ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ - عزَّ وجلَّ - جَوَّادٌ يُحبُّ الجُود، وَيُحِبُّ مَعَالِي الأَخْلاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا**»(١).

وَهَـٰذَا الحَسَنُ البَصْرِيُّ يُفَرِّقُ بَيْنَ السَّخَاءِ وَالإِسْرَافِ وَالحَزْمِ، يُرْوَىٰ أَنَّهُ سُئِلَ: مَا السَّخَاءُ؟ فَقَالَ: أَنْ تَجُودَ بِمَالِكَ فِي اللهِ عزَّ وجلَّ، فَقِيلَ: مَا الحَزْمُ؟ فَقَالَ: أَنْ تَمْنَعَ مَالَكَ فِيهِ، قِيلَ: فَمَا الإِسْرَافُ؟ قَالَ: الإِنْفَاقُ لِحُبِّ الرِّيَاسَةِ.

وَنَفْسُ السُّؤَالِ وُجِّهَ لِسُفْيَانَ بنِ عُيَيْنَةَ حَيْثُ قِيلَ لَهُ: مَا السَّخَاءُ؟ فَقَالَ: السَّخَاءُ: البِرُّ بِالإِخْوَانِ وَالجُودُ بِالمَالِ، ثُمَّ حَكَىٰ خَبَرًا عَنْ أَبِيهِ فَقَالَ: وَرِثَ أَبِي خَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَقَسَّمَهَا وَبَعَثَ بِهَا إِلَىٰ إِخْوَانِهِ فَلَمَّا سُئِلَ فِي ذَلِكَ، قَالَ: قَدْ كُنْتُ أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ لإِخْوَانِي الجَنَّةَ فِي صَلاتِي، أَفَأَبْخَلُ عَلَيْهِمْ بِالمَالِ!

وَيُحْكَىٰ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بنَ جَعْفَرٍ سَمِعَ أَحَدَ النَّاسِ يَقُولُ:

إِذَا اصْطَنَعْتَ صَنِيعَةً فَاعْمِدْ بِهَا ... للهِ أَوْ لِذَوِي القَرَابَةِ أَوْ دَعِ

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: هَـٰذَا الكَلامُ يَدْعُو إِلَىٰ البُخْلِ، وَلَكِنْ أَقُولُ: أَمْطِرِ المَعْرُوفَ مَطَرًا، فَإِنْ أَصَابَ الكِرَامَ كَانُوا لَهُ أَهْلاً، وَإِنْ أَصَابَ اللِئَامَ كُنْتَ لَهُ أَهْلاً!

أَيِ: افْعَلِ المَعْرُوفَ فِي أَهْلِهِ وَفِي غَيْرِ أَهْلِهِ، فَإِنْ وَقَعَ فِي أَهْلِهِ، فَهَـٰذَا هُوَ المُرَادُ، وَإِنْ لَمْ يَقَعْ فِي أَهْلِهِ، فَأَنْتَ أَهْلٌ لأَنْ تَفْعَلَ المَعْرُوفَ.

وَسُئِلَ بَعْضُ الأَعْرَابِ: مَنْ سَيِّدُكُمْ؟ فَقَالَ: مَنِ احْتَمَلَ سَأَمَنَا وَأَعْطَىٰ سَائِلَنَا، وَغَضَّ عَنْ جَاهِلِنَا.

= ابن عبد الله الأشجعي، روىٰ عنه أحمد بن حنبل وغيره ولم يضعفه أحد وبقية رجاله رجال الصحيح»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٣٢).

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ١٣١) (٢٨٩٤)، والقضاعي في مسند الشهاب (١١٤٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٨٨): «رواه الطبراني وفيه خالد بن إلياس ضعفه أحمد وابن معين والبخاري والنسائي، وبقية رجاله ثقات»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٧١).

وَمِنْ أَلْطَفِ مَا يُحكَىٰ عَنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ ـ رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمْ ـ أَنَّ أَبَانَ بْنَ عُثْمَانَ قَال: أَرَادَ رَجُلٌ أَنْ يَخْتَبِرَ ابنَ عَبَّاسٍ فِي جُودِهِ وكَرَمِه، فَأَتَىٰ وُجُوهَ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَقُولُ لَكُمْ عَبْدُ الله بنُ عَبَّاسٍ تَغَدُّوا عِنْدِي اليَوْمَ، فَأَتَوْهُ حَتَّىٰ مَلَؤُوا عَلَيْهِ الدَّارَ، فَقَالَ: مَا هَـٰذَا؟ فَأُخْبِرَ الخَبَرَ، فَأَمَرَ بِشِرَاءِ فَاكِهَةٍ وأَمَرَ قَوْمًا فَطَبَخُوا، وَخَبَزُوا وَقُدِّمَتِ الفَاكِهَةُ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَفْرَغُوا مِنْهَا حَتَّىٰ وُضِعَتْ المَوائِدُ، فَأَكَلُوا حَتَّىٰ صَدَرُوا، فَقَالَ عَبْدُ الله لِوُكَلائِه: أَوَمَوْجُودٌ لَنَا هَـٰذَا كُلَّ يَومٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَلْيَتَغَدَّ عِنْدَنَا هَـٰؤُلاءِ فِي كُلِّ يَوْمٍ.

وَحُكِيَ أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ اللَّيْثَ بنَ سَعْدٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ شَيْئًا مِنَ عَسَلٍ، فَأَمَرَ لَهَا بِزِقٍّ مِنْ عَسَلٍ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهَا كَانَتْ تَقْنَعُ بِقَلِيلٍ مِنْ هَـٰذَا، فَقَالَ: «إِنَّهَا سَأَلَتْ عَلَىٰ قَدْرِ حَاجَتِهَا، وَنَحْنُ نُعْطِيهَا عَلَىٰ قَدْرِ النِّعْمَةِ عَلَيْنَا».

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ بَكَىٰ يَوْمًا فَقِيلَ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ: لَمْ يَأْتِنِي ضَيْفٌ مُنْذُ سَبْعَةِ أَيَّامٍ أَخَافُ أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ أَهَانَنِي!

اللَّهُمَّ أَعْطِنَا وَلاَ تَحْرِمْنَا...

اللَّهُمَّ أَكْرِمْنَا وَلاَ تُهِنَّا...

اللَّهُمَّ خُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّىٰ تَرْضَىٰ...

اللَّهُمَّ زِدْ مُحْسِنَنَا إِحْسَانًا...

اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا عَثَرَاتِ الكِرَامِ...

اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي أَوْلَادِنَا وَزَوْجَاتِنَا وَأَمْوَالِنَا وَاجْعَلْهُمْ ذُخْرًا لَنَا يَوْمَ نَلْقَاكَ.





الرِّضَا

الرِّضَا . . . وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا الرِّضَا بَابُ اللهِ الأَعْظَمُ . . . وَجَنَّةُ الدُّنْيَا وَمُسْتَرَاحُ العَابِدِينَ . . . مَنْزِلَةٌ غَالِيَةٌ، وَمَكَانَةٌ رَفِيعَةٌ سَامِيَةٌ وَمَقَامٌ لاَ يَنَالُهُ إِلاَّ السُّعَدَاءُ . . .

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : «**... وارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لكَ تَكُنْ أغْنَى النَّاسِ...**» الحديث(١) .

وَفِي الأَثَرِ: أَنَّ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه نَظَرَ إِلَى عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، فَكَأَنَّهُ رَأَى عَلَى وَجْهِهِ كَآبَةً، فَقَالَ لَهُ : «يَا عَدِيُّ : مَا لِي أَرَاكَ كَئِيبًا حَزِينًا؟ فَقَالَ عَدِيٌّ : وَمَا يَمْنَعُنِي فَقَدْ قُتِلَ ابْنَايَ، وَفُقِئَتْ عَيْنِي، فَقَالَ : يَا عَدِيُّ مَنْ رَضِيَ بِقَضَاءِ اللهِ جَرَى عَلَيْهِ وَلَهُ أَجْرٌ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَاءِ اللهِ جَرَى عَلَيْهِ وَحَبِطَ عَمَلُهُ» .

● **فطنة في الرضا:**

وَهَا هِيَ فِطْنَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه حِينَ يَرْبِطُ بَيْنَ السَّعَادَةِ وَالرِّضَا وَبَيْنَ الهَمِّ وَالسَّخَطِ فَيَقُولُ : «إِنَّ اللهَ بِقِسْطِهِ وَحُكْمِهِ وَعَدْلِهِ وَعِلْمِهِ، جَعَلَ الرَّوْحَ وَالفَرَحَ فِي اليَقِينِ وَالرِّضَا، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالحَزَنَ فِي الشَّكِّ وَالسَّخَطِ»(٢) .

وَحِينَمَا قَرَأَ عَلْقَمَةُ رضي الله عنه قَوْلَ اللهِ تَعَالَى : ﴿**وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾(٣)، قَالَ : «هِيَ الْمُصِيبَةُ تُصِيبُ الرَّجُلَ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ فَيُسَلِّمُ لَهَا وَيَرْضَى . . . » .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وأحمد (٢/ ٣١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنهم ، وحسنه الألباني .
(٢) صفة الصفوة، لابن الجوزي (١/ ٤١٥) .
(٣) التغابن : ١١ .

وأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ دَاوُدَ عليه السلام: «يَا دَاوُدُ إِنَّكَ لَنْ تَلْقَانِي بِعَمَلٍ هُوَ أَرْضَىٰ لِي عَنْكَ، وَلاَ أَحَطَّ لِوِزْرِكَ، مِنَ الرِّضَا بِقَضَائِي».

- **قُلُوبٌ تَعْرِفُ الطَّرِيقَ:**

وَدَخَلَ أَبُو الدَرْدَاءِ عَلَىٰ رَجُلٍ، وَهُوَ يُنَازِعُ المَوْتَ، فَوَجَدَهُ يَحْمَدُ اللهَ، فَقَالَ أَبُو الدَرْدَاءِ: «أَصَبْتَ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَضَىٰ قَضَاءً أَحَبَّ مِنَ العَبْدِ أَنْ يَرْضَىٰ بِهِ».

واسْمَعُوا هَذَا الخَبَرَ المَرْوِيَّ عَنْ دَاوُدَ عليه السلام يَقُولُ: سَأَلَ دَاوُدُ رَبَّهُ قَائِلاً: يَا رَبِّ! أَيُّ عِبَادِكَ أَبْغَضُ إِلَيْكَ؟ فقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: عَبْدٌ اسْتَخَارَنِي فِي أَمْرٍ فَخِرْتُ لَهُ، فَلَمْ يَرْضَ.

وَلِهَـٰذَا لَـمَّا سُئِلَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ رضي الله عنهم: مَا تَشْتَهِي؟

قَالَ: أَشْتَهِي مَا يَقْضِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ!

وَقَالَ الحَسَنُ: مَنْ رَضِيَ بِمَا قُسِمَ لَهُ، وَسِعَهُ، وَبَارَكَ اللهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ لَمْ يَسَعْهُ وَلَمْ يُبَارِكْ لَهُ فِيهِ.

- **إِذَنْ فَالرِّضَا أَوْلَى؟**

إِنَّ قَضَاءَ اللهِ نَافِذٌ لاَ مَحَالَةَ، فَلْيَنْفُذْ إِذَنْ عَنْ رِضًا لاَ عَنْ سَخَطٍ، وَمَا أَدْرَىٰ الإِنْسَانَ؟!، فَقَدْ تَرَىٰ بِبَصَرِكَ القَاصِرِ أَنَّ الأَمْرَ شَرٌّ لَكَ لَكِنَّهُ قَدْ يَكُونُ الخَيْرَ بِعَيْنِه، وَقَدْ تَرَىٰ فِي الأَمْرِ خَيْرًا لَكَ، لَكِنَّهُ قَدْ يَكُونُ الشَّرَ بِعَيْنِه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ (١)، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾(٢).

وَفِي الصَّحِيحِ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ،**

(١) البقرة: ٢١٦.
(٢) النساء: ١٩.

وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١) .

فَيَا لَهُمَا مِنْ مَنْزِلَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ : مَنْزِلَةِ الشَّاكِرِينَ وَمَنْزِلَةِ الصَّابِرِينَ، مَعَ السَّرَّاءِ شُكْرٌ وَمَعَ الضَّرَّاءِ صَبْرٌ ، وَالشَّاكِرُ وَالصَّابِرُ فِي الجَنَّةِ .

وَفِي الحَدِيثِ قَالَ ﷺ : «**عَجِبْتُ لِلْمُسْلِمِ إِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ اللَّهَ وَشَكَرَ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ احْتَسَبَ وَصَبَرَ، الْمُسْلِمُ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِيهِ**»(٢) .

يَقُولُ ابنُ الجَوْزِيِّ : «الدُّنْيَا وُضِعَتْ لِلْبَلاءِ ، فَيَنْبَغِي لِلعَاقِلِ أَنْ يُوطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى الصَّبْرِ» .

● **عِنْدَمَا يُذَمُّ الرِّضَا:**

يُذَمُّ الرِّضَا عِنْدَمَا يُوضَعُ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ ، فَحِينَمَا يَرْضَى العَبْدُ بِطَاعَتِهِ ، فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ ظَنِّهِ بِنَفْسِهِ ، وَجَهْلِهِ بِحُقُوقِ العُبُودِيَّةِ .

وَهَـذَا الرِّضَا عَنِ النَّفْسِ وَعَنِ العِبَادَةِ يَتَوَلَّدُ مِنْ جَهْلِ العَبْدِ بِنَفْسِهِ وَبِآفَاتِهَا وَعُيُوبِهَا ، وَمِنَ الجَهْلِ بِاللهِ تَعَالَى وَحَقِّهِ عَلَى العَبْدِ .

وَحَالُ الرَّاضِي عَنْ نَفْسِهِ وَعِبَادَتِهِ بِخِلافِ حَالِ أَهْلِ العَزَائِمِ ؛ لأَنَّ أَهْلَ الإِيمَانِ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ اسْتِغْفَارًا عَقِيبَ الطَّاعَاتِ لِمَعْرِفَتِهِمْ بِتَقْصِيرِهِمْ فِيهَا وَعَدَمِ قِيَامِهِمْ لَهَا بِمَا يَسْتَحِقُّ .

أَهْلُ الإِيمَانِ عَرَفُوا أَنَّ الاسْتِغْفَارَ وَالتَّوْبَةَ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ مَوْضِعًا بَعْدَ الطَّاعَةِ حَتَّى تُقْبَلَ ، فَقَدْ قَرَؤُوا قَوْلَ اللهِ تَعَالَى : ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٩)، وأحمد (٤/ ٣٣٢) عن صهيب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧٧ ، ١٨٢)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (٢١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٥٠) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٨٦) .

النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) .

وَقَدْ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَلَّمَ مِنَ الصَّلَاةِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»(٢) .

فَهَـٰذَا شَأْنُ مَنْ عَرَفَ مَا يَنْبَغِي للهِ وَيَلِيقُ بِجَلَالِهِ مِنْ حُقُوقِ الْعُبُودِيَّةِ .

وَقَدْ قَالَ أَحَدُ الصَّالِحِينَ: مَتَىٰ رَضِيتَ عَنْ نَفْسِكَ وَعَمَلِكَ للهِ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ غَيْرُ رَاضٍ بِهِ، وَمَنْ عَرَفَ أَنَّ نَفْسَهُ مَأْوَىٰ كُلِّ عَيْبٍ وَشَرٍّ، وَعَمَلَهُ عُرْضَةٌ لِكُلِّ آفَةٍ وَنَقْصٍ كَيْفَ يَرْضَىٰ للهِ نَفْسَهُ وَعَمَلَهُ .

• **دَرَجَاتُ الرِّضَا:**

الرِّضَا عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الْأُولَى: رِضَا الْعَامَّةِ: وَهُوَ الرِّضَا بِاللهِ رَبًّا وَتَسَخُّطُ عِبَادَةِ مَا دُونَهُ، فَالرِّضَا بِاللهِ رَبًّا بِمَعْنَىٰ أَنْ لَا يَتَّخِذَ رَبًّا غَيْرَ اللهِ تَعَالَىٰ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ (٣) . وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾(٤) . وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا...** ﴾(٥) .

وَهَـٰذَا النَّوْعُ مِنَ الرِّضَا هُوَ أَصْلُ التَّوْحِيدِ، فَأَصْلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَرْضَىٰ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًا وَرَسُولًا، فَهَـٰذَا الرِّضَا يُطَهِّرُ الْقَلْبَ مِنَ الشِّرْكِ .

• **وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الرِّضَى يَتَحَقَّقُ بِشَيْئَيْنِ:**

أَوَّلُهُمَا: أَنْ يَكُونَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَىٰ الْعَبْدِ، قَالَ النَّبِي ﷺ:

---

(١) البقرة: ١٩٨، ١٩٩ .

(٢) أخرجه مسلم (٥٩٢)، وأبو داود (١٥١٢)، والترمذي (٢٩٨)، والنسائي (١٣٣٨)، وابن ماجه (٩٢٤) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) الأنعام: ١٦٤ .

(٤) الأنعام: ١٤ .

(٥) الأنعام: ١١٤ .

«**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا...**»(١) .

ثَانِيهِمَا: أَنْ لاَ يَنْصَرِفَ بِعِبَادَتِهِ إِلاَّ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ ، وَهَـٰذَا مَبْنِيٌّ عَلَىٰ مَا سَبَقَ . فَمَتَىٰ أَحَبَّ اللهَ تَعَالَىٰ وَعَظَّمَهُ وَحْدَهُ تَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ وَأَفْرَدَهُ بِالعِبَادَةِ .

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: الرِّضَا عَنِ اللهِ تَعَالَى:

وَهَـٰذِهِ دَرَجَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ دَرَجَاتِ الرِّضَا ، وَهُوَ الرِّضَا عَنْ كُلِّ مَا قَضَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ وَقَدَّرَ .

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ **هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾(٢) .

وقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ **وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾(٣) .

وَفِي الحَدِيثِ القُدُسِيِّ : «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي، وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلاَئِي فَلْيَلْتَمِسْ رَبًّا سِوَايَ**»(٤) .

فَالرِّضَا بِالقَضَاءِ وَاجِبٌ وَهُوَ أَسَاسُ الإِسْلامِ وَقَاعِدَةُ الإِيمَانِ ، فَيَجِبُ عَلَىٰ العَبْدِ أَنْ يَكُونَ رَاضِيًا بِهِ بِلاَ حَرَجٍ مِنْهُ ، وَلاَ مُنَازَعَةٍ وَلاَ مُعَارَضَةٍ .

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾(٥) .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٠٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وهو عند البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...**» الحديث.

(٢) المائدة: ١١٩ . (٣) المجادلة: ٢٢ .

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٢٠) (٨٠٧) عن أبي هند الدَّاريّ رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٧): «وفيه سعيد بن زياد بن هند، وهو متروك»، وقال الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٤٢٠٠): «إسناده ضعيف».

(٥) النساء: ٦٥ .

فَهُنَا قَدْ أَقْسَمَ اللهُ تَعَالىٰ بِأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُسَلِّمُوا بِحُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي هُوَ حُكْمُ اللهِ تَعَالَىٰ ، بَلْ لاَ يَجِدُونَ بَعْدَ هَـٰذَا التَسْلِيمِ فِي قُلُوبِهِمْ حَرَجًا مِنْ هَـٰذَا القَضَاءِ .

الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: الرِّضَا بِرِضَا اللَّهِ تَعَالَى:

فَلاَ يَرَىٰ العَبْدُ لِنَفْسِه سَخَطًا وَلاَ رِضًا ، فَغَابَ بِرِضَا رَبِّهِ عَنْ رِضَاهُ هُوَ عَنْ رَبِّهِ مِنْ أَقْضِيَتِه وَأَقْدَارِهِ ، وَهَـٰذِهِ الدَّرَجَةُ قَدْ تَكُونُ مِنْ أَعْلَىٰ دَرَجَاتِ الرِّضَا الَّتِي قَدْ يَصِلُ إِلَيْهَا العَبْدُ .

● **صِفَاتُ الرَّاضِينَ:**

لِلرَّاضِي بِاللهِ صِفَاتٌ وَأَحْوَالٌ، فَهُوَ:

١ ـ جَازِمٌ بِأَنَّهُ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، وَلاَ رَادَّ لِحُكْمِهِ ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، فَكُلُّ مَا يَقَعُ بِهِ مِنْ بَلِيَّةٍ وَنِعْمَةٍ وَقَضَاءٍ أَمْرٌ سَابِقٌ وَقَدَرٌ حَاتِمٌ .

٢ ـ أَنَّهُ مُحِبٌّ وَالمُحِبُّ صَادِقٌ يَرْضَىٰ بِمَا يُعَامِلُهُ بِهِ حَبِيبُهُ .

٣ ـ أَنَّهُ مُسْلِمٌ وَالمُسْلِمُ مَنْ سَلَّمَ نَفْسَهُ للهِ تَعَالَىٰ يَقُودُهُ حَيْثُ شَاءَ وَلاَ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ مِنْ جَرَيَانِ أَحْكَامِهِ .

٤ ـ أَنَّهُ عَارِفٌ بِرَبِّهِ حَسَنُ الظَّنِّ بِهِ ، وَحُسْنُ ظَنِّهِ هَـٰذَا يُوجِبُ عَلَيْهِ اسْتِوَاءَ الحَالاتِ وَرِضَاهُ بِمَا يَخْتَارُهُ الله تَعَالَىٰ لَهُ .

٥ ـ يَعْلَمُ أَنَّ رِضَاهُ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ يَنْقَلِبُ إِلَىٰ نِعْمَةٍ وَمِنْحَةٍ وَأَنَّ سَخَطَهُ إِنْ سَخِطَ يُضَاعِفُ عَلَيْهِ عِظَمَ المُصِيبَةِ وَيَزْدَادُ شِدَّةً .

٦ ـ يَعْلَمُ أَنَّ رِضَاهُ عَنْ رَبِّهِ يُثْمِرُ رِضَا اللهِ تَعَالَىٰ عَنْهُ .

٧ ـ أَنَّهُ لاَ يَجِدُ رَاحَةً وَلاَ سَكِينَةً وَلاَ سُرُوراً مِثْلَ الَّتِي يَجِدُهَا فِي رِضَا اللهِ

عَزَّ وَجَلَّ، فَهَـٰذَا الرِّضَا يُوجِبُ لَهُ الطُّمَأْنِينَةَ وَالسَّكِينَةَ، وَيَفْتَحُ لَهُ بَابَ السَّلامَةِ.

٨ ـ يَعْلَمُ أَنَّ الرِّضَا يُوجِبُ عَلَيْهِ أَلاَّ يَحْزَنَ عَلَىٰ مَا فَاتَ، فَرُبَّمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ، وَلاَ يَفْرَحُ بِمَا هُوَ آتٍ، فَرُبَّمَا قَصَدَ غَيْرَهُ، وَهَـٰذَا يُورِثُ فِي الْقَلْبِ الطُّمَأْنِينَةَ.

٩ ـ يَعْلَمُ أَنَّ الرِّضَا إِنْ دَخَلَ الْقَلْبَ مَلأَهُ غِنَىً وَأَمْنًا وَقَنَاعَةً وَتَفَرَّغَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ.

١٠ ـ يَعْلَمُ أَنَّ هَـٰذَا الرِّضَا يُورِثُ الشُّكْرَ، وَاللهُ يُكَافِئُ الشَّاكِرِينَ بِالزِّيَادَةِ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾(١).

١١ ـ يَعْلَمُ أَنَّ هَـٰذَا الرِّضَا يَجْعَلُ هَوَىٰ النَّفْسِ مُوَافِقًا لِهَوَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، فَلاَ يَرَىٰ لِنَفْسِهِ حَظًّا وَلاَ مُرَادًا بِخِلاَفِ مُرَادِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَيَقْبَلُ قَضَاءَهُ وَحُكْمَهُ عَنْ رِضَا لاَ عَنْ سَخَطٍ.

١٢ ـ يَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ مَعْصِيَةٍ عُصِيَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَا هِيَ عَدَمُ الرِّضَا، فَإِبْلِيسُ لَمْ يَرْضَ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَلاَ بِحُكْمِهِ مِنْ تَفْضِيلِ آدَمَ وَتَكْرِيمِهِ.

١٣ ـ عَلِمَ أَنَّ رِضَا اللهَ عَلَيْهِ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنَ الجَنَّةِ كُلِّهَا، فَالجَنَّةُ خَلْقُهُ، أَمَّا الرِّضَا فَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾(٢).

وَهَـٰذَا الشَّيْخُ أَبُو مِدْيَنَ يَقُولُ: مَنْ تَحَقَّقَ بِالعُبُودِيَّةِ نَظَرَ إِلىٰ أَفْعَالِهِ بِعَيْنِ الرِّيَاءِ وَأَحْوَالِهِ بِعَيْنِ الدَّعْوَىٰ، وَأَقْوَالِهِ بِعَيْنِ الافْتِرَاءِ، وَكُلَّمَا عَظُمَ المَطْلُوبُ فِي قَلْبِكَ

(١) إبراهيم: ٧.
(٢) التوبة: ٧٢.

صَغُرَتْ نَفْسُكَ عِنْدَكَ، وَتَضَاءَلَتِ القِيمَةُ الَّتِي تَبْذُلُهَا فِي تَحْصِيلِهِ، وَكُلَّمَا شَهِدْتَ حَقِيقَةَ الرُّبُوبِيَّةِ وَحَقِيقَةَ العُبُودِيَّةِ، وَعَرَفْتَ اللهَ وَعَرَفْتَ النَّفْسَ وَتَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ مَا مَعَكَ مِنْ البِضَاعَةِ لاَ يَصْلُحُ لِلْمَلِكِ الحَقِّ، وَلَوْ جِئْتَ بِعَمَلِ الثَّقَلَيْنِ خَشِيتَ عَاقِبَتَهُ وَإِنَّمَا يَقْبَلُهُ اللهُ بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَتَفَضُّلِهِ وَيُثِيبُكَ عَلَيْهِ أَيْضًا بِكَرَمِهِ وَجُودِهِ وَتَفَضُّلِهِ.

• حَتَّى تُحَقِّقَ مَنْزِلَةَ الرِّضَا:

وَمِمَّا يَدْعُو إِلَىٰ الرِّضَا وَيُعِينُ عَلَيْهِ: أَنْ يَكُونَ الْمُسْلِمُ عَلَىٰ يَقِينٍ مِنْ أَنَّ مَا يَجْرِي فِي العَالَمِ مِنْ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ وَنَفْعٍ وَضُرٍّ وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، كُلُّ ذَلِكَ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ، فَلاَ طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ وَلاَ حَيَوانٌ يَدِبُّ بِرِجْلَيْهِ وَلاَ تَسْقُطُ وَرَقَةٌ إِلاَّ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

فَإِنِ اسْتَقَرَّ هَـٰذَا الْمَعْنَىٰ فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِ اسْتَرَاحَ قَلْبُهُ، وَرَضِيَ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ.

• دَرْسٌ عَمَلِيٌّ فِي الرِّضَا بِالْقَضَاءِ:

رَوَىٰ سَعِيدُ بنُ الْمُسَيِّبِ قَالَ: قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ: يَا بُنَيَّ لاَ يَنْزِلَنَّ بِكَ أَمْرٌ رَضِيتَهُ أَوْ كَرِهْتَهُ، إِلاَّ جَعَلْتَ فِي الضَّمِيرِ أَنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكَ، قَالَ ابْنُهُ: أَمَّا هَذِهِ فَلاَ أَقْدِرُ أَنْ أُعْطِيكَهَا قَبْلَ أَنْ أَعْلَمَ حَقِيقَتَهَا، فَقَالَ لُقْمَانُ: يَا بُنَيَّ فَإِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ نَبِيًا هَلُمَّ حَتَّىٰ نَأْتِيَهُ، فَعِنْدَهُ بَيَانُ مَا قُلْتُ لَكَ، قَالَ: اذْهَبْ بِنَا إِلَيْهِ، فَخَرَجَ عَلَىٰ حِمَارٍ وَابْنُهُ عَلَىٰ حِمَارٍ، وَتَزَوَّدُوا مَا يُصْلِحُهُمَا، ثُمَّ سَارَا أَيَّامًا وَلَيَالِيَ حَتَّىٰ تَلَقَّتْهُمَا أَرْضٌ مُقْفِرَةٌ مُجْدِبَةٌ، فَسَارَا فِيهَا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَسِيرَا حَتَّىٰ تَعَالَىٰ النَّهَارُ وَاشْتَدَّ الحَرُّ وَنَفِدَ الْمَاءُ وَالزَّادُ، وَأُجْهِدَ حِمَارَاهُمَا، فَنَزَلاَ يَمْشِيَانِ فَبَيْنَمَا هُمَا كَذَلِكَ؛ إِذْ نَظَرَ لُقْمَانُ إِلَىٰ أَمَامِهِ، فَإِذَا هُوَ بِسَوَادٍ وَدُخَانٍ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: السَّوَادُ شَجَرٌ وَالدُّخَانُ عُمْرَانٌ وَنَاسٌ، فَبَيْنَمَا هُمَا كَذَلِكَ، إِذْ وَطِئَ ابْنُ لُقْمَانَ عَلَىٰ عَظْمٍ عَلَىٰ الطَّرِيقِ فَدَخَلَ فِي بَاطِنِ قَدَمِهِ حَتَّىٰ ظَهَرَ مِنْ أَعْلاَهَا، فَخَرَّ مَغْشِيًا عَلَيْهِ، فَحَانَتْ مِنْ لُقْمَانَ الْتِفَاتَةٌ فَإِذَا

هُوَ بِابْنِهِ صَرِيعًا، فَوَثَبَ إِلَيْهِ فَضَمَّهُ إِلَىٰ صَدْرِهِ وَاسْتَخْرَجَ الْعَظْمَ بِأَسْنَانِهِ، وَشَقَّ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَيْهِ فَعَصَبَ رِجْلَهُ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَىٰ وَجْهِ ابْنِهِ فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَلَمَّا اسْتَفَاقَ ابْنُهُ وَجَدَهُ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَتَاهُ: أَنْتَ تَبْكِي وَأَنْتَ تَقُولُ: هَـٰذَا خَيْرٌ لِي، فَكَيْفَ ذَلِكَ وَقَدْ نَفِدَ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَأَنَا وَأَنْتَ فِي هَـٰذَا الْمَكَانِ، وَقَدْ حَصَلَ لِي مَا حَصَلَ، فَقَالَ لُقْمَانُ: أَمَّا بُكَائِي فَلأَنِّي وَالِدٌ وَمِنِّي رِقَّةُ الْوَالِدِ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: كَيْفَ يَكُونَ هَذَا خَيْرًا لِي؟ فَلَعَلَّ مَا صُرِفَ عَنْكَ أَعْظَمُ مِمَّا ابْتُلِيتَ بِهِ، وَلَعَلَّ مَا ابْتُلِيتَ بِهِ أَيْسَرُ مِمَّا صُرِفَ عَنْكَ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ؛ إِذْ نَظَرَ لُقْمَانُ فَمَا وَجَدَ السَّوَادَ وَلاَ الدُّخَانَ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ لَعَلَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَحْدَثَ رَبِّي شَيْئًا، فَنَظَرَ ثَانِيَةً، فَإِذَا بِشَخْصٍ قَدْ أَقْبَلَ عَلَىٰ فَرَسٍ أَبْلَقَ عَلَيْهِ ثِيَابٌ بِيضٌ، يَمْسَحُ الْهَوَاءَ مَسْحًا، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ قَالَ: أَنْتَ لُقْمَانُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ ابْنُكَ؟ فَقَالَ: أَنَا جِبْرِيلُ وَقَدْ أَمَرَنِي اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ أَخْسِفَ هَـٰذِهِ الْمَدِينَةَ وَمَا فِيهَا وَمَا حَوْلَهَا، فَأُخْبِرْتُ أَنَّكُمَا تُرِيدَانِ هَـٰذِهِ الْمَدِينَةَ فَدَعَوْتُ اللهَ - تَعَالَىٰ - أَنْ يَحْبِسَكُمَا عَنِّي بِمَا شَاءَ، فَحَبَسَكُمَا عَنِّي بِمَا ابْتُلِيَ بِهِ ابْنُكَ، وَلَوْلاَ ذَلِكَ لَخُسِفَ بِكُمَا مَعَ مَنْ خُسِفَ بِهِ.

فَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ غَايَةُ الإِيمَانِ، فَمَا يُقَدِّرُهُ اللهُ لِلْعَبْدِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فِي مَصْلَحَةِ الْعَبْدِ، فَاللهُ سُبْحَانَهُ أَرْحَمُ بِالْعَبْدِ مِنَ الأُمِّ بِوَلَدِهَا.

• آيَاتٌ بَشَرِيَّةٌ فِي الرِّضَا بِالْقَضَاءِ:

وَمِمَّا يُرْوَىٰ مِنْ قِصَصِ الرَّاضِينَ بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ، أَنَّ هِشَامَ بنَ عُرْوَةَ قَالَ: خَرَجَ أَبِي عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ إِلَىٰ الْوَلِيدِ بنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَوَقَعَتْ فِي رِجْلِهِ الأَكَلَةُ، فَصَعِدَتْ فِي سَاقِهِ، فَبَعَثَ الْوَلِيدُ إِلَيْهِ الأَطِبَّاءَ، فَقَالُوا: لَيْسَ لَهَا دَوَاءٌ إِلاَّ الْقَطْعَ، فَقَالَ الْوَلِيدُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَرَىٰ لَكَ قَطْعَهَا، قَالَ هِشَامُ: فَقُطِعَتْ وَإِنَّهُ لَصَائِمٌ، قَالَ: وَدَخَلَ ابْنٌ لَهُ وَهُوَ أَكْبَرُ أَبْنَائِهِ إِصْطَبْلَ الدَّوَابِّ فَرَفَسَتْهُ دَابَّةٌ فَقَتَلَتْهُ، فَمَا سَمِعَ

مِنْهُ فِي ذَلِكَ شَيءٌ حَتَّىٰ قَدِمَ المَدِينَةَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي أَطْرَافٌ أَرْبَعَةٌ فَأَخَذْتَ وَاحِداً وَأَبْقَيْتَ ثَلاثَةً، فَلَكَ الحَمْدُ، وكَانَ لِي بَنُونَ أَرْبَعَةٌ، فَأَخَذْتَ وَاحِداً وَأَبْقَيْتَ لِي ثَلاثَةً، فَلَكَ الحَمْدُ، وَايْمُ اللهِ لَئِنْ أَخَذْتَ، فَلَقَدْ أَبْقَيْتَ، وَلَئِنْ أَبْلَيْتَ، فَلَطَالَمَا عَافَيْتَ.

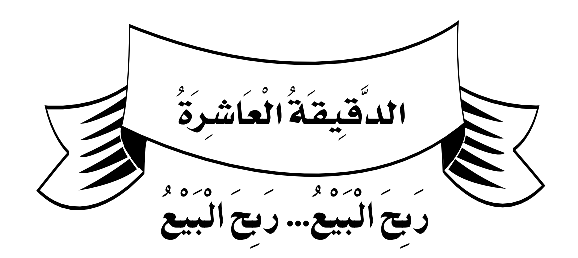
وَحَكَىٰ مَسْرُوقٌ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ بِالبَادِيَةِ لَهُ كَلْبٌ وَحِمَارٌ وَدِيكٌ، فَالدِّيكُ يُوقِظُ للصَّلاةِ، وَالحِمَارُ يَنْقِلُونَ عَلَيْهِ المَاءَ، وَيَحْمِلُ خِبَاءَهُمْ، وَالكَلْبُ يَحْرُسُهُمْ، فَجَاءَ الثَّعْلَبُ فَأَخَذَ الدِّيكَ، فَحَزِنُوا، فَقَالَ الرَّجُلُ: عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْراً، ثُمَّ جَاءَ ذِئْبٌ فَخَرَقَ بَطْنَ الحِمَارِ، فَحَزِنُوا فَقَالَ الرَّجُلُ: عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْراً ثُمَّ أُصِيبَ الكَلْبُ فَحَزِنُوا، فَقَالَ الرَّجُلُ: عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ خَيْراً، ثُمَّ أَصْبَحُوا ذَاتَ يَوْمٍ، فَنَظَرُوا وَقَدْ سُبِيَ مَنْ حَوْلَهُم مِنَ الأَقْوَامِ - يَعْنِي: غَارَ عَلَيْهِم قَوْمٌ، فَصَارُوا عَبِيداً - وَبَقَوا هُمْ، وَإِنَّمَا سُبِيَ غَيْرُهُم لِمَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنَ الصَّوْتِ وَآثَارِ النِعْمَةِ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ هَـٰؤُلاءِ شَيءٌ يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُودِ قَوْمٍ، فَقَدْ ذَهَبَ كَلْبُهُم وَحِمَارُهُم وَدِيكُهُم... ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾[1]».

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُلْهِمَنَا الشُّكْرَ عِنْدَ السَّرَاءِ، والصَّبْرَ عِنْدَ الضَّرَاءِ. اللهُمَّ رَضِّنَا بِقَضَائِكَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ رِضَاكَ وَالجَنَّةَ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ سَخَطِكَ وَالنَّارِ.



(١) النساء: ١٩.



رَبِحَ الْبَيْعُ... رَبِحَ الْبَيْعُ

مَا أَحْلَىٰ صَفَقَاتِ الآخِرَةِ! مَا أَرْبَحَهَا! لأَنَّهَا صَفْقَةٌ مَعَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَتَعَالَ ـ أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ ـ نَقْرَأْ بُنُودَ هَـٰذِهِ الصَّفْقَةِ.

يَقُولُ اللهُ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ لِلْمُؤْمِنِينَ، فِي خِتَامِ سُورَةِ الصَّفِّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾[2].

إِنَّ الدُّخُولَ فِي الإِسْلَامِ صَفْقَةٌ بَيْنَ مُتَبَايِعَيْنِ: اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ فِيهَا هُوَ الْمُشْتَرِي، وَالْمُؤْمِنُ فِيهَا هُوَ الْبَائِعُ، فَهِيَ بَيْعَةٌ مَعَ اللهِ؛ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَلِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ، وَالثَّمَنُ هُوَ: جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ.

الَّذِينَ بَاعُوا هَـٰذِهِ الْبَيْعَةَ هُمْ صَفْوَةٌ مُخْتَارَةٌ ذَاتُ صِفَاتٍ مُمَيَّزَةٍ، هُمْ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾[3].

إِنَّهَا بَيْعَةٌ فِي عُنُقِ كُلِّ مُؤْمِنٍ لَا تَسْقُطُ عَنْهُ إِلَّا بِسُقُوطِ إِيْمَانِهِ.

وَحَقِيقَةُ هَـٰذِهِ الْبَيْعَةِ، أَنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ قَدِ اسْتَخْلَصَ لِنَفْسِهِ أَنْفُسَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْوَالَهُمْ... إِنَّهَا صَفْقَةٌ مُشْتَرَاةٌ، لِشَارِيهَا أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ.

---

(١) الصف: ١٠ ـ ١٣. (٢) التوبة: ١١١. (٣) التوبة: ١١٢.

هَـٰذه الْبَيْعَةُ الْعَظيمَةُ الرَّابِحَةُ، أَدْرَكَ قِيمَتَهَا الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، فَدَخَلُوا فِيهَا بِكُلِّ مَا مَلَكُوا:

• فَهَـٰذَا عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ - ذُو النُّورَيْنِ - رضي الله عنه يَشْتَرِي الْجَنَّةَ مَرَّتَيْنِ:

الْمَرَّةُ الأولَى: حِينَ قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ، فَيَجْعَل دَلْوَهُ مَعَ دِلاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ**»(١). فَاشْتَرَاهُ عُثْمَانُ.

وَالْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ: عِنْدَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ يُجَهِّزُ جَيْشَ الْعُسْرَةِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ**»(٢). فَجَهَّزَ عُثْمَانُ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**»(٣).

• وَهَـٰذَا صُهَيْبٌ الرُّومِيُّ فِي حَادِث الْهِجْرَة، لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى الْمَدِينَة حَيْثُ رَسُولُ الله ﷺ، اعْتَرَضَهُ الْمُشْرِكُونَ وَأَسْمَعُوهُ كَلامًا جَارِحًا، وَأَبَوْا أَنْ يَخْرُجَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَمْوَاله، فَقَالُوا لَهُ: لَقَدْ أَتَيْتَنَا صُعْلُوكًا لا مَالَ لَكْ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنْ تَرَكْتُ لَكُمُ الأَمْوَالَ تَرَكْتُمُونِي وَشَأْنِي؟! قَالُوا: نَعَمْ! فَقَالَ لَهُمْ - وَبِكُلِّ سُهُولَةٍ: هِيَ لَكُمْ، وَدَلَّهُمْ عَلَى مَكَانِهَا، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَرَآهُ مِنْ بَعِيدٍ قَالَ لَهُ: «**أَبَا يَحْيَى، رَبِحَ الْبَيْعُ**»(٤).

نَعَمْ... لَقَدْ تَجَسَّدَتِ الآخِرَةُ عِنْدَ هَـٰذَا الصَّحَابِيِّ، بِأَنْ يَلْحَقَ بِرَسُولِ الله ﷺ، ولَمَّا كَانَ لِهَـٰذَا ثَمَنٌ، اشْتَرَاهُ بِكُلِّ مَا مَلَكَتْ يَدَاهُ، بَلْ لَقَدْ سَعِدَ سَعَادَةً بَالِغَةً لَمَّا وَافَقُوا عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا أَمْوَالَهُ فِي مُقَابِلِ أَنْ يُهَاجِرَ، وَقَالَ لَهُمْ - دُونَ تَرَدُّدٍ أَوْ تَفْكِيرٍ: هِيَ لَكُمْ!

---

(١) أخرجه البخاري فوق حديث (٢٣٥١) معلقًا مجزومًا به، ووصله الترمذي (٣٧٠٣)، والنسائي (٣٦٠٨) عن ثمامة بن حزن القشيري، قال الترمذي: «هـٰذا حديث حسن»، ووافقه الألباني.

(٢) أخرجه النسائي (٣٦٠٦، ٣٦٠٧)، وأحمد (١/ ٧٠) عن الأحنف بن قيس رضي الله عنه، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند (٥١١)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٠١) عن عبد الرحمـٰن بن سمرة رضي الله عنه، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٤٠٠)، والطبراني في الكبير (٨/ ٣١) (٧٢٩٦) عن صهيب للـلـ، قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٦٠): «رواه الطبراني وفيه جماعة لم أعرفهم».

• هَـٰذِه هِيَ التِّجَارَةُ الرَّابِحَةُ، عقَدَهَا كَذَلِكَ: عَبْدُ الله بنُ رَوَاحَةَ أَيْضًا.

فَفِي لَيْلَةِ الْعَقَبَةِ، جاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وقَالَ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ**»، فَقَالَ عَبْدُ الله: فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْجَنَّةَ**»، فَقَالُوا جَمِيعًا: رَبِحَ الْبَيْعُ، وَلَا نُقِيلُ وَلَا نَسْتَقِيلُ[1].

• وَإِلَيْكُمْ هَـٰذِه الْقِصَّةَ الَّتِي حَكَاهَا عَبْدُ الله بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ قَوْلُ الله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[2]، قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ: يَا رَسُولَ الله، أَوَ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَطْلُبُ مِنَّا الْقَرْضَ؟! فَقَالَ ﷺ: «**نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ، يُرِيدُ أَنْ يُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ بِهِ**».

فَقَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ: أَرِنِي يَدَكَ، فَنَاوَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ، فَقَالَ: إِنَّ لِي حَدِيقَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا بِالسَّافِلَةِ وَالأُخْرَىٰ بِالْعَالِيَةِ، وَالله لَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا، وَقَدْ جَعَلْتُهُمَا قَرْضًا لله تَعَالَىٰ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اجْعَلْ إِحْدَاهُمَا لِلَّهِ، وَالأُخْرَى دَعْهَا مَعِيشَةً لَكَ وَلِعِيَالِكَ**».

فَقَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ: يَا رَسُولَ الله، أُشْهِدُكَ أَنِّي قَدْ جَعَلْتُ خَيْرَهُمَا لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَهُوَ حَائِطٌ فِيهِ سِتُّمَائَةُ نَخْلَةٍ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَنْ، يَجْزِيكَ اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ**».

فَانْطَلَقَ أَبُو الدَّحْدَاحِ حَتَّىٰ جَاءَ إِلَىٰ زَوْجَتِهِ أُمِّ الدَّحْدَاحِ، وَهِيَ مَعَ صِبْيَانِهَا فِي الْحَدِيقَةِ تَدُورُ حَوْلَ النَّخْلِ، فَقَالَ لَهَا:

هَدَاكِ رَبِّي سُبُلَ الرَّشَادِ ... إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالسَّدَادِ
بِينِي مِنَ الْحَائِطِ بِالْوِدَادِ ... فَقَدْ مَضَى قَرْضًا إِلَى التَّنَادِ
أَقْرَضْتُهُ اللَّهَ عَلَى اعْتِمَادِي ... بِالطَّوْعِ لَا مَنَّ وَلَا ارْتِدَادِ

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١١/ ٣٥، ٣٦) عن محمد بن المنكدر مرسلاً، وانظر: فتح الباري (٦/ ٤).

(٢) البقرة: ٢٤٥.

فَقَالَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ: رَبِحَ بَيْعُكَ، بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيمَا اشْتَرَيْتَ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَىٰ أوْلَادِهَا تَنْفُضُ مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ تَمْرٍ، وَهِيَ تَقُولُ: بِعْنَاهَا إِلَىٰ اللهِ! فَرَبِحَ الْبَيْعُ يَا آلَ الدَّحْدَاحِ، رِبْحٌ بِلَا خُسْرَانٍ(١).

هَـٰذِهِ هِيَ التِّجَارَةُ الرَّابِحَةُ، هَـٰذَا هُوَ الرِّبْحُ الضَّخْمُ الْهَائِلُ، أَنْ يُعْطِيَ الْمُؤْمِنُ الدُّنْيَا، وَيَأْخُذَ الآخِرَةَ، الدِّينَارُ يَرْبَحُ عَشْرَةَ أَمْثَالِهِ، بِدُونِ احْتِمَالَاتٍ لِلْخَسَارَةِ، بَلْ قَدْ يَرْبَحُ سَبْعَمَائَةِ ضِعْفٍ!!!

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾(٢).

وَهُنَا الأَصْلُ فِي الْعَبْدِ، أَنْ يَعْمَلَ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ أَجْلِ الآخِرَةِ حَتَّىٰ لَكَأَنَّهُ يَنْسَىٰ مَعَ هَـٰذَا الْعَمَلِ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيَا، فَاحْتَاجَ أَنْ يُذَكَّرَ بِأَنَّ لَهُ فِي الدُّنْيَا حَظاً لَا يَنْسَاهُ.

وَمَا بَالُنَا بِهَـٰذَا الْحَظِّ، إِنَّهُ ـ فِي الْحَقِيقَةِ ـ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا بنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ**»(٣).

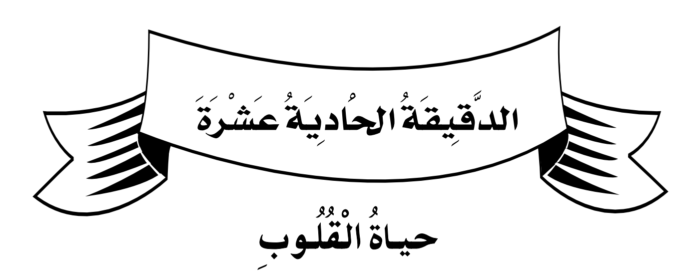
فَهَيَّا بِنَا نَعْقِدُ فِي كُلِّ يَومٍ صَفْقَةً مَعَ اللهِ، صَفْقَةً رَابِحَةً بِإِذْنِ اللهِ. أَقْبِلُوا، فَالْيَوْمُ الَّذِي يَمُرُّ لَا يَعُودُ أَبَداً، وَإِنْ كَانَ مُنَاخُ هَـٰذِهِ الصَّفَقَاتِ صَالِحًا فِي أَيِّ وَقْتٍ، فَهُوَ فِي رَمَضَانَ أَصْلَحُ.

اللَّهُمَّ مَا قَسَمْتَ فِي هَـٰذِهِ اللَّيْلَةِ مِنْ عِتْقٍ وَغُفْرَانٍ، وَرَحْمَةٍ وَرِضْوَانٍ، وَعَفْوٍ وَامْتِنَانٍ، وَكَرَمٍ وَإِحْسَانٍ، وَنَجَاةٍ مِنَ النِّيرَانِ، وَخُلُودٍ فِي نَعِيمِ الْجِنَانِ، فَاجْعَلْ لَنَا فِيهِ أَوْفَرَ حَظٍّ، وَأَجْزَلَ الأَقْسَامِ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.



---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٣/ ٢٣٧ ـ ٢٣٩).
(٢) القصص: ٧٧.
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٢٣٤٢، ٣٣٥٤)، والنسائي (٣٦١٣)، وأحمد (٤/ ٢٤) عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه.



حياةُ الْقُلُوبِ

حياةُ القُلوبِ ومَا أَدراكُمْ مَا حَياةُ القُلوبِ؟!

إنَّها الحياةُ في ظِلِّ الإيمانِ، حياةُ الطُّمَأنينَةِ والسَّعَادَةِ، حياةُ السَّكينَةِ والرَّاحةِ، حياةٌ لَطَالَمَا بَحَثَ عَنْهَا الإِنْسَانُ، ولَكِنْ بَحَثَ عَنْهَا في غَيْرِ مَكَانِهَا!!

مَا أَشْقَىٰ الإِنْسَانَ حِينَمَا أَقْبَلَ عَلَىٰ جِسْمِهِ يَحْمِيهِ ويَرْعَاهُ ويُغَذِّيه، وأَهْمَلَ قَلْبَهَ، فَحَرَمَهُ مِنْ لَذَّةٍ وحَلاوةٍ لا تُقَدَّرُ بالدُّنْيَا ومَا فيهَا!

حياةُ القُلوبِ شَبَّهَهَا شيخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ بِالحَيَاةِ فِي الجَنَّةِ حِينَ قَالَ: «ومَاذَا يَصْنَعُ أَعْدَائِي بِي؟! أَنَا جَنَّتِي فِي صَدْرِي، أَنَّىٰ رُحْتُ فَهِيَ مَعِي!».

حياةُ القَلْبِ هِي سَلامَتُه، وسَلامَةُ القَلْبِ تُسَاوِي رِضَا المَوْلَىٰ - سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ - ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[(١)].

وَالقَلْبُ السَّلِيمُ: هُوَ القَلْبُ المُنِيبُ الذِي يَخْشَىٰ الله تَعالىٰ فِي السِّرِّ والعَلانِيَةِ، يَقُولُ الحق تَبارَكَ وتَعالَىٰ: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[(٢)].

هُنَاكَ فَرْقٌ كَبيرٌ بَيْنَ قُلوبٍ نَزَلَتْ عَلَيْهَا السَّكِينَةُ، فَازْدَادَتْ إِيمَانًا، وبَيْنَ قُلوبٍ طُبِعَ عَلَيْهَا، فَقَسَتْ كَالحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً، بل ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا

---

(١) الشعراء: ٨٨، ٨٩.

(٢) ق: ٣٢، ٣٣.

تَعْمَلُونَ﴾(١).

فَرْقٌ كَبيرٌ بَيْنَ قُلوبٍ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ وَعَمِلَتْ، فَأُثِيبَتِ الجَنَّةَ، وبَيْنَ قُلُوبٍ إِذَا ذُكِرَ اللهُ اشْمَأَزَتْ وتَحَجَّرَتْ، فَخُتِمَ عَلَيْهَا فَعَاشَتْ فِي شَقَاءٍ وَضَنْكٍ. . .

فَرْقٌ كَبيرٌ بَيْنَ قُلوبٍ مُطْمَئِنَّةٍ زَيَّنَهَا الإِيمَانُ، وبَيْنَ قُلُوبٍ مُنْكِرَةٍ مُسْتَكْبِرَةٍ جَوْفَاءَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، مِلْؤُهَا الحِقْدُ والأَنَانِيةُ. . .

فَرْقٌ كَبيرٌ بَيْنَ قُلوبٍ عَامِرَةٍ بِذِكْرِ الله، وبَيْنَ قُلُوبٍ خَرِبَةٍ لا تَعْرِفُ للسَّعَادةِ طَعْمًا وَلاَ لليَقِينِ سَبِيلاً. . .

فَالقَلْبُ هُوَ المَالِكُ للجَوارِحِ، وَإِنَّمَا الجَوَارِحُ لَهُ خَدَمٌ وَأَتْبَاعٌ، إِذَا اسْتَقَامَ القَلْبُ، اسْتَقَامَتِ الجَوارِحُ، وَإِنِ اعْوَجَّ اعْوَجَّتْ؟

القَلْبُ: هُوَ المُخَاطَبُ، وَهُوَ المُعَاتَبُ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾**(٢).

القَلْبُ: هُوَ الَّذِي يَفْرَحُ وَيَسْعَدُ إِنْ زَكَّاهُ صَاحِبُهُ، وَهُوَ الشَّقِيُّ التَعِيسُ النَّكِدُ إِنْ دَنَّسَهُ صَاحِبُهُ وَدَسَّهُ.

القَلْبُ: هُوَ الآمِرُ وَالنَّاهِي فِي الإِنْسَانِ.

إِنْ دَخَلَتْهُ الدُّنْيَا وَاسْتَقَرَّتْ فِيهِ، صَارَ عَاشِقًا وَمُحِبًّا لَهَا، وَضَيَّعَ بِذَلِكَ الآخِرَةَ، وَإِنْ دَخَلَتْهُ الآخِرَةُ وَاسْتَقَرَّتْ فِيهِ، صَارَ عَاشِقًا وَمُحِبًّا لِمَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَصَارَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُ وَسِيلَةً مِنَ الوَسَائِلِ لاَ أَكْثَرَ وَلاَ أَقَلَّ، وَانْظُرُوا إِلىٰ قَارُونَ لَمَّا دَخَلَتِ الدُّنْيَا قَلْبَهُ، ظَنَّ أَنَّ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ نِعْمَةٍ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، فَأَسَاءَ إِلَىٰ قَلْبِهِ وَتَكَبَّرَ وَقَالَ: **﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾**(٣).

---

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) الحديد: ١٦.

(٣) القصص: ٧٨.

وَفِي المُقَابِلِ نَرَىٰ أَنَّ المَالَ عِنْدَمَا أَتَىٰ لِبَعْضِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم مَا كَانَ إِلاَّ وَسِيلَةً لِلآخِرَةِ، فَهَذَا عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ رضي الله عنه يَقُولُ أَحَدُ الصَّحَابَةِ عَنْهُ: كُنَّا نَدْخُلُ عَلَىٰ عُثْمَانَ، فَمَا نَسْتَطِيعُ التَّفْرِقَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَدَمِهِ مِنْ شِدَّةِ تَوَاضُعِهِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ، وَالفَارِقُ أَحِبَّتِي بَيْنَ قَارُونَ وَعُثْمَانَ أَنَّ المَالَ دَخَلَ قَلْبَ الأَوَّلِ، وَظَلَّ فِي يَدَيِ الثَّانِي!!

دَخَلَ المَالُ قَلْبَ قَارُونَ فَأَظْلَمَ، وَظَلَّ فِي يَدِ عُثْمَانَ فَاسْتَنَارَ وَلَمْ تَكُنْ عَلَيْهِ غِشَاوَةٌ، فَاسْتَطَاعَ رُؤْيَةَ الدُّنْيَا بِحَجْمِهَا الطَّبِيعِيِّ، فَلاَ زِيَادَةٌ وَلاَ نُقْصَانٌ، لاَ إِسْرَافٌ وَلاَ إِجْحَافٌ.

وَالضَّابِطُ فِي ذَلِكَ وَالقَائِدُ هُوَ: القَلْبُ.

قَالَ حُذَيْفَةُ بنُ قَتَادَةَ: «أَعْظَمُ المَصَائِبِ قَسَاوَةُ القَلْبِ».

وَيَقُولُ أَبُو حَامِدٍ الغَزَّالِي رَحِمَهُ اللهُ: «أَشْرَفُ مَا فِي الإِنْسَانِ قَلْبُهُ وَإِنَّمَا الجَوَارِحُ أَتْبَاعٌ وَخَدَمٌ يَسْتَخْدِمُهَا القَلْبُ اسْتِخْدَامَ المُلُوكِ لِلعَبِيدِ، وَمَنْ عَرَفَ قَلْبَهُ عَرَفَ رَبَّهُ».

• **جُنُودُ الْقَلْبِ:**

للهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - فِي الْقُلُوبِ وَالأَرْوَاحِ جُنُودٌ، وَجُنُودُ الْقَلْبِ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ:

*** جُنْدٌ يُرَى بِالْبَصَرِ، وَجُنْدٌ يُرَى بِالْبَصِيرَةِ.**

أولاً: الْجُنُودُ الَّتِي تُرَى بِالْبَصَرِ؛ فَهِيَ الْجَوَارِحُ: الْيَدُ، وَالرِّجْلُ، وَالْعَيْنُ، وَالأُذُنُ، وَاللِّسَانُ، وَسَائِرُ الأَعْضَاءِ الظَّاهِرَةِ، فَكُلُّهَا خَادِمَةٌ لِلْقَلْبِ وَمُسَخَّرَةٌ لَهُ، وَقَدْ خُلِقَتْ هَـٰذِهِ الأَعْضَاءُ مَجْبُولَةً عَلَىٰ طَاعَةِ الْقَلْبِ، فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ مُخَالَفَتَهُ وَلَا التَّمَرُّدَ عَلَيْهِ.

ثانياً: أَمَّا جُنُودُهُ الأُخْرَى - وَهِيَ أَهَمُّهَا - فَهِيَ الإِدْرَاكُ، وَالْبَصِيرَةُ الَّتِي إِلَيْهَا

الْفِعْلُ وَرَدُّ الْفِعْلِ، وَهَذِهِ الْجُنُودُ هِيَ الَّتِي تَسْتَخْدِمُ جُنُودَ الْحِسِّ فِي نَقْلِ صُورَةِ الْوَاقِعِ إِلَىٰ الْقَلْبِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَعَامَلُ الْقَلْبُ مَعَ هَـٰذَا الْوَاقِعِ، فَإِنْ أَسَاءَ التَّقْدِيرَ كَانَ الْغَضَبُ وَكَانَتِ الانْفِعَالَاتُ وَكَانَتِ الْغِشَاوَةُ الَّتِي تَحْجُبُ الرُّؤْيَةَ، وَلَا تَرَىٰ الْحَقَّ حَقًا وَلَا تَرىٰ الْبَاطِلَ بَاطِلاً، وَإِنْ أَحْسَنَ التَّقْدِيرَ فَسَيَكُونُ الْحِلْمُ وَالصَّفْحُ وَفِعْلُ الْجَمِيلِ وَبُعْدُ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ وَالأُمُورِ.

وَلَمَّا كَانَتِ الْقُلُوبُ مَحِلَّ التَّقْوَىٰ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**التَّقْوى هَاهُنَا**»[1]، كَانَتْ هِيَ الْمَحِلَّ الَّذِي سَتُعْرَضُ عَلَيْهِ الفِتَنُ لِيُعْرَفَ صَحِيحُهَا مِنْ سَقِيمِهَا، فَقَدْ جَاءَ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالحَصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ**»[2].

وَهَكَذَا - أَحِبَّتِي فِي اللهِ - قَلْبٌ كَالصَّفَاءِ وَقَلْبٌ كَالكُوزِ فَارِغٌ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا.

قَالَ يُوسُفُ بنُ أَسْبَاطٍ: خُلِقَتِ القُلُوبُ مَسَاكِنَ لِلذِّكْرِ، فَصَارَتْ مَسَاكِنَ لِلشَّهَوَاتِ، وَلاَ يَمْحُو الشَّهَوَاتِ إِلاَّ خَوْفٌ مُزْعِجٌ، أَوْ شَوْقٌ مُعَلِّقٌ.

وَلِهَـٰذَا قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنِ عَيَّاش: «مَا سَبَقَكُم أَبو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلاَ صِيَامٍ وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ وَصَدَّقَهُ العَمَلُ».

وَهَـٰذَا مَيْمُونُ بنُ مِهْرَانَ يَقُولُ لِلحَسَنِ البَصْرِيِّ: يَا أَبَا سَعِيدٍ قَدْ أَنِسْتُ مِنْ قَلْبِي غِلْظَةً، فَاسْتَلِنْ لِي مِنْهُ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ الحَسَنُ - رَحِمَهُ اللهُ - قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، والترمذي (١٩٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٤٤) عن حذيفة رضي الله عنه.

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾(١).

وَفِي الحَدِيث: «**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلى أَجْسَادِكُمْ وَلاَ إِلى صُورِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلى قُلُوبِكُمْ**»(٢).

فَهَيَّا بِنَا إِلىَ مَحَطِّ نَظَرِ الله؛ لِنُنَقِّيَهُ، وَنَغْسلَهُ مِمَّا عَلِقَ بِهِ مِنْ صَدأ، وَجِلاؤُه، كَمَا قَالَ المُصْطَفَىٰ ﷺ ذِكْرُ الْمَوْتِ وَتِلاوُةُ القرآن.

يَقُولُ أَبُو حَامِدٍ الغَزَّالِي - رَحِمَهُ اللهُ: «مَثَلُ القَلْبِ كَمَثَلِ حِصْنٍ، وَالشَّيْطَانُ عَدُوٌّ يُرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ الحِصْنَ، وَيَسْتَوْلِي عَلَيْه، وَلاَ يُمْكِنُ حِفْظُ الحِصْنِ إِلاَّ بِحِرَاسَةِ أَبْوَابِهِ وَلاَ يُتَوَصَّلُ إِلَىٰ دَفْعِ الشَّيْطَانِ إِلاَّ بِمَعْرِفَةِ مَدَاخِله. . .».

وَمَدَاخِلُ الشَّيْطَانِ، تَكْمُنُ فِي صِفَاتِ العَبْدِ رَجُلاً كَانَ أَوْ امْرَأَةً، فَالحَسَدُ، وَالغَضَبُ، وَالشَّهْوَةُ، وَحُبُّ المَالِ، وَسُوءُ الظَّنِّ، وَالطَمَعُ، كُلُّ هَـٰذِهِ أَبْوَابٌ وَمَدَاخِلُ لِلشَّيْطَانِ.

وَحِرَاسَةُ قَلْبِكَ، وَحَيَاتُه وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْه مِنْ أَنْ يَسْكُنَهُ الشَّيْطَانُ، تَكُونُ بِأَنْ تُغْلِقَ كُلَّ هَـٰذِهِ المَدَاخِلِ وَالأَبْوَابِ، وَإِغْلاقُهَا عَلَىٰ الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَتِهَا يَسِيرٌ جِدًّا لِمَنْ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٣).

• القُلُوبُ مُسْتَوْدَعُ العُلُوم:

القَلْبُ هُوَ مَحلُّ التَّقْوَىٰ وَالإِيمَان، وَهُوَ كَذَلِكَ مُسْتَوْدَعُ العُلُومِ وَالأَفْهَامِ، بَلِ الْعُلُومُ تَدْخُلُ الْقَلْبَ فِي صُورَةِ مُسَلَّمَاتٍ وَقَوَاعِدَ وَكَلِمَات، ثُمَّ تَخْرُجُ فِي صُورَةِ حِكَمٍ نَافِعَةٍ وَآرَاءٍ سَدِيدَةٍ، وَإِنَّمَا يَمْنَعُ الْقَلْبَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُسْتَوْدَعًا لِلْعِلْمِ أُمُورٌ،

(١) الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧.
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) العنكبوت: ٦٩.

أَهَمُّهَا:

أوَّلاً: عَدَمُ إدرَاكِ الْقَلْبِ؛ وَذَلِكَ لِصِغَرِ السِّنِّ، فَالصَّغِيرُ لَا يُدْرِكُ إدْرَاكًا كَامِلاً، وَإِنَّما هُوَ فِي مَرْحَلَةِ التَّجْهِيزِ لِتَلَقِّي الْعِلْمِ.

ثَانِيًا: تَكْدِيرُ الْقَلْبِ بِسَبَبِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، فإِنَّهَا تُشْبِهُ الْغِشَاوَةَ فِي الْقَلْبِ بِمِقْدَارِ زِيَادَةِ الذُّنُوبِ وَقِلَّتِهَا، فَالْعلاقَةُ طَرْدِيَّةٌ بَيْنَهُمَا.

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيث: أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إنَّ هذهِ الْقُلُوبَ تَصْدأُ كَمَا يَصْدأُ الْحَدِيدُ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا جِلَاؤُهَا؟ قَالَ ﷺ: «**كَثْرَةُ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ**»[1].

ثَالِثًا: الْحِجَابُ؛ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْقَلْبِ حِجَابٌ يَعُوقُ وُصُولَ الْحَقِيقَةِ إِلَيْهِ؛ نَتِيجَةً لِبَعْضِ الْمُسَلَّمَاتِ الَّتِي دَخَلَتْهُ وَلَمْ يُحَاوِلْ تَصْحِيحَهَا.

فَهَـٰذَا الْقَلْبُ لَا يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ؛ لأَنَّهُ مَحْجُوبٌ عَنْهَا، وَهَـٰذَا كَقَلْبِ الْمُعَانِدِ وَقَلْبِ الْجَاحِدِ وَقَلْبِ الْكَافِرِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾[2].

فَجُحُودُ الظَّالِمِينَ نَتِيجَةٌ لِلْحُجُبِ الْكَثِيفَةِ الَّتِي وَضَعُوهَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَصَارَتْ مَحْجُوبَةً عَنِ الحَقِّ، وَإِنَّمَا سَبِيلُهَا لأَنْ تَكُونَ مُسْتَوْدَعًا لِلْحَقِّ وَالعِلْمِ هِيَ أَنْ تُزَاحَ هَـٰذِه الْحُجُبُ، وَأَنْ تَخْلُصَ فِي التَّلَقِّي وَأَنْ تَزِنَ الأُمُورَ بِمِيزَانِ العَدْلِ وَالعَقْلِ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ مُسَلَّمَاتٍ فِي القَلْبِ.

رَابِعًا: جِهَةُ التَّلَقِّي لِلْعِلْمِ: فَالقَلْبُ إِنْ لَمْ يُمْلأْ خَيْرًا مُلِئَ شَراً وَلاَ عَجَبَ لأُنَاسٍ كُلُّ عُلُومِهِمْ فِي الفِتَنِ وَالدَّسَائِسِ وَالإِيقَاعِ بَيْنَ النَّاسِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٠١٤)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٩٧)، والقضاعي في مسند الشهاب (١١٧٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وضعف سنده الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٨٦٦)، وقال الألباني في الضعيفة (٦٠٩٦): «مُنْكر».

(٢) الأنعام: ٣٣.

الْمُجْتَمعِينَ، وَإِذَاقَتِهِمُ الوَيْلات، فَهَـذَا نَتَجَ عَنْ أَنَّ هَـؤُلاءِ لَمْ يُحْسِنُوا اخْتِيَارَ العِلْمِ، فَلَمَّا جَهِلُوا عَنْ عُلُومِ الخَيْرِ وَالصَّلاحِ حَصَّلُوا الشَّرَّ وَالفَسَادَ، وَهَذَا وَاضِحٌ جِدًّا فِي زَمَانِنَا الَّذِي تَفَنَّنَ فِيهِ المُفْسِدُونَ فِي الحُرُوبِ بِالبَاطِلِ لاَ بِالحَقِّ، وَفِي اخْتِرَاعَاتٍ مَا زَادَتِ البَشَرِيَّةَ إِلاَّ شَقَاءً وَتَعَاسَةً وَضَنْكًا، وَالعَجِيبُ أَنَّهُمْ فِي غَايَةِ الإِخْلاصِ لِلْفَسَادِ، مِثْلَمَا يُخْلِصُ أَهْلُ الصَّلاحِ فِي صَلاحِهِمْ.

● الشَّيْطَانُ وَالقَلْبُ:

لِلْشَّيْطَانِ مَعَ القَلْبِ صَوْلَاتٌ وَجَوْلَاتٌ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا جُنْدٌ وَعَتَادٌ وَحِسَابٌ لِلْهَزِيمَةِ وَالنَّصْرِ، فَالقَلْبُ كَالمَدِينَةِ الحَصِينَةِ، وَالشَّيْطَانُ كَالجَيْشِ المُعْتَدِي يَرْمِي بِسِهَامِهِ، فَإِنْ كَانَتْ حُصُونُ القَلْبِ مَنِيعَةً لَمْ تُؤَثِّرْ هَذِهِ السِّهَامُ فِيهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الحُصُونُ مَنِيعَةً كَانَتِ الهَزِيمَةُ وَالخَسَارَةُ.

وَالشَّيْطَانُ فِي هَـذِهِ الحَرْبِ يَضْرِبُ عَلَىٰ وَتَرَيْنِ: الإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ وَيُرَكِّزُ ضَرَبَاتِهِ عَلَىٰ سَبِيلَيْنِ: المَكَارِهِ وَالمَلَذَّاتِ، فَالمَكَارِهُ وُضِعَتْ عَلَىٰ طَرِيقِ الجَنَّةِ، وَالشَّهَوَاتُ وُضِعَتْ عَلَىٰ طَرِيقِ النَّارِ، فَهُوَ يُزَيِّنُ المَكَارِهَ، وَيُحَسِّنُ مِنْ صُورَتِهَا وَيَجْتَهِدُ حَتَّىٰ تَنْصَرِفَ إِلَيْهَا النَّفْسُ، فَتَتَعَلَّقُ بِهَا، فَإِذَا وَقَعَتْ فِيهَا كَانَتْ أَسِيرَةً لَهَا، بِالضَّبْطِ كَصَيَّادٍ مَعَ طُيُورٍ يَضَعُ لَهَا الحَبَّ، وَتَحْتَ الحَبِّ يَضَعُ الشَّبَكَةَ، فَإِذَا مَا نَزَلَتْ لالْتِقَاطِ الحَبِّ أَسَرَتْهَا الشِّبَاكُ.

وَعَلَىٰ الجَانِبِ الآخَرِ يَجْتَهِدُ الشَّيْطَانُ فِي تَهْوِيلِ المَكَارِهِ، وَالَّتِي قَدْ تَكُونُ مِنْهَا العِبَادَاتُ بِأَنْوَاعِهَا ـ كَافَّةً ـ الفُرُوضِ وَالنَّوَافِلِ، فَتَجِدُ الشَّيْطَانَ يُصَعِّبُ هَـذِهِ وَيُيَئِّسُ مِنْ هَـذِهِ، وَيَجْعَلُ المَضَارَّ حَلِيفَةَ هَـذِهِ وَهَكَذَا، وَسَبِيلُهُ كَمَا قُلْنَا: الإِفْرَاطُ أَوِ التَّفْرِيطُ، فَإِنِ الْتَزَمَ المُسْلِمُ بِمَنْهَجِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَمَا اسْتَطَاعَ الشَّيْطَانُ أَنْ يُنَحِّيَهُ عَنْهُ دَخَلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِ الإِفْرَاطُ، فَيَزِيدُ العَبْدُ الْتِزَامًا يَصِلُ بِهِ إِلَىٰ حَدِّ التَّزَمُّتِ، فَلاَ تَصْبِرُ النَّفْسُ عَلَىٰ ذَلِكَ فَتَتْرُكُ المَنْهَجَ كُلَّهُ، وَرُبَّمَا فِي تَزَمُّتِهِ هَـذَا يُسِيءُ إِلَىٰ صُورَةِ

المَنْهَجِ الَّذِي يَحْمِلُهُ، وَهَكَذَا فِعْلُ الشَّيْطَانِ إِمَّا التَّهْوِيلُ مِنَ الأُمُورِ إِلَىٰ حَدِّ العَجْزِ عَنِ القِيَامِ بِهَا، وَإِمَّا التَّهْوِينُ مِنْ شَأْنِهَا إِلَىٰ حَدِّ إِهْمَالِهَا وَنِسْيَانِهَا، لَكِنَّ سَبِيلَ القَلْبِ العَامِرِ بِذِكْرِ الله المُطْمَئِنِّ بِالإِيمَانِ بِهِ هُوَ قَطْعُ هَـٰذِهِ الوَسَاوِسِ، وَصَدِّ هَـٰذِهِ السِّهَامِ بِنُورِ العِلْمِ وَحَلاوَةِ اليَقِينِ وَالإِخْلاصِ لله تَعَالَىٰ وَصُحْبَةِ الصَّالِحِينَ، فَالصَّالِحُونَ أَعْوَانٌ عَلَىٰ الحَقِّ، والنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ عَمَلاً، فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْراً، جَعَلَ لَهُ وَزِيراً صَالِحاً إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ**»[١].

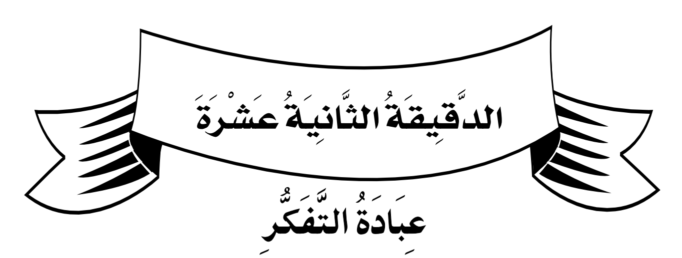
وَفِي وَصِيةِ عَلِيٍّ لِلحَسَنِ رضي الله عنهما قَالَ: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِاليَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالحِكْمَةِ، وَذَلِّلْهُ بِتَذَكُّرِ المَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ فُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ المَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ».

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ بِوَاسِعِ فَضْلِهِ أَنْ يُحْيِي قُلُوبَنَا، وَأَنْ يُطَهِّرَهَا وَيُنَقِّيهَا وَيَمْلأَهَا إِيمَانًا وَيَقِينًا...

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[٢].



(١) أخرجه النسائي (٤٢٠٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٤٠٢) عن عائشة رضي الله عنها، وصححه الألباني.
(٢) آل عمران: ٨.



الدَّقِيقَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ

عِبَادَةُ التَّفَكُّرِ

يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ... ﴾(١).

وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾(٢).

إِنَّ التَّفَكُّرَ فِي مَخْلُوقَاتِ اللهِ وَفِي آلَائِهِ عِبَادَةٌ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالتَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ فِي مَوَاضِعَ لاَ تُحْصَىٰ، وَأَثْنَىٰ كَذَلِكَ عَلَىٰ الذِينَ يَتَفَكَّرُونَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ... ﴾(٣).

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ: إِنَّ قَوْمًا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي اللهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدِرُوا قَدْرَهُ**»(٤).

وَعَنْ عَطَاءٍ قَالَ: انْطَلَقْتُ يَوْمًا أَنَا وَعُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ إِلَىٰ عَائِشَةَ رضي الله عنها، فَكَلَّمَتْنَا وَبَيْنَهَا وَبَيْنَنَا حِجَابٌ، فَقَالَتْ: يَا عُبَيْدُ مَا يَمْنَعُكَ مِنْ زِيَارَتِنَا؟ قَالَ: قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**زُرْ غِبًا تَزْدَدْ حُبًا**»، قَالَ ابنُ عُمَيْرٍ: فَأَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيءٍ رَأَيْتِيهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: فَبَكَتْ، وَقَالَتْ: كُلُّ أَمْرِهِ كَانَ عَجَبًا، أَتَانِي فِي لَيْلَتِي حَتَّىٰ مَسَّ جِلْدُهُ جِلْدِي، ثُمَّ قَالَ: ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، فَقَامَ إِلَىٰ القِرْبَةِ فَتَوَضَّأَ

---

(١) آل عمران: ١٩٠، ١٩١. (٢) فصلت: ٥٣. (٣) يونس: ١٠١.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٧)، والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٢٣١٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وضعفه الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٤٣٢٠).

مِنْهَا، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، فَبَكَىٰ حَتَّىٰ بَلَّ لِحْيَتَهُ، ثُمَّ سَجَدَ حَتَّىٰ بَلَّ الأَرْضَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَىٰ جَنْبِهِ حَتَّىٰ أَتَىٰ بِلالٌ يُؤْذِنُهُ بِصَلاةِ الصُّبْحِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله: مَا يُبْكِيكَ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ: «**وَيْحَكَ يَا بِلالُ وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِي وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيَّ هَذِهِ اللَّيْلَةَ قَوْلَهُ:** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١]، ثُمَّ قَالَ: «**وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا**»[٢].

التَّفَكُّرُ عِبَادَةُ الصَّالِحِينَ مِنْ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ، فَقَدْ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه: «تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ».

وَقَالَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ: «الفِكْرُ مِرْآةٌ تُرِيكَ حَسَنَاتِكَ وَسَيِّئَاتِكَ، وَقِيلَ لإِبْرَاهِيمَ بنِ أَدْهَمَ: إِنَّكَ تُطِيلُ الفِكْرَةَ؟ فَقَالَ: الفِكْرَةُ مُخُّ العَقْلِ».

وَقَالَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّه: «مَا طَالَتْ فِكْرَةُ امْرِئٍ قَطُّ إِلاَّ عَلِمَ، وَمَا عَلِمَ امْرُؤٌ قَطُّ إِلاَّ عَمِلَ».

وَهَذَا بِشْرٌ الحَافِي يَقُولُ: «لَوْ تَفَكَّرَ النَّاسُ فِي عَظَمَةِ الله تَعَالَىٰ مَا عَصَوْهُ».

وَهَـٰذَا الحَسَنُ البَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - يَرْبِطُ بَيْنَ الحِكْمَةِ وَبَيْنَ الفِكْرِ، فَيَقُولُ: إِنَّ أَهْلَ العَقْلِ لَمْ يَزَالُوا يَعُودُونَ بِالذِّكْرِ عَلَىٰ الفِكْرِ وَبِالفِكْرِ عَلَىٰ الذِّكْرِ حَتَّىٰ اسْتَنْطَقُوا قُلُوبَهُمْ فَنَطَقَتْ بِالحِكْمَةِ.

وَيَقُولُ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ: «اسْتَعِينُوا عَلَىٰ الكَلامِ بِالصَّمْتِ وَعَلَىٰ الاسْتِنْبَاطِ بِالفِكْرِ».

وَيَقُولُ أَيْضًا - رَحِمَهُ اللهُ: «صِحَّةُ النَّظَرِ فِي الأُمُورِ نَجَاةٌ مِنَ الغُرُورِ، وَالعَزْمُ فِي الرَّأْيِ سَلامَةٌ مِنَ التَّفْرِيطِ وَالنَّدَمِ، وَالرُّؤْيَةُ وَالفِكْرُ يَكْشِفَانِ عَنِ الحَزْمِ وَالفِطْنَةِ، وَمُشَاوَرَةُ الحُكَمَاءِ ثَبَاتٌ فِي النَّفْسِ وَقُوَّةٌ فِي البَصِيرَةِ، فَفَكِّرْ قَبْلَ أَنْ تَعْزِمَ، وَتَدَبَّرْ

---

(١) آل عمران: ١٩٠، ١٩١.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢٠)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٦٨).

قَبْلَ أَنْ تَهْجُم، وَشَاوِرْ قَبْلَ أَنْ تُقْدِم».

وَهَـٰذَا ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه يُعَلِّمُنَا المُحَاسَبَةَ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِ، فَيَقُولُ: التَّفَكُّرُ فِي الخَيْرِ يَدْعُو إِلَى العَمَلِ بِهِ، وَالنَّدَمُ عَلَىٰ الشَّرِّ يَدْعُو إِلَىٰ تَرْكِهِ».

وَهَـٰذَا حَاتِمٌ يَقُولُ: مِنَ العِبْرَةِ يَزِيدُ العِلْمُ، وَمِنَ الذِّكْرِ يَزِيدُ الحُبُّ وَمِنَ التَّفَكُّرِ يَزِيدُ الخَوْفُ.

وَهَذَا الفِرْيَابِي يَقْرَأُ قَوْلَ الله تَعَالَىٰ: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾[1]، فَيَقُولُ: أَيْ أَمْنَعُ قُلُوبَهُمْ مِنَ التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِي.

فَالتَّفَكُّرُ عِبَادَةٌ مِنْ أَشْرَفِ العِبَادَاتِ، قَالَ عُمَرُ بنُ عبدِ العَزِيزِ رضي الله عنه: «التَّفَكُّرُ فِي نِعَمِ اللهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مِنْ أَفْضَلِ العِبَادَةِ».

وَنِعَمُ الله تَعَالَىٰ عَلَىٰ الإِنْسَانِ أَكْثَرُ مِن أَنْ تُحْصَىٰ، قَالَ تعالىٰ: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**﴾[2]، وَلَمْحَةُ فِكْرٍ وَاحِدَةٌ فِي مَلَكُوتِ الله سُبْحَانَهُ تَقِفُكَ عَلَىٰ عَظَمَةِ الخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَالتِي تَهْدِيكَ إِلىٰ الشُّكْرِ عَلَىٰ نِعَمِهِ.

فَإِذَا عَرَفْتَ طَرِيقَ الفِكْرِ فَتَفَكَّرْ فِي الأَرْضِ التِي هِيَ مَقَرُّكَ، ثُمَّ فِي أَنْهَارِهَا وَجِبَالِهَا وَمَعَادِنِهَا ثُمَّ ارْتَفِعْ مِنْهَا إِلَىٰ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. . . !!

فَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ الأَرْضَ فِرَاشًا وَمِهَادًا، وَسَلَكَ فِيهَا سُبُلاً فِجَاجًا، وَجَعَلَهَا ذَلُولاً لِتَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا، وَأَرْسَىٰ فِيهَا الجِبَالَ أَوْتَادًا لَهَا تَمْنَعُهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ.

وَمَا مِنْ جَمَادٍ وَلاَ حَيَوَانٍ وَلاَ نَبَاتٍ إِلاَّ وَفِيهِ حِكْمَةٌ، وَمَا خُلِقَ شَيءٌ مِنْهَا عَبَثًا وَلاَ لَعِبًا وَلاَ هَزْلاً، بَلْ خَلَقَ اللهُ الكُلَّ بِالحَقِّ، كَمَا يَنْبَغِي وَعَلَىٰ الوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، وَكَمَا يَلِيقُ بِجَلالِهِ وَلُطْفِهِ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾[3].

فَيَا سُبْحَانَهُ مِنْ خَالِقٍ!!!

إِنَّ آيَاتِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ التِي تَسْتَدْعِي مِنَ الإِنْسَانِ التَّأَمُّلَ وَالتَّفَكُّرَ فِيهَا فِي

(١) الأعراف: ١٤٦. (٢) إبراهيم: ٣٤. (٣) الدخان: ٣٨، ٣٩.

السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تُحْصَىٰ وَلاَ تُعَدُّ وَالقُرْآنُ يَلْفِتُ النَّظَرَ إِلَىٰ وَجْهٍ آخَرَ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾(١).

فَالإِنْسَانُ عَجِيبَةٌ مِنَ العَجَائِبِ وَآيَةٌ عُظْمَىٰ مِنَ الآيَاتِ التِي تَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَةِ اللهِ خَلْقًا وَتَقْدِيراً.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾(٢).

وَفِي سُورَةِ «الْمُؤْمِنُونَ» يُبَيِّنُ اللهُ سُبْحَانَهُ أَطْوَارَ خَلْقِ الإِنْسَانِ؛ لِيَقِفَ العَبْدُ عَلَىٰ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ وَيُدْرِكَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ، فَلاَ يَتَوَجَّهُ بِالعِبَادَةِ إِلَىٰ غَيْرِهِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾(٣).

فَمِنْ نُطْفَةٍ إِلَىٰ عَلَقَةٍ إِلَىٰ مُضْغَةٍ إِلَىٰ عِظَامٍ ثُمَّ تُكْسَىٰ العِظَامُ لَحْمًا.

وَهَكَذَا أَحِبَّتِي فَمَعْرِفَةُ حُدُودِ العَبْدِ وَإِمْكَانَاتِهِ وَمَعْرِفَةُ عَظَمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَقُدْرَتِهِ الْمُطْلَقَةِ تَكُونُ بِالتَّفَكُّرِ الَّذِي يَهْدِي إِلَىٰ العِلْمِ ثُمَّ العَمَلِ، وَلَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ ظَنُّوا أَنَّهُمْ خُلِقُوا لِلعَبَثِ بِدُونِ غَايَةٍ أَوْ هَدَفٍ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾(٤).

فَالتَّفَكُّرُ إِذَنْ مَبْدَأٌ وَمِفْتَاحٌ لِلخَيْرَاتِ كُلِّهَا، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي الإِنْسَانَ إِلَىٰ أَنَّ الآخِرَةَ أَوْلَىٰ بِالإِيثَارِ مِنَ الدُّنْيَا، وَالفِكْرُ هُوَ ذِكْرُ القَلْبِ وَالأَلْفَاظُ هِيَ ذِكْرُ اللِّسَانِ كَمَا قَالَ أَحَدُ العُلَمَاءِ.

يَقُولُ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: عَوِّدُوا أَعْيُنَكُمْ البُكَاءَ وَقُلُوبَكُمْ التَّفَكُّرَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلْسِنَةً لَكَ ذَاكِرَةً وَقُلُوبًا بِكَ عَامِرَةً وَبِالتَّفَكُّرِ فِي آلاَئِكَ مُؤْمِنَةً.

❖ ❖ ❖

(١) الذاريات: ٢١.
(٢) عبس: ١٧، ١٨.
(٣) المؤمنون: ١٢ ـ ١٤.
(٤) المؤمنون: ١١٥، ١١٦.



هَكَذَا كَانَ العِتَاب

يَقُولُ المَوْلَىٰ عز وجل فِي مُحْكَمِ آياتِه: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾[1].

هَكَذَا كَانَ العِتَابُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِلمُؤْمِنِينَ.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «مَا كَانَ بَيْنَ إِسلامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عُوتِبْنَا بِهَذِهِ الآيَةِ إِلاَّ أَرْبَعَ سَنَوَاتٍ».

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه: أَنَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ قُرِئَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَانَ عِنْدَهُ قَوْمٌ مِنَ اليَمَنِ، فَبَكَوا بُكَاءً شَدِيداً، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «هَـٰكَذَا كُنَّا حَتَّىٰ قَسَتِ القُلُوبُ».

وَالمَعْنَىٰ: أَلَمْ يَجِئِ الوَقْتُ وَيَحِنِ الحِينُ... لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَتَمَكَّنَ الإِيمَانُ فِي نُفُوسِهِمْ، وَيُخَالِطَ شَغَافَ قُلُوبِهِم، فَتَلِينَ مِنْ جُحُودِهَا، وَتَرِقَّ مِنْ قَسْوَتِهَا وَغِلَظِهَا، وَتَتَحَرَّرَ مِنْ جَاهِلِيَّتِهَا وَجَهْلِهَا... فَتَخْشَاهُ لِذِكْرِهِ وَتَخَافَهُ، وَتَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ، وَتُسَارِعَ إِلَىٰ طَاعَتِهِ بِالامْتِثَالِ لأَوَامِرِهِ، وَالانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَىٰ عَنْهُ، مِنْ غَيْرِ تَوانٍ وَلاَ فُتُورٍ، وَتَخْشَعَ لِمَا نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ وَهُوَ الحَقُّ، الذِي لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ.

نَعَم... إِنَّهُ عِتَابٌ مِنَ المَوْلَىٰ - عَزَّ وَجَلَّ - وَاسْتِبْطَاءٌ لِلاسْتِجَابَةِ مِنَ القُلُوبِ

---

(١) الحديد: ١٦، ١٧.

الَّتِي أَفَاضَ عَلَيْهَا مِنْ فَضْلِهِ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا الرُّسُلَ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهَا الآيَاتِ، وَبَيَّنَ لَهَا طَرِيقَ النُّورِ مِنْ الظُّلُمَاتِ.

إِنَّهُ عِتَابٌ فِيهِ وُدٌّ وَفِيهِ حَضٌّ، وَنِدَاءٌ مِنَ اللهِ الرَّحِيمِ، نِدَاءٌ لَعَلَّ القُلُوبَ أَنْ تَخْشَعَ وَتَلِينَ وَتَعْرِفَ حَقَّ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهَا، فَهَـٰذَا القَلْبُ إِنْ طَالَ عَلَيْهِ الأَمَدُ بِلاَ تَذْكِيرٍ تَبَلَّدَ وَقَسَا، وَأَظْلَمَ وَأَعْتَمَ، وَلاَ بُدَّ مِنْ تَذْكِيرِهِ حَتَّىٰ يَتَذَكَّرَ وَيَخْشَعَ.

﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾. قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: «أَمَا آنَ لِلمُؤْمِنِينَ أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ، أيْ: تَلِين عِنْدَ الذِّكْرِ وَالمَوْعِظَةِ وَسَمَاعِ القُرْآنِ، فَتَفْهَمَ وَتَنْقَادَ لَهُ وَتَسْمَعَ وَتُطِيعَ؟!»(١).

ثُمَّ تَأْتِي الآيَةُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾(٢).

فَكَمَا أَنَّ الأَرْضَ يَأْتِي عَلَيْهَا المَوْتُ، فَكَذَلِكَ القَلْبُ قَدْ يَجْمُدُ وَيَخْمُدُ وَيَقْسُو وَيَتَبَلَّدُ لَكِنْ يُمْكِنُ أَنْ تَدِبَّ فِيهِ الحَيَاةُ، وَأَنْ يُشْرِقَ فِيهِ النُّورُ وَأَنْ يَخْشَعَ لِذِكْرِ اللهِ، فَاللهُ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا فَتَنْبِضُ بِالحَيَاةِ، وَتَزْخَرُ بِالنَّبْتِ وَالزَّهْرِ، وَتَمْنَحُ الأَكْلَ وَالثِّمَارَ وَكَذَلِكَ القُلُوبُ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِطَاوُوس بنِ كَيْسَانَ: أَوْصِنِي، فَقَالَ: «أُوصِيكَ أَنْ تُحِبَّ اللهَ حُبًّا، حَتَّىٰ لاَ يَكُونَ شَيءٌ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْهُ، وَخِفْهُ خَوْفًا حَتَّىٰ لاَ يَكُونَ شَيءٌ أَخْوَفَ إِلَيْكَ مِنْهُ، وارْجُ اللهَ رَجَاءً، يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ الخَوْفِ، وَارْضَ لِلنَّاسِ مَا تَرْضَىٰ لِنَفْسِكَ».

وَيُرْوَىٰ عَنْ دَاودَ عليه السلام أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَوْحَىٰ إِلَيْهِ: «يَا دَاودُ، لَوْ يَعْلَمُ المُدْبِرُونَ عَنِّي كَيْفَ انْتِظَارِي لَهُمْ، وَرِفْقِي بِهِمْ، وَشَوْقِي إِلَىٰ تَرْكِ مَعَاصِيهِمْ، لَمَاتُوا شَوْقًا إِلَيَّ، وَتَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُمْ مِنْ مَحَبَّتِي، يَا دَاودُ هَـٰذِهِ إِرَادَتِي فِي المُدْبِرِينَ عَنِّي

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣١١).

(٢) الحديد: ١٧.

فَكَيْفَ إِرَادَتِي بِالْمُقْبِلِينَ عَلَيَّ» .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾[(١)] .

هَـٰذِهِ الآيَةُ ، سَمِعَهَا الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ ، فَامْتَثَلَ لأَمْرِ اللهِ وَقَالَ : بَلْ آنَ ، بَلْ آنَ . . . وَتَغَيَّرَ حَالُهُ ، وَبَعْدَمَا كَانَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ يَقْطَعُ الطَّرِيقَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَسْلِبُهُمْ مَا مَعَهُمْ ، صَارَ عَابِدَ الحَرَمَيْنِ وَمِمَّنْ يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ فِي الزُّهْدِ وَالوَرَعِ .

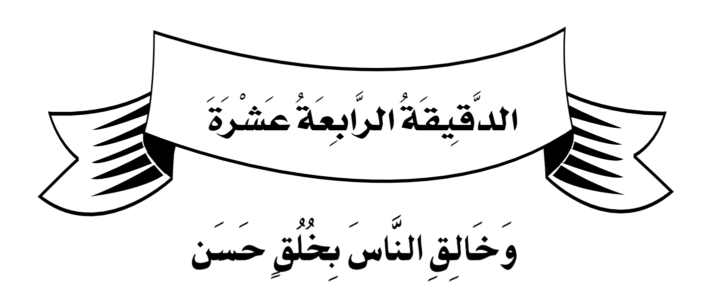
نَعَمْ فَقُلُوبُ العِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَـٰنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ شَاءَ .

فَاللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ .

اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا لِنَتُوبَ .



(١) الحديد : ١٦ .



وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ

حُسْنُ الْخُلُقِ . . . وَمَا أَدْرَاكَ مَا حُسْنُ الْخُلُقِ؟! هُوَ مَا بُعِثَ سَيِّدُ الخَلْقِ ﷺ لأَجْلِ إِتْمَامِهِ فِي الحَدِيثِ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ**»(١).

وَفِي حَدِيثٍ آخر يَقُولُ ﷺ: «**أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الخُلُقِ**»(٢).

أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ تُدْرِكُونَ بِهِ دَرَجَةَ الصِّيَامِ وَالْقِيَامِ؟

إِنَّهُ حُسْنُ الخُلُقِ، فَفِي الحديثِ الذَّي رَوَاهُ الإِمَامُ أَحْمَدُ قَالَ ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ**»(٣).

وَقَدْ سُئِلَت السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رضي الله عنها عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَتْ لِلسَّائِلِ: أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: «**فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ**»(٤).

وَقَدْ جَمَعَ اللهُ تَعَالَى مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾(٥).

قَالَ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّد: أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ وَلَيْسَ فِي القُرْآنِ آيَةٌ أَجْمَعَ لِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ مِنْ هَـٰذِهِ الآيَةِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٩).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وابن ماجه (٤٢٤٦)، وأحمد (٢/ ٢٩١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الترمذي: «صحيح غريب»، وحسَّنه الألباني.
(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، عن عائشة رضي الله عنها. وصححه الألباني.
(٤) أخرجه مسلم (٧٤٦)، وأبو داود (١٣٤٢) عن سعد بن هشام بن عامر رضي الله عنه.
(٥) الأعراف: ١٩٩.

ولَمَّا نَزَلَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ سَأَلَ جِبْرَائِيل عَنْ تَأْوِيلِهَا، فَقَالَ لَهُ: حَتَّىٰ أَسْأَلَ الْعَالِمَ.

ثُمَّ ذَهَبَ وَأَتَاه، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ: «**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ**»(١).

فَهَـٰكَذَا كَانَ خُلُقُ الْمُصْطَفَىٰ ﷺ، قَالَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَقَدْ خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ لَا وَاللهِ مَا سَبَّنِي سَبَّةً قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي: أُفٍّ قَطُّ، وَلَا قَالَ لِشَيْءٍ فَعَلْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَهُ؟ وَلَا لِشَيْءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ: أَلَا فَعَلْتَهُ»(٢).

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ البِرِّ وَالإِثْمِ؟ فَقَالَ: «**البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»(٣).

وَفِي صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ**»(٤).

● **أَرْكَانُ حُسْنِ الخُلُقِ:**

يَقُومُ حُسْنُ الخُلُقِ فِي الْمُسْلِمِ عَلَىٰ أَرْكَانٍ لَا يُتَصَوَّرُ قِيَامُهُ بِدُونِهَا، وَهَـٰذِهِ الأَرْكَانُ هِيَ الصَّبْرُ، وَالعِفَّةُ، وَالشَّجَاعَةُ، وَالعَدْلُ.

فَالصَّبْرُ يَحْمِلُ الْمُسْلِمَ عَلَىٰ الاحْتِمَالِ وَكَظْمِ الغَيْظِ وَكَفِّ الأَذَىٰ وَالحِلْمِ وَالأَنَاةِ وَالرِّفْقِ وَعَدَمِ الطَّيْشِ وَالعَجَلَةِ.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٢٥) عن الصيرفي مرسلاً، وعزاه الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢٦٧٩) لابن مردويه من حديث جابر وقيس بن سعد بن عبادة وأنس بأسانيد حسان، وعزاه الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٣٠٦) للطبري مرسلاً وابن مردويه موصولاً من حديث جابر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٠٩)، والترمذي (٢٠١٥)، وأحمد (٣/ ١٩٧) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٥٣)، والترمذي (٢٣٨٩)، وأحمد (٤/ ١٨٢) عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٠٠٢) عن أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ»، وصححه الألباني.

وَالعِفَّةُ تَحْمِلُ عَلَىٰ اجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ وَالقَبَائِحِ مِنَ القَوْلِ وَالفِعْلِ وَتَحْمِلُهُ عَلَىٰ الحَيَاءِ، وَالحَيَاءُ رَأْسُ كُلِّ خَيْرٍ، وَالعِفَّةُ تَمْنَعُ مِنَ الفَحْشَاءِ وَالبُخْلِ وَالكَذِبِ وَالغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ.

وَالشَّجَاعَةُ تَحْمِلُهُ عَلَىٰ عِزَّةِ النَّفْسِ وَإِيثَارِ مَعَالِي الأَخْلَاقِ وَالشِّيَمِ وَعَلَىٰ البَذْلِ وَالنَّدَىٰ، وَتَحْمِلُهُ عَلَىٰ كَظْمِ الغَيْظِ وَالْحِلْمِ، فَإِنَّ العَبْدَ بِقُوَّةِ نَفْسِهِ وَشَجَاعَتِهَا يُمْسِكُ عِنَانَهَا وَيَكْبَحُهَا بِلِجَامِهَا عَنِ النَّزَقِ وَالبَطْشِ وَتَلْبِيَةِ دَاعِي الشَّيْطَانِ فِي النَّفْسِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ**»[(١)].

وَالعَدْلُ يَحْمِلُ العَبْدَ عَلَىٰ اعْتِدَالِ أَخْلَاقِهِ، فَلَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ وَيَحْمِلُهُ عَلَىٰ خُلُقِ الجُودِ وَالسَّخَاءِ، وَعَلَىٰ خُلُقِ الشَّجَاعَةِ وَعَلَىٰ الحِلْمِ.

وَكَمَا أَنَّ مَنْشَأَ الأَخْلَاقِ الفَاضِلَةِ الحَسَنَةِ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَخْلَاقٍ وَهِيَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا: «**الصَّبْرُ وَالعِفَّةُ وَالشَّجَاعَةُ وَالعَدْلُ**»، فَإِنَّ مَنْشَأَ الأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ وَالبَذِيئَةِ أَيْضًا عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ: «**الجَهْلُ وَالظُّلْمُ وَالشَّهْوَةُ وَالغَضَبُ**».

فَالجَهْلُ يُرِيهِ الحُسْنَ فِي صُورَةِ القُبْحِ، وَالقُبْحَ فِي صُورَةِ الحُسْنِ، أَيْ: يُبَدِّلُ مَقَايِيسَهُ وَمَوَازِينَهُ لِلْحَيَاةِ وَلِلصِّفَاتِ وَلِلنَّاسِ، يُرِيهِ الكَرِيمَ مُسْرِفًا، وَيُرِيهِ كَاظِمَ الغَيْظِ ضَعِيفًا، وَيُرِيهِ الشُّجَاعَ مُتَهَوِّرًا.

وَالظُّلْمُ يَحْمِلُهُ - دَائِمًا - عَلَىٰ وَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، فَتَرَاهُ يَغْضَبُ فِي مَوْضِعِ الرِّضَا وَيَرْضَىٰ فِي مَوْضِعِ الغَضَبِ، وَيَجْهَلُ فِي مَوْضِعِ الأَنَاةِ، وَتَرَاهُ يَبْخَلُ فِي مَوْضِعِ البَذْلِ، وَيَبْذُلُ فِي مَوْضِعِ البُخْلِ، وَتَرَاهُ يُحْجِمُ فِي مَوْضِعِ الإِقْدَامِ وَيُقْدِمُ فِي مَوْضِعِ الإِحْجَامِ، وَيَلِينُ فِي مَوْضِعِ الشِّدَّةِ وَيَشْتَدُّ فِي مَوْضِعِ اللِّينِ، وَيَتَوَاضَعُ فِي مَوْضِعِ العِزَّةِ، وَيَتَكَبَّرُ فِي مَوْضِعِ التَّوَاضُعِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أَمَّا الشَّهْوَةُ فَتَحْمِلُهُ عَلَىٰ الحِرْصِ وَالشُّحِّ وَالبُخْلِ، وَعَدَمِ العِفَّةِ وَتَضَعُهُ دَائِمًا فِي مَوْضِعِ التُّهْمَةِ وَالرِّيبَةِ وَالشَّكِّ، يُتَّهَمُ وَقَدْ يَكُونُ بَرِيئًا وَتَحْمِلُهُ دَائِمًا عَلَىٰ الجَزَعِ وَعَدَمِ الصَّبْرِ وَتُخَيِّلُ لَهُ أَنَّهُ نَسِيجٌ وَحْدَهُ مِنْ هَـٰذِهِ الصِّفَةِ، مَعْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَصْحَابُ شَهْوَةٍ لَكِنَّ مِنْهُمْ الصَّابِرَ وَالعَفِيفَ وَمِنْهُمْ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَالغَضَبُ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ الكِبْرِ وَالحِقْدِ وَالحَسَدِ وَالعُدْوَانِ، وَتَلْبِيَةِ دَاعِي الشَّيْطَانِ وَظُلْمِ النَّاسِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

وَقَدْ جُمِعَتْ عَلامَاتُ حُسْنِ الخُلُقِ فِي صِفَاتٍ عِدَّةٍ، مِنْهَا: أَنْ يَكُونَ إِنْسَانًا كَثِيرَ الحَيَاءِ، قَلِيلَ الأَذَىٰ، كَثِيرَ الصَّلاحِ، صَدُوقَ اللِّسَانِ، قَلِيلَ الكَلامِ، كَثِيرَ العَمَلِ، قَلِيلَ الزَّلَلِ، قَلِيلَ الفُضُولِ، بَراً، وَصُولاً، وَقُوراً، صَبُوراً، شَكُوراً، رَاضِيًا، حَلِيمًا، رَفِيقًا، عَفِيفًا، شَفِيقًا، لاَ لَعَّانًا ولا سَبَّابًا ولاَ نَمَّامًا ولاَ عَجُولاً ولاَ حَقُودًا ولاَ حَسُودًا، هَشَّاشًا بَشَّاشًا.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ**»(٢).

فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ البَيْتَ الَّذِي فِي أَعَلَىٰ الجَنَّةَ لأَعْلَىٰ المَقَامَاتِ الثَّلاثَةِ وَهِيَ حُسْنُ الخُلُقِ.

وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَوْمَ القِيَامَةِ: الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ**»، قَالُوا: يَا

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٨)، وأحمد (٣/ ٣٢٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٨٣) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسَّنه الشيخ الألباني.

رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارِينَ وَالْمُتَشَدِّقِينَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: «**الْمُتَكَبِّرُونَ**»[(١)].

يُحِبُّ فِي اللهِ وَيُبْغِضُ فِي اللهِ وَيَرْضَىٰ فِي اللهِ وَيَغْضَبُ فِي اللهِ.

واسْمَعُوا إِلَىٰ وَصِيَّةِ عَلْقَمَةَ العُطَارِدِيِّ لابْنِهِ حَيْثُ قَالَ قَبْلَ وَفَاتِهِ: «يَا بُنَيَّ إِذَا عَرَضَتْ لَكَ صُحْبَةُ الرِّجَالِ، فَاصْحَبْ مَنْ إِذَا خَدَمْتَهُ صَانَكْ، وَإِذَا صَحِبْتَهُ زَانَكْ، وَإِنْ قَعَدَتْ بِكَ مَؤُونَةٌ أَعَانَكَ، وَاصْحَبْ مَنْ إِذَا مَدَدتَ يَدَكَ بِخَيْرٍ مَدَّهَا، وَإِنْ رَأَىٰ مِنْكَ حَسَنَةً عَدَّهَا، وَإِنْ رَأَىٰ مِنْكَ سَيِّئَةً سَدَّهَا، اصْحَبْ مَنْ إِذَا سَأَلْتَهُ أَعْطَاكَ، وَإِنْ سَكَتَّ ابتَدَاكَ، وَإِنْ نَزَلَتْ بِكَ نَازِلَةٌ وَاسَاكَ، اصْحَبْ مَنْ إِذَا قُلْتَ صَدَّقَ قَوْلَكَ، وَإِنْ حَاوَلْتَ أَمْرًا أَمَرَكْ، وَإِنْ تَنَازَعْتُمَا آثَرَكَ».

وَمِنْ أَلْطَفِ مَا جَاءَ عَنِ الأَئِمَةِ ـ رَحِمَهُم الله ـ قَوْلُ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ ـ رَحِمَهُ الله وَرَضِيَ عَنْهُ: «الانْقِبَاضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ لِلعَدَاوَةِ، والانْبِسَاطُ إِلَيهِمْ مَجْلَبَةٌ لِقُرَنَاءِ السُّوءِ، فَكُنْ بَيْنَ الْمُنْقَبِضِ وَالْمُنْبَسِطِ وَصَاحِبْ بِمَعْرُوفٍ، وَجَانِبْ مَنْ اعْتَدَىٰ، وَفَارِقْ وَلَكِنْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ».

وَإِلَيْكُمْ هَـٰذَا الْخَبَرُ: يُحْكَىٰ أَنَّ الفُضَيْلَ بنَ عِيَاضٍ كَانَ فِي الْحَرَمِ، فَجَاءَ خُرَاسَانِيٌّ يَبْكِي، فَقَالَ لَهُ الفُضَيْلُ: لِمَاذَا تَبْكِي؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: فَقَدتُ دَنَانِيرَ، فَعَلِمْتُ أَنَّهَا سُرِقَتْ مِنِي، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ الفُضَيْلُ: أَتَبْكِي مِنْ أَجْلِ الدَنَانِيرَ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: لاَ، وَلَكِنِّي بَكَيْتُ لِعِلْمِي أَنِّي سَأَقِفُ بَيْنَ يَدَي اللهِ أَنَا وَهَـٰذَا السَّارِقُ فَرحِمْتُ السَّارِقَ فَبَكَيْتُ.

وَحِينَمَا سُرِقَ لِلرَّبِيعِ بن خُثَيْم فَرَسٌ قَالُوا لَهُ: ادْعُ الله عَلَيْهِ أَيْ عَلَىٰ السَّارِقِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ غَنِيًّا فاغْفِرْ لَهُ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنِهِ!

---

(١) سبق تخريجه.

وَهَـٰذَا عُمَرُ بنُ عبدِ العَزِيزِ يَضْرِبُ مثَالاً رَائعًا فِي التَّواضعِ وَحُسْنِ الخُلُقِ، فَقَدْ رَوَىٰ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ قَالَ: سَهِرْتُ لَيْلَةً عِنْدَ عُمَرَ بنِ عبدِالعزيزِ فَغَشِي السِّرَاجُ، وَإِلىٰ جَانِبِهِ وَصِيفٌ نَائِمٌ قُلْتُ: أَلاَ أُنبِّهُهُ لِكَيْ يُصْلِحَ السِّرَاجَ؟ قَالَ: لاَ، قُلْتُ: أَفَلاَ أَقُومُ أَنَا؟ قَالَ: لَيْسَ مِنَ مُرُوءَةِ الرَّجُلِ اسْتِخْدَامُهُ ضَيْفَهُ، فَقَامَ إِلىٰ بَطَّةِ الزَّيْتِ وَأَصْلَحَ السِّرَاجَ ثُمَّ رَجَعَ وَقَالَ: قُمْتُ وَأَنَا عُمَرُ بنُ عبدِ العزِيزِ، وَرَجَعْتُ وَأَنَا عُمَرُ ابْن عَبْدِ الْعَزِيزِ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بنُ عَبَّاسٍ: «لَوْ وُزِنَتْ كَلِمَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَحَاسِنَ النَّاسِ لرَجَحَتْ، وَهِي قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوالِكُم، فَسَعُوهُمْ بِأَخْلاَقِكُمْ**»، وَفِي رِوَايَة: «**فَسَعُوهُم بِبَسْطِ الوَجْهِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ**»[1].

وَقَالَ أَحدُ السَّلَفِ: الحَسَنُ الخُلُقِ ذُو قَرَابَةٍ حَتَّىٰ عِنْدَ الأَجَانِبِ، وَصَاحِبُ الخُلُقِ السَّيِّءِ أَجْنَبِيٌّ عِنْدَ أَهْلِهِ.

وَمِمَّا يُحْكَىٰ فِي الأَثَرِ أَنَّ ابْنَ لُقْمَانَ الحَكِيمِ قَالَ لَهُ: يَا أَبَتِ أَيُّ الخِصَالِ مِنَ الإِنْسَانِ خَيْرٌ؟ فَقَالَ: الدِّينُ. قَالَ: فَإِنْ كَانَتِ اثْنَتَيْنِ؟ قَالَ: الدِّينُ وَالمَالُ، قَالَ: فَإِنْ كَانَتْ ثَلاثًا؟ قَالَ: الدِّينُ وَالمَالُ وَالحَيَاءُ، قَالَ: فَإِنْ كَانَتْ أَرْبعًا؟، قَالَ: الدِّينُ وَالمَالُ والحَيَاءُ وَحُسْنُ الخُلُقِ، قَالَ: فَإِنْ كَانَتْ خَمْسًا؟ قَالَ: الدِّينُ وَالمَالُ وَالحَيَاءُ وَحُسْنُ الخُلُقِ وَالسَّخَاءُ، قَالَ: فَإِنْ كَانَتْ ستاً؟ فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ إِذَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ الخَمْسُ خِصَالٍ فَهُوَ نَقِيٌّ تَقِيٌّ وَللهِ تَعَالَىٰ وَلِيٌّ.

وَقَالَ: يَحْيَىٰ بنُ مُعَاذ: «سُوءُ الخُلُقِ، سَيِّئَةٌ لاَ تَنْفَعُ مَعَها كَثْرَةُ الحَسَنَاتِ، وَحُسْنُ الخُلُقِ حَسَنَةٌ لاَ تَضُرُّ مَعَهَا كَثْرَةُ السَّيِّئَاتِ».

وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا الكَرَمُ؟ فَقَالَ: هُوَ مَا بَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ:

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في مسنده (٦٥٥٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢): «وفيه عبد الله بن سعيد المقبري وهو ضعيف».

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[(١)]، فَقِيلَ لَهُ: فَمَا الحَسَبُ؟ فَقَالَ: أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا أَفْضَلُكُمْ حَسَبًا.

وَكَتَبَ الحَسَنُ بنُ عَليٍّ إِلىٰ أَخيهِ الحُسَيْنِ رضي الله عنهم أَجْمَعين، في إِعْطَائه المَالَ الكَثيرَ للشُّعَراءِ، فَكَتَب إِلَيْهِ الحُسَيْنُ: «أَخِي أَنْتَ أَعْلَمُ مِنِّي بِأَنَّ خَيْرَ المَالِ مَا وُقِيَ بِهِ العِرْضُ».

فانْظُرْ إِلَىٰ شَرَفِ أَدَبِهِ رضي الله عنه وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعين وَحُسْنِ خُلُقِهِ كَيْفَ بَدَأَ كِتَابَهُ لأَخيهِ بِقَوْلِهِ: «أَخِي أَنْتَ أَعْلَمُ مِنِّي».

وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ الحَسَنِ وَبَيْنَ الحُسَيْنِ كَلامٌ، فَقيلَ للحُسَيْنِ: ادْخُلْ عَلَىٰ أَخيكَ فَهُوَ أَكْبَرُ مِنْكَ، فَقَالَ الحُسَيْنُ: إِنِّي سَمِعْتُ جَدِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**أيُّمَا اثْنَيْنِ جَرَىٰ بَيْنَهُمَا كَلامٌ فَطَلَبَ أحدُهُمَا رِضَا الآخَرِ كَانَ سَابِقَهُ إلَى الجَنَّةِ**»، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَسْبِقَ أَخِي الأَكْبَرَ إِلَىٰ الجَنَّةِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الحَسَنَ، فَجَاءَهُ عَاجِلاً رضي الله عنهم وَعَنْ أَبيهِمَا وَعَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعين[(٢)].

وَكَانَ عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ رضي الله عنهم، إِذَا رَأَىٰ أَحَداً مِنْ عَبِيدِهِ يُحْسِنُ الصَّلاةَ يُعْتِقُهُ، فَعَرفُوا ذَلِكَ مِنْ خُلُقِهِ، فَكَانُوا يُحْسِنُونَ الصَّلاةَ مُرَاءَاةً لَهُ، فَكَانَ يُعْتِقُهُمْ فَقيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: مَنْ خَدَعَنَا فِي اللهِ انْخَدَعْنَا لَهُ.

وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم: «وَرَدَ عَلَيْنَا الوَليدُ بنُ عُتْبَةَ بنُ أَبِي سُفْيَانَ المَدينَةَ وَاليًا، وَكَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةٌ مِنْ وَرَقِ المُصْحَفِ، فَوَاللهِ مَا تَرَكَ فِينَا فَقيراً إِلاَّ أَغْنَاهُ وَلاَ مَدْيُونًا إِلاَّ أَدَّىٰ عَنْهُ دَيْنَهُ، وَكَانَ يَنْظُرُ إِلَيْنَا بِعَيْنٍ أَرَقَّ مِنَ المَاءِ، وَيُكَلِّمُنَا بِكَلامٍ أَحْلَىٰ مِنَ الجَنَىٰ، وَلَقَدْ شَهِدتُّ مِنْهُ مَشْهَداً عَظِيمًا، فَقَدْ تَغَذَّيْنَا يَوْمًا عِنْدَهُ،

(١) الحجرات: ١٣.
(٢) المستطرف في كل فن مستظرف (١/ ٢٥٨) للأبشيهي، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء (١/ ٤٤٠) للأصفهاني.

فَأَقْبَلَ الخَادِمُ بِصَحْفَةٍ فِيهَا طَعَامٌ، فَعَثَرَتْ رِجْلُهُ فِي وِسَادَةٍ، فَوَقَعَتْ الصَّحْفَةُ مِنْ يَده، فَوَاللهِ مَا رَدَّهَا إِلَّا ذَقْنُ الوَلِيدِ، وَانْكَبَّ جَمِيعُ مَا فِيهَا فِي حِجْرِهِ، فَبَقِيَ الغُلَامُ مُتَمَثِّلًا وَاقِفًا مَا مَعَهُ مِنْ رُوحِهِ إِلَّا مَا يُقِيمُ رِجْلَيْهِ، فَقَامَ الوَلِيدُ فَدَخَلَ، فَغَيَّرَ ثِيَابَهُ، وَأَقْبَلَ عَلَيْنَا تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ لِلْغُلَامِ: يَا بَائِسُ مَا أَرَانَا إِلَّا رَوَّعْنَاكَ، اذْهَبْ فَأَنْتَ وَأَوْلَادُكَ أَحْرَارٌ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَىٰ».

- **حُسْنُ الخُلُقِ فِطْرِيٌّ أَوْ مُكْتَسَبٌ؟**

❖ **هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ الخُلُقُ كَسْبِيًا أَوْ هُوَ أَمْرٌ خَارِجٌ عَنِ الكَسْبِ فَهُوَ فِطْرِيٌّ؟**

وَالحَقِيقَةُ أَنَّ فِي حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ جَوَابٌ وَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ ﷺ: «**إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ وَالأَنَاةُ**»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا، أَمِ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: «**بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا**»، قَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَىٰ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ[1].

وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، اصْرِفْ عَنِي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ**»[2].

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ الأَخْلَاقِ مِنْهَا مَا هُوَ جِبِلِّيٌّ جُبِلَ الإِنْسَانُ عَلَيْهِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُكْتَسَبٌ يُمْكِنُ أَنْ يُحَصِّلَهُ العَبْدُ بِمُجَاهَدَةِ النَّفْسِ وَالتَّخَلُّقِ بِالخُلُقِ حَتَّىٰ يَصِيرَ طَابَعًا فِيهِ.

وَفِي الحَدِيثِ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ**»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) عن زارع رضي الله عنه وحسَّنه الشيخ الألباني.
(٢) أخرجه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والترمذي (٣٤٢١، ٣٤٢٢، ٣٤٢٣)، والنسائي (٨٩٧)، وأحمد (١/ ٩٤، ٩٥) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٣٩) عن أبي الدرداء رضي الله عنه. وحسَّنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٢٣٢٨).

وَمِنْ هُنَا كَانَ مِنَ الْمُهِمِّ أَيُّهَا الأَحِبَّةُ: أَنْ يَقِفَ الإِنْسَانُ عَلَىٰ أَخْلاقِ نَفْسِهِ، فَقَدْ يَجِدُ فِيهَا مِنَ الأَخْلاقِ مَا يَكْرَهُ، وَهَنَا عَلَيْهِ أَنْ يُقَوِّمَ مِنْ نَفْسِهِ مَا اعْوَجَّ، وَسَبِيلُ ذَلِكَ الْمُجَاهَدَةُ. قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾[1].

وَمِنْ هُنَا يَقُولُ أَحَدُ الصَّالِحِينَ: «جَاهَدْتُ نَفْسِي عِشْرِينَ سَنَةً حَتَّىٰ اسْتَقَامَتْ لِي».

وَلاَ يَظُنُّ أَحَدٌ أَنَّ الأَخْلاقَ لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَغَيَّرَ أَوْ تَتَبَدَّلَ، وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ، فَمَا هِيَ إِذَنْ قِيمَةُ الْمَوَاعِظِ وَالْوَصَايَا.

إِنَّ النَّاظِرَ لِلأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ قَبْلَ الإِسْلامِ وَبَعْدَهُ، لَيَجِدُ الْعَجَبَ الْعُجَابَ مِنْ تَبْدِيلِ أَخْلاقِهِمْ مِنْ حَيَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ بِظَلامِهَا وَظُلْمِهَا إِلَىٰ حَيَاةِ الإِسْلامِ بِنُورِهِ وَعَدْلِهِ.

وَحُسْنُ الْخُلُقِ لَيْسَ هُوَ مُجَرَّدَ فِعْلِ الْمَكَارِمِ، فَقَدْ يُنْفِقُ الرَّجُلُ الْبَخِيلُ رِيَاءً وَحُبًّا لِلشُّهْرَةِ، وَقَدْ يَتَعَفَّفُ الإِنْسَانُ عَنْ فِعْلٍ مَكْرُوهٍ، وَلَكِنَّ تَعَفُّفَهُ هَـٰذَا لأَجْلِ أَنَّ النَّاسَ تَرَاهُ، فَإِنْ خَلَا بِنَفْسِهِ فَعَلَ مَا اشْتَهَىٰ.

وَلَيْسَ حُسْنُ الْخُلُقِ كَذَلِكَ هُوَ مُجَرَّدَ الْمَعْرِفَةِ بِالأَخْلاقِ الْحَسَنَةِ وَالإِلْمَامِ بِمَكَارِمِ الأَخْلاقِ.

لَكِنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ هُوَ حَالُ النَّفْسِ الإِنْسَانِيَّةِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، فَصَاحِبُ الْخُلُقِ ذو قَلْبٍ نَقِيٍّ تَقِيٍّ لَا يَحْمِلُ لِلنَّاسِ بُغْضًا وَلاَ مَكْرُوهًا، وَلِسَانُهُ عَفِيفٌ إِنْ تَكَلَّمَ، لاَ يَنْطِقُ إِلاَّ بِخَيْرٍ، يُعْرَفُ الإِخْلاصُ فِي وَجْهِهِ، صَاحِبُ الْخُلُقِ الْحَسَنِ إِنْسَانٌ أَحَبَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ، فَأَحَبَّهُ كُلُّ الْخَلْقِ.

وَإِنْ أَرَدْنَا نَمُوذَجًا فَرِيدًا فِي حُسْنِ الْخُلُقِ تُقَاسُ عَلَيْهِ مَكَارِمُ الأَخْلاقِ لَمَا وَجَدْنَا

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

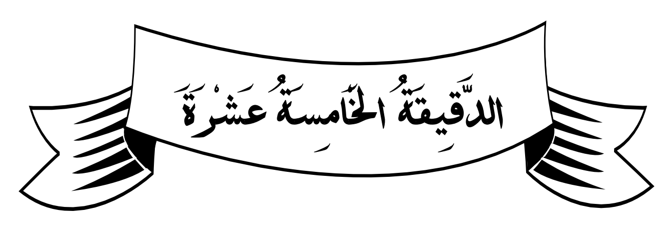
غَيْرَ سَيِّدِ الخَلْقِ ﷺ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي حَقِّهِ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[1]، صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنَ الأَخْلَاقِ أَحْسَنَهَا، وَمِنَ المَكَارِمِ أَفْضَلَهَا.

اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَىٰ الوُقُوفِ عَلَىٰ أَخْطَاءِ أَنْفُسِنَا وَتَقْوِيمِهَا.



(١) القلم: ٤.



الدَّقِيقَةُ الخَامِسَةُ عَشْرَةَ

لاَ تَغْضَبْ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(١).

● **«لاَ تَغْضَبْ» وَصِيَّةٌ نَبَوِيَّةٌ:**

لاَ تَغْضَبْ وَصِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، فَقَدْ أَوْرَدَ البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ**»، فَرَدَّدَ مِرَاراً، قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ**»(٢).

«**لا تَغْضَبْ**» مِقْيَاسُ الرُّجُولَةِ الحَقِيقِيَّةِ، وَمِيزَانٌ مِنْ مَوَازِينِ الثَّبَاتِ، وَسبِيلٌ إِلَىٰ نَيْلِ أَعْلَىٰ الدَّرَجَاتِ، وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ ﷺ: «**مَا تَعدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟**»، قُلْنَا: الَّذِي لاَ يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ، قَالَ ﷺ: «**لَيْسَ بِذَلِكَ وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبْ**»(٣).

وَسُئِلَ عِكْرِمَةُ رضي الله عنه عَنْ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾(٤)، قَالَ: «هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ فَلاَ يَغْلِبُهُ غَضَبُهُ».

---

(١) آل عمران: ١٣٣، ١٣٤.
(٢) أخرجه البخاري (٦١١٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠٨) عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٤) آل عمران: ١٣٩.

• بَيْنَ مُوسَى عليه السلام وإبْلِيس لَعَنَهُ اللَّهُ:

وَقِيلَ: «إنَّ إِبْلِيسَ عَلَيْهِ لَعْنَةُ الله بَدَا لِمُوسَىٰ عليه السلام: فَقَالَ: يَا مُوسَىٰ: إِيَّاكَ والحِدَّةَ؛ فَإِنِّي أَلْعَبُ بِالرَّجُلِ الحَدِيد كَمَا يَلْعَبُ الصِّبْيَانُ بِالْكُرَة، وَإِيَّاكَ وَالنِّسَاءَ؛ فَإِنِّي لَمْ أَنْصِبْ فَخاً قَطُّ، أَثْبَتَ فِي نَفْسِي مِنْ فَخٍّ أَنْصِبُهُ بِامْرَأَةٍ، وَإِيَّاكَ وَالشُّحَّ؛ فَإِنِي أُفْسِدُ عَلَىٰ الشَّحِيحِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ».

وَهَـٰذَا عَبْدُ الله بنُ الْمُبَارَك يُسْأَلُ عَنْ حُسْنِ الخُلُقِ فَيَقُولُ: «اتْرُكِ الغَضَبَ».

• الْغَضَبُ مِفْتَاحُ الشرّ:

وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحٌ كَمَا يَقُولُونَ، فَمِفْتَاحُ الشَّرِّ هُوَ الغَضَبُ؛ لأَنَّ الغَضْبَانَ مُغَيَّبٌ فِكْرُهُ، وَعَلَىٰ عَقْلِهِ غِشَاوَةٌ، لاَ يُهْدَي إِلَىٰ الصَّوَابِ إِلاَّ إِنْ سَكَنَ وَهَدَأَ.

وَلِهَـٰذَا لَمَّا أَرَادَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ أَنْ يُوصِي أَحَدَ عُمَّالِهِ كَتَبَ: لاَ تُعَاقِبْ عِنْدَ غَضَبِكَ، وَإِذَا غَضِبْتَ عَلَىٰ رَجُلٍ فَاحْبِسْهُ، فَإِذَا سَكَنَ غَضَبُكَ، فَأَخْرِجْهُ فَعَاقِبْهُ عَلَىٰ قَدْرِ ذَنْبِهِ.

• وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ:

وَحُكِيَ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ: «أَنَّ غُلامًا لَهُ وَقَفَ يَصُبُّ المَاءَ عَلَىٰ يَدَيْهِ، فَوَقَعَ الإِبْرِيقُ مِنْ يَدِ الغُلامِ فِي الطِّسْت، فَطَارَ الرَّشَاشُ فِي وَجْهِهِ، فَنَظَرَ جَعْفَرٌ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمُغْضَب، فَقَالَ الغُلامُ: يَا مَوْلايَ ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، قَالَ جَعْفَرٌ: قَدْ كَظَمْتُ غَيْظِي، فَقَالَ الغُلامُ: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، فَقَالَ جَعْفَرُ: قَدْ عَفَوْتُ عَنْكَ، فَقَالَ الغُلامُ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، فَقَالَ جَعْفَرٌ رضي الله عنه: اذْهَبْ، فَأَنْتَ حُرٌّ لِوَجْهِ الله.

وَانْظُرُوا إِلَىٰ مِقْيَاسِ الرُّجُولَةِ عِنْدَ الأَحْنَف بنِ قَيْسٍ: يَقُولُ الأَحْنَفُ لابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُؤَاخِيَ رَجُلاً، فَأَغْضِبْهُ فَإِنْ ثَبَتَ، وَإِلاَّ فَاحْذَرْهُ؛ وَلِهَـٰذَا يَقُولُ

الشّاعِرُ:

مَنْ يَدَّعِي الحِلْمَ أَغْضِبْهُ لِتَعْرِفَـهُ ... لاَ يُعْرَفُ الحِلْمُ إِلاَّ سَاعَةَ الغَضَبِ

• **الْغَضَبُ ظَاهِرَةٌ بَشَرِيَّةٌ:**

الغَضَبُ يُعْتَبَرُ ظَاهِرَةً بَشَرِيَّةً، لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُ نَصِيبٌ، وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ فِي غَضَبِهِمْ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْضَبُ لأَتْفَهِ الأُمُورِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ لاَ يَغْضَبُ إِطْلاقًا وَهَـٰذَا مَذْمُومٌ.

يَقُولُ أَبُو حَامِدٍ الغَزَّالِي: «النَّاسُ فِي الغَضَبِ عَلَىٰ دَرَجَاتٍ ثَلاثٍ بَيْنَ التَّفْرِيطِ وَالإِفْرَاطِ والاعْتِدَالِ.

أَمَّا التَّفْرِيطُ: فَهُوَ مَنْ لاَ يَغْضَبُ أَبَدًا، وَذَلِكَ مَذْمُومٌ وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ: إِنَّه لاَ حَمِيَّةَ لَهُ.

أَمَّا الإِفْرَاطُ: فَهُوَ حَالُ مَنْ يَتَغَلَّبُ عَلَيْهِ غَضَبُهُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ مِنْ سِيَاسَةِ العَقْلِ والدِّينِ وَلاَ يَبْقَىٰ مَعَهُ بَصِيرَةٌ وَلاَ فِكْرٌ.

أَمَّا الاعْتِدَالُ: فَهُوَ الوَسَطُ الحَقُّ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ».

وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّ الغَضَبَ المَحْمُودَ هُوَ أَنْ يَكُونَ الغَضَبُ للهِ تَعَالَىٰ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «**وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ، إِلاَّ أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمُ بِهَا لِلَّهِ**»[١].

وَقَالَ عَلِيٌّ رضي الله عنه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لاَ يَغْضَبُ لِلدُّنْيَا، فَإِذَا أَغْضَبَهُ الحَقُّ، لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ، وَلَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَنْتَصِرَ لَهُ».

فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَغْضَبُ وَلَكِنْ يَغْضَبُ لِلْحَقِّ، وَإِنْ تَعَلَّقَ الأَمْرُ بِشَخْصِهِ الكَرِيمِ، فَالعَفْوُ عُنْوَانُهُ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٢٦)، ومسلم (٢٣٢٧) عن عائشة رضي الله عنها.

• **الْغَضَبُ وَآثَارٌ وَخِيمَةٌ:**

قُلْنَا: إِنَّ الغَضَبَ بَابٌ عَظِيمٌ لِكُلِّ شَرٍّ، وَأَدَاةٌ مُحَرِّكَةٌ لِكُلِّ آفَةٍ، وَمَبْدَأُ كُلِّ مَكْرُوه.

لأَنَّ آثَارَ الغَضَبِ عَلَىٰ اللِّسَانِ كَثِيرَةٌ، فَعَلَىٰ سَبِيلِ المَثَالِ؛ السَّبُّ وَالشَّتْمُ وَالفُحْشُ فِي الكَلامِ، وَكُلُّ هَـٰذِه آفَاتٌ لاَ تَجْتَمِعُ فِي مُسْلِمٍ أَبَدًا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ وَلاَ بِلَعَّانٍ وَلاَ الْفَاحِشِ الْبَذِيءِ**»[1].

وَأَمَّا آثَارُ الغَضَبِ عَلَى الأَعْضَاءِ: فَقَدْ يَكُونُ بِالضَّرْبِ وَقَدْ تَصِلُ إِلَىٰ القَتْلِ الَّذِي يَسْتَوْجِبُ حَدًّا مِنْ حُدُودِ الله تَعَالَىٰ.

وَأَمَّا آثَارُهُ عَلَى القَلْبِ: فالحِقْدُ وَالحَسَدُ، وَإِضْمَارُ السُّوءِ وَالشَّمَاتَةِ.

وَكُلُّ هَـٰذِه الآثَارِ حَذَّرَ الإِسْلامُ مِنْهَا، وَشَدَّدَ عَلَىٰ ضَرُورَةِ مُعَالَجَتِهَا، وَوَضَعَ كُلَّ الوَسَائِلِ الْمُمْكِنَةِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهَا إِنْ وُجِدَتْ فِي الشَّخْصِ، أَوْ نَمَتْ فِيهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْرِي، ثُمَّ تَعَاظَمَ نُمُوُّهَا فَاكْتَشَفَ أَنَّهُ صَارَ يَغْضَبُ لأَتْفَهِ الأُمُورِ، وَصَارَ مِنَ الصُّعُوبَةِ أَنْ يَمْلِكَ نَفْسَهُ عِنْدَمَا يَغْضَبُ، فَعَلَيْهِ فِي هَـٰذِه الحَالَةِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ عِلاجِهِ، وَمِنْ فَضْلِ الله أَنَّ بُسْتَانَ النُّبُوَّةِ فِيهِ العِلاجُ الشَّافِي وَالكَافِي وَالْمُتَنَوِّعُ.

• **الْغَضَبُ وَطُرُقُ الْمُعَالَجَةِ:**

إِنْ كَانَ الغَضَبُ أَشْبَهَ بِشُعْلَةِ نَارٍ، لاَ يَكْفِيهَا حَطَبُ الدُّنْيَا كُلُّهُ، فَإِنَّ غَرْفَةَ مَاءٍ مِنْ بَحْرِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ يُطْفِئُهَا.

فَقَدْ وَرَدَتْ فِي السُّنَّةِ طُرُقٌ وَوَسَائِلُ لِعِلاجِ الغَضَبِ الْمَذْمُومِ وَالقَضَاءِ عَلَيْهِ مِنْهَا:

أَولاً: أَنْ يَضَعَ أَمَامَ عَيْنَيْهِ فَضِيلَةَ كَظْمِ الغَيْظِ وَأَنْ يَسْتَشْعِرَ ثَوَابَ الكَاظِمِينَ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٧٧)، وأحمد (١/ ٤٠٤، ٤٠٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن غريب»، وصححه الألباني.

الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .

فَفِي الصَّحِيحِ : عَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ ﷺ : «**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ**»(١) .

ثَانِيًا: أَنْ يَسْتَحْضِرَ عِنْدَمَا يَغْضَبُ وَيَثُورُ غَضَبَ اللهُ تَعَالَىٰ وَقُوَّتَهُ عَلَيْهِ ؛ وَلِهَـٰذَا قِيلَ : إِذَا دَعَتْكَ قُدْرَتُكَ عَلَىٰ ظُلْمِ النَّاسِ فَتَذَكَّرْ قُدْرَةَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْكَ ، وَلِيَتَذَكَّرْ أَنَّ غَضَبَهُ قَدْ يَدْعُوهُ إِلَىٰ الظُّلْمِ ، فَلْيَتَّقِ إِذَنْ دَعْوَةَ المَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (٢) .

ثَالِثًا: أَن يُطَبِّقَ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ بِوَسَائِلِهَا الفَوْرِيَّةِ السَّرِيعَةِ عِنْدَ الغَضَبِ ، وَمِنْهَا : الجُلُوسُ إِنْ كَانَ وَاقِفًا ، وَالاضْطِجَاعُ إِنْ كَانَ جَالِسًا ، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَمِّ الْغَضَبِ وَصِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ لأَبِي ذَرٍّ : إِذَا غَضِبْتَ ، فَإِنْ كُنْتَ قَائِمًا فَاقْعُدْ ، وَإِنْ كُنْتَ قَاعِدًا فَاتَّكِئْ ، وَإِنْ كُنْتَ مُتَّكِئًا فَاضْطَجِعْ(٣) .

وَمِنْهَا الوُضُوءُ كَمَا رَوَىٰ أَبُو وَائِلٍ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ عُرْوَةَ بنِ مُحَمَّدٍ ، فَكَلَّمَهُ رَجُلٌ بِكَلامٍ فَغَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا ، فَقَامَ وَتَوَضَّأَ ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي عَطِيَّةَ ـ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ ـ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**إِنَّ الغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ**»(٤) .

• **الحِلْمُ:**

وَرَدَ فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لأَشَجِّ عَبْدِ القَيْسِ : «**إِنَّ فِيكَ**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١ ، ٢٤٩٣)، وابن ماجه (٤١٨٦) عن معاذ بن أنس رضي الله عنه . وحسَّنه الشيخ الألباني .

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٨)، ومسلم (١٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) عزاه الحافظ العراقي في تعليقه على إحياء علوم الدين (٣/ ١٧٥) ط . دار المعرفة : «لابن أبي الدنيا في العفو وذم الغضب بإسناد صحيح» .

(٤) أبو داود (٤٧٨٤)، وأحمد (٤/ ٢٢٦) عن عطية العوفي ، وضعفه الشيخ الألباني .

خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ وَالأَنَاةُ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَخَلَّقُ بِهِمَا، أَمِ اللهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: «**بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا**»، قَالَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَىٰ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ»(١).

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: زَيْنُ العِلْمِ حِلْمُ أَهْلِه، وَقَالَ رَجَاءُ بنُ أَبِي سَلَمَةَ: الحِلْمُ أَرْفَعُ مِنَ العَقْلِ؛ لأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ تَسَمَّىٰ بِهِ، فَاللهُ تَعَالَىٰ هُوَ الحَلِيمُ.

وَتَعَجَّبَ النَّاسُ مِنْ حِلْمِ الأَحْنَفِ بنِ قَيْسٍ فَسَأَلُوهُ عَنْ حِلْمِهِ، فَقَالَ: إِنِّي لأَجِدُ مَا يَجِدُونَ ـ أَيْ: مِنَ الغَضَبِ ـ وَلَكِنِّي صَبُورٌ.

وَهَـٰذَا عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ رضي الله عنه يَقُولُ: «مَا قُرِنَ شَيءٌ إِلَىٰ شَيءٍ أَحْسَنُ مِنْ حِلْمٍ إِلَىٰ عِلْمٍ وَمِنْ عَفْوٍ إِلَىٰ قُدْرَةٍ».

وَقَالَ أَبُو العَتَاهِيَةِ:

فَيَا رَبِّ هَبْ لِي مِنْكَ حِلْمًا فَإِنَّنِي ... أَرَى الحِلْمَ لَمْ يَنْدَمْ عَلَيْهِ حَلِيمُ

وَيَا رَبِّ هَبْ لِي مِنْكَ عَزْمًا عَلَى التُّقَى ... أُقِيمُ بِهِ مَا عِشْتُ حَيْثُ أُقِيمُ

أَلاَ إِنَّ تَقْوَى اللهِ أَكْرَمُ نِسْبَةٍ ... تَسَامَى بِهَا عِنْدَ الفَخَارِ كَرِيمُ

- **مَوَاقِفُ وَطَرَائِفُ:**

وَفِي حَيَاةِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ مَوَاقِفُ كَثِيرَةٌ تَدلُّ عَلَىٰ كَرِيمِ عَفْوِهِمْ وَكَظْمِهِمْ لِغَيْظِهِمْ وَمَلْكِهِمْ لأَنْفُسِهِمْ عِنْدَ الغَضَبِ، وَمِثْلُ هَـٰذِهِ المَوَاقِفِ تَدْعُو الإِنْسَانَ إِلَىٰ أَنْ يُعِيدَ حِسَابَاتِ نَفْسِهِ وَأَنْ يَتَمَثَّلَ هَـٰذِهِ المَوَاقِفَ.

وَمِنْ هَـٰذِهِ المَوَاقِفِ مَا رُوِيَ أَنَّ رَجُلاً أَسْمَعَ مُعَاوِيَةَ كَلامًا شَدِيدًا فَقِيلَ لَهُ: لَوْ عَاقَبْتَهُ؟ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: «وَاللهِ إِنِّي لأَسْتَحِي أَنْ يَضِيقَ حِلْمِي عَنْ ذَنْبِ أَحَدٍ مِنْ رَعِيَّتِي».

---

(١) سبق تخريجه.

وَجَاءَ غُلَامٌ لأَبِي ذَرٍّ وَقَدْ كَسرَ رِجْلَ شَاةٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو ذَرٍّ: مَنْ كَسرَ رِجْلَ هَـٰذِه الشَّاة؟ فَقَالَ الغُلامُ: أَنَا فَعَلْتُهُ عَمدًا لأَغِيظَكَ فَتَضْرِبَنِي فَتَأْثَمَ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: لأَغِيظَنَّ مَنْ حَرَّضَكَ عَلَىٰ غَيْظِي، فَأَعْتَقَهُ.

وَهَـٰذَا عَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ تَعَرَّضَ لَهُ أَحَدُ السُّفَهَاءِ بِالشَّتْمِ، وَعَدِيٌّ سَاكِتٌ، فَلَمَّا فَرَغَ السَّفِيهُ مِنْ شَتْمِه إِيَّاهُ قَالَ لَهُ عَدِيٌّ: إِنْ كَانَ بَقِيَ عِنْدَكَ شَيءٌ، فَقُلْهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِي شَبَابُ هَـٰذَا الحَيِّ، فَإِنَّهُمْ إِنْ سَمِعُوكَ تَقُولُ هَـٰذَا لِسَيِّدِهِمْ لَمْ يَرْضَوا.

وَمِنَ النَّوادِرِ فِي هَـٰذَا: أَنَّ الأَحْنَفَ بنَ قَيْسٍ جَاءَهُ رَجُلٌ فَلَطَمَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ الأَحْنَفِ وَكَادَ الغَضَبُ يُنْسِيهِ حِلْمَهُ، لَكِنَّهُ كَظَمَ غَيْظَهُ وَقَالَ لِهَـٰذَا السَّفِيهِ: مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَىٰ هَـٰذَا يَا بْنَ أَخِي؟

فَقَالَ لَهُ السَّفِيهُ: أَقْسَمْتُ أَنْ أَضْرِبَ سَيِّدَ هَـٰذِهِ القَبِيلَةِ.

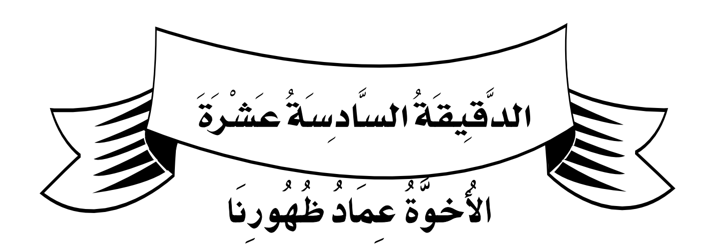
فَقَالَ لَهُ الأَحْنَفُ: إِذَنْ أَنْتَ لَمْ تُبِرَّ بِقَسَمِكَ، فَلَسْتُ بِسَيِّدِ القَوْمِ، وَإِنَّمَا سَيِّدُهُمْ فُلانٌ وَأَشَارَ إِلىٰ رَجُلٍ آخرَ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ السَّفِيهُ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، فَأَخْرَجَ الرَّجُلُ سَيْفَهُ وَقَطَعَ يَدَ السَّفِيهِ.

وَهُنَا قَالَ السَّفِيهُ: وَاللهِ لَقَدْ قَطَعَ الأَحْنَفُ يَدِي بِحِلْمِهِ وَذَكَائِهِ.

الغَضَبُ بَابٌ عَظِيمٌ لِلشَّرِّ، وَعِلاجُهُ فِي السُّنَّةِ، فَلاَ تَغْضَبْ؛ وَصِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلأُمَّةِ جَمِيعِهَا.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا الحِلْمَ، وارْزُقْنَا العَفْوَ عِنْدَ الغَضَبِ، وَارْزُقْنَا الرِّضَا بِقَضَائِكَ، وَالصَّبْرَ عَلَىٰ بَلائِكَ.





الأُخُوَّةُ عِمَادُ ظُهُورِنَا

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾(١).

إِنَّ الأُخُوَّةَ خَيْرُ رَابِطَةٍ تَرْبِطُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَهِيَ الرَّابِطَةُ الَّتِي لَا تَنْقَطِعُ، وَطَرِيقُ سَعَادَةِ الْبَشَرِيَّةِ، تَصَوَّرْ مُجْتَمَعًا يَرَىٰ كُلُّ فَرْدٍ فِيهِ أَنَّهُ أَخٌ لِلْآخَرِ، فَيُعْطِيهِ مَا عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَ مَا لَهُ.

يَقُولُ الْمَعْصُومُ ﷺ: «**لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**»(٢).

قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - وَرَضِيَ عَنْهُ: «مَنْ صَدَقَ فِي أُخُوَّةِ أَخِيهِ: قَبِلَ عِلَلَهُ وَسَتَرَ خَلَلَهُ وَعَفَا عَنْ زَلَلِهِ».

- **الأُخُوَّةُ وَعَثَرَاتُ اللِّسَانِ:**

وَالْمُسْلِمُ لَا يَقِفُ عِنْدَ أَخْطَاءِ الْآخَرِينَ بَلْ يُرَدِّدُ:

فَلَا كَانَ وَلَا صَارَ وَلَا قُلْتُمْ وَلَا قُلْنَا ... مِنَ الْيَوْمِ تَعَارَفْنَا وَنَطْوِي مَا جَرَى مِنَّا

وَلَا سَمِعَ الْوَاشِي بِذَاكَ وَلَا حَرَى ... تَعَالَوْا بِنَا نَطْوِي الْحَدِيثَ الَّذِي جَرَى

وَلِهَـٰذَا قَالَ ابْنُ السَّمَّاكِ لِصَدِيقِهِ الَّذِي قَالَ لَهُ: «الْمِيعَادُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ غَدًا نَتَعَاتَبُ»، فَقَالَ لَهُ ابْنُ السَّمَّاكِ: «بَلِ الْمِيعَادُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ غَدًا نَتَغَافَرُ».

---

(١) الأنفال: ٦٣.

(٢) أخرجه مسلم (٥٤)، وأبو داود (٥١٩٣)، والترمذي (٢٦٨٨)، وابن ماجه (٦٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بنُ سُلَيْمَانَ: «دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَىٰ الشَّافِعِيِّ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقُلْتُ لَهُ: قَوَّىٰ اللهُ ضَعْفَكَ، فَقَالَ لِي: لَوْ قَوَّىٰ اللهُ ضَعْفِي، قَتَلَنِي. فَقُلْتُ: وَاللهِ مَا أَرَدْتُ إِلَّا الْخَيْرَ، فَقَالَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ: أَعْلَمُ يَا رَبِيعُ، أَنَّكَ لَوْ شَتَمْتَنِي لَمْ تُرِدْ إِلَّا الْخَيْرَ».

فَهَـٰذَا سُلُوكُ مَنْ عَرَفَ الأُخُوَّةَ وَعَاشَهَا، وَعَرَفَ زَلَّاتِ اللِّسَانِ وَهَفَوَاتِ النَّفْسِ، وَعَرَفَ مَعْنَىٰ التَّغَافُرِ وَالتَّسَامُحِ وَالْعَفْوِ عَنِ الآخَرِينَ حَتَّىٰ وَإِنْ قَصَدُوا، فَمَا الْبَالُ إِنْ كَانُوا أَسَاؤُوا التَّعْبِيرَ أَوْ خَانَهُم الْقَصْدُ؟!

وَفِي الأَثَرِ: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلأَحْنَفِ بنِ قَيْسٍ: «وَاللهِ لَئِنْ قُلْتَ وَاحِدَةً لَتَسْمَعَنَّ عَشْرَةً، فَقَالَ الأَحْنَفُ: لَكِنَّكَ إِنْ قُلْتَ عَشْرًا، لَمْ تَسْمَعْ مِنِّي وَاحِدَةً».

وَهَـٰذَا مَوْقِفٌ آخَرُ يَقِفُنَا عَلَىٰ قُوَّةِ الرَّابِطَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَأَخِيهِ، وَأَنَّ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَظِيمَةٌ، وَيَصْعُبُ التَّفْرِيطُ فِيهَا:

قَالَ سُفْيَانُ بنُ الْحُسَيْنِيِّ: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ إِيَاسِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، فَنِلْتُ مِنْ إِنْسَانٍ، فَقَالَ لِي إِيَاسُ بنُ مُعَاوِيَةَ: مَهْلاً يَا أَخِي، هَلْ غَزَوْتَ الرُّومَ؟ فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: هَلْ غَزَوْتَ الْفُرْسَ؟ فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ: يَا أَخِي، سَلِمَتْ مِنْكَ الرُّومُ وَسَلِمَتْ مِنْكَ الْفُرْسُ وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْكَ أَخُوكَ الْمُسْلِمُ، قَالَ سُفْيَانُ: فَوَاللهِ مَا اغْتَبْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَحَدًا.

فَلِلْمُسْلِمِ حُرْمَةٌ، وَأَوْلَىٰ النَّاسِ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْحُرْمَةِ هُوَ أَخُوهُ الْمُسْلِمُ الَّذِي تَرْبِطُهُ بِهِ عَلَاقَةُ وَصِلَةُ الإِسْلَامِ.

- **مَوَاقِفُ نَادِرَةٌ:**

مِنْ لَوَازِمِ الأُخُوَّةِ: الإِيْثَارُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي مُجْتَمَعِ الصَّحَابَةِ وَالصَّدْرِ الأَوَّلِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾(١).

(١) الحشر: ٩.

وَهَـٰذَا مَوْقِفٌ يَدُلُّ عَلَىٰ بُلُوغِ مَعْنَىٰ الإِيْثَارِ إِلَىٰ حَدٍّ عَجِيبٍ: رُوِيَ أَنَّهُ أُهْدِيَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم رَأْسُ شَاةٍ، فَقَالَ: إِنَّ أَخِي فُلَانًا أَحْوَجُ بِهَا مِنِّي، فَبَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَىٰ الثَّانِي، قَبِلَهَا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ أَخِي فُلَانًا أَحْوَجُ بِهَا مِنِّي، ثُمَّ بَعَثَهَا إِلَيْهِ . . . وَهَـٰكَذَا، حَتَّىٰ تَدَاوَلَ هَـٰذِهِ الرَّأْسَ سَبْعَةُ رِجَالٍ، ثُمَّ فِي النِّهَايَةِ وَصَلَتْ إِلَىٰ الأَوَّلِ.

لَعَلَّ هَـٰذَا فِي زَمَنِ احْتِيَاجٍ شَدِيدٍ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: «إِنَّ أَخِي فُلَانًا أَحْوَجُ بِهَا مِنِّي»، وَحِينَمَا تُقَارِنُ هَـٰذِهِ الصُّورَةَ بِصُورَةِ النَّاسِ الْيَوْمَ فِي حَالَةِ إِعْلَانِ الْحَرْبِ أَوْ أَيِّ ضَرَرٍ، نَجِدُ فَارِقًا كَبِيرًا، فَالنَّاسُ يُسَارِعُونَ فِي تَخْزِينِ مَا يَنْفَعُهُمْ أَيَّامًا ـ وَرُبَّمَا شُهُورًا وَسِنِينَ ـ، حَتَّىٰ وَإِنْ أَدَّىٰ هَـٰذَا الْمَسْلَكُ إِلَىٰ ارْتِفَاعِ الأَسْعَارِ أَوْ مَوْتِ الْفُقَرَاءِ، فَأَحْيَانًا يَكُونُ شِعَارُ الْبَعْضِ: «نَفْسِي، نَفْسِي». وَهَـٰذَا الْمَسْلَكُ لا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ الَّذِي أَتَاهُ التَّوْجِيهُ النَّبَوِيُّ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(١)، وَقَوْلُهُ ﷺ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً؛ فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٢).

● أُخُوَّةٌ صَادِقَةٌ:

كَانَ لأَبِي حَمْدُونَ صَحِيفَةٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا أَسْمَاءُ ثَلَاثِمَائَةٍ مِن أَصْدِقَائِهِ وَإِخْوَانِهِ، وَكَانَ يَدْعُو لَهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ، فَتَرَكَهُمْ لَيْلَةً فَنَامَ، فَقِيلَ لَهُ فِي مَنَامِهِ: يَا أَبَا حَمْدُونَ، لَمْ تُسْرِجْ مَصَابِيحَكَ اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: فَقَعَدَ وَأَسْرَجَ مِصْبَاحَهُ وَأَخَذَ يَدْعُو لَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، حَتَّىٰ فَرَغَ مِن الصَّحِيفَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) عن أنس رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

مِثْلُ هَـٰذِهِ، أُخُوَّةٌ صَادِقَةٌ، لَا يَحُولُ بَيْنَهَا شُغْلٌ أَوْ تَعَبٌ أَوْ نَوْمٌ، فَلِإِخْوَانِهِ حَقٌّ عَلَيْهِ، لَا يُمْكِنُ التَّفْرِيطُ فِيهِ، وَإِنْ كَانَ أَبْسَطَ هَـٰذِهِ الْحُقُوقِ هُوَ الدُّعَاءُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ.

يَقُولُ التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ مَالِكُ بنُ دِينَارٍ ـ رَحِمَهُ اللهُ: «لَمْ يَبْقَ مِن رُوحِ الدُّنْيَا إِلَّا ثَلَاثَةٌ:

- لِقَاءُ الإِخْوَانِ.
- وَالتَّهَجُّدُ بِالْقُرْآنِ.
- وَبَيْتٌ خَالٍ يُذْكَرُ اللهُ تَعَالَىٰ فِيهِ».

فَانْظُرْ ـ أَخِي ـ كَيْفَ عَبَّرَ هَـٰذَا التَّابِعِيُّ الْجَلِيلُ، وَجَعَلَ الأُخُوَّةَ هِيَ رُوحَ الدُّنْيَا؟! وَالشَّيْءُ بِرُوحِهِ، وَلَا قِيمَةَ لِلْجَسَدِ دُونَ رُوحٍ، كَذَلِكَ فَإِنَّهُ لَا قِيمَةَ لِلْحَيَاةِ بِدُونِ أُخُوَّةٍ صَادِقَةٍ.

رُوِيَ أَنَّ رَجُلاً كَانَتْ لَهُ شَجَرَةُ عِنَبٍ، وَكَانَ يُعْطِي مِنْهَا لأخٍ مِن إِخْوَانِهِ، كُلَّمَا مَرَّ مِنْ أَمَامِ مَنْزِلِهِ، وَذَاتَ مَرَّةٍ أَعْطَاهُ عُنْقُودًا، فَشَرَعَ صَدِيقُهُ فِي أَكْلِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَىٰ مُنْتَصَفِهِ، تَذَكَّرَ الأَخُ الْمُعْطِي قَوْلَ زَوْجَتِهِ: «إِنَّ مِنْ إِكْرَامِ الضَّيْفِ، مُشَارَكَتَهُ طَعَامَهُ»، فَمَدَّ يَدَهُ لِيُشَارِكَهُ الْعِنَبَ، فَأَكَلَ، فَإِذَا طَعْمُ الْعِنَبِ شَدِيدُ الْمَرَارَةِ، فَتَعَجَّبَ وَقَالَ: لأَخِيهِ: لِمَاذَا سَكَتَّ وَأَكَلْتَ عَلَىٰ الرَّغْمِ مِن مَرَارَتِهِ؟ فَأَجَابَهُ صَدِيقُهُ قَائِلاً: «فَوَّتُّ هَـٰذِهِ مِنْ أَجْلِ مَا أَعْطَيْتَنِي مِنْ قَبْلُ مِنْ حُلْوِ الْعِنَبِ».

• الأُخُوَّةُ وَتَصَيُّدُ الْعُيُوبِ:

تَصَيُّدُ الأَخْطَاءِ وَالْعُيُوبِ، إِحْدَىٰ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ فِي نُفُوسِ الإِخْوَانِ، فَيَظَلُّ الشَّيْطَانُ يُوهِمُ الإِنْسَانَ أَنَّ ذَلِكَ مِن النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيُولَعُ الْمُسْلِمُ بِذَلِكَ، فَمَا

إنْ يَرَىٰ عَيْبًا فِي أخٍ مِن إخْوَانِه حَتَّىٰ يُذِيعَهُ وَيُشْهِرَهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَجِدُهُ يَتَرَصَّدُ كَلِمَاتِهُ وَيَنْتَظِرُ سَقَطَاتِهُ وَكَأَنَّ كُلَّ هَمِّهِ هُو الْبَحْثُ عَن عَثَرَاتِ الإِخْوَانِ. مَعَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «**يُبْصِرُ أَحَدُكُمُ الْقَذَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَيَنْسَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِهِ**»[١].

وَقَالَ الإِمَامُ الْحَافِظُ ابنُ حِبَّانَ: «الْوَاجِبُ عَلَىٰ الْعَاقِلِ، لُزُومُ السَّلَامَةِ بِتَرْكِ التَّجَسُّسِ عَلَىٰ عُيُوبِ النَّاسِ مَعَ الاشْتِغَالِ بِإصْلَاحِ عُيُوبِ النَّفْسِ، فَإِنَّ مَنِ اشْتَغَلَ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ عَن عُيُوبِ النَّاسِ أراحَ بَدَنَهُ، وَلَمْ يُتْعِبْ قَلْبَهُ، فَكُلَّمَا اطَّلَعَ عَلَىٰ عَيْبِ نَفْسِهِ، هَانَ عَلَيْهِ مَا يَرَىٰ مِثْلَهُ مِنْ أَخِيهِ، وَمَنِ اشْتَغَلَ بِعُيُوبِ النَّاسِ عَنْ عُيُوبِ نَفْسِهِ، عَمِيَ قَلْبُهُ وَتَعِبَ بَدَنُهُ، وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ تَرْكُ عُيُوبِ نَفْسِهِ، وَمِنْ أَعْجَزِ النَّاسِ مَنْ عَابَ النَّاسَ بِمَا فِيهِمْ، وَأَعْجَزُ مِنْهُ مَنْ عَابَهُمْ بِمَا فِيهِ، مَنْ عَابَ النَّاسَ عَابُوهُ»:

إِذَا أَنْتَ عِبْتَ النَّاسَ عَابُوا وَأَكْثَرُوا ... عَلَيْكَ وَأَبْدَوا مِنْكَ مَا كَانَ يُسْتَرُ
وَقَدْ قَالَ فِي بَعْضِ الأَقَاوِيلِ قَائِلٌ ... لَهُ مَنْطِقٌ فِيهِ كَلَامٌ مُحَبَّرُ
إِذَا مَا ذَكَرْتَ النَّاسَ فَاتْرُكْ عُيُوبَهُمْ ... فَلَا عَيْبَ إِلَّا دُونَ مَا مِنْكَ يُذْكَرُ
مَتَى تَلْتَمِسْ لِلنَّاسِ عَيْبًا تَجِدْ لَهُمْ ... عُيُوبًا وَلَكِنَّ الَّذِي فِيكَ أَكْثَرُ
فَسَالِمْهُمْ بِالْكَفِّ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ ... بِعَيْبِكَ مِنْ عَيْنَيْكَ أَهْدَى وَأَبْصَرُ

إنَّ مُجْتَمَعًا سَادَتِ الأُخُوَّةُ بَيْنَ أَفْرَادِهِ مُجْتَمَعٌ قَوِيٌّ، لَا يُخْشَىٰ عَلَيْهِ، وَمِنْ مَبَادِئِ الأُخُوَّةِ: أَنْ تَكُونَ للهِ لَا لِشَيْءٍ آخَرَ، فَمَا كَانَ للهِ دَامَ وَاتَّصَلَ، وَمَا كَانَ لِغَيْرِ اللهِ انْقَطَعَ وَانْفَصَلَ.

فَفِي الحَدِيثِ: «**وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ**»[٢]، وَفِي آخَرَ: «**مَنْ سَرَّهُ**

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه موقوفًا، وابن حبان في صحيحه (٥٧٦١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وقال الألباني: «صحيح موقوفًا».
(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦)، ومسلم في الإيمان (٤٣) عن أنس رضي الله عنه.

أَنْ يَجِدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ فَلْيُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للَّه»[١]، وَفِي الحَدِيث أَيْضًا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا تَحَابَّ اثْنَانِ فِي الله إِلاَّ كَانَ أَفْضَلَهُمَا أَشَدُّهُمَا حُبًا لِصَاحِبِه**»[٢]، قَالَ ﷺ: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِه**»[٣].

وَلَقَدْ تَطَوَّرَ هَـٰذَا المَعْنَىٰ عِنْدَ أَحَدِ الصَّالحِينَ وَهُوَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ فَقَالَ: «إِنِّي لأُطْعِمُ اللُّقْمَةَ أَخًا مِنْ إِخْوَانِي فِي الله، فَأَجِدُ طَعْمَهَا فِي حَلْقِي».

إِنَّ الْحُبَّ فِي الله بَيْنَ الإِخْوَانِ بَاقَةٌ حُلْوَةٌ، وَمَطِيَّةٌ ذَلُولٌ، وَرَسُولٌ كَرِيمٌ يَشْرَحُ الصُّدُورَ، وَيُزِيلُ الْجَفَاءَ مِنَ النُّفُوسِ.

وَفِي الْحَدِيث يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّه، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[٤].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلِّي**»[٥].

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ**»[٦].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنَّ رَجُلا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٨)، والحاكم في المستدرك (١/ ٤، ٥، ٤/ ١٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٠١٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الحاكم: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٠): «رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات»، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٤)، وابن حبان في صحيحه (٥٦٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٩٤).

(٣، ٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الترمذي (٢٣٩٠) وقال: «حديث حسن صحيح»، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. وصححه الشيخ الألباني.

تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»(١).

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَاعْقِلُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبَادًا لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ**»، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَعْرَابِ مِنْ قَاصِيَةِ النَّاسِ وَأَلْوَىٰ بِيَدِهِ إِلَىٰ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، نَاسٌ مِنَ النَّاسِ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَىٰ مَجَالِسِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ انْعَتْهُمْ لَنَا -يَعْنِي: صِفْهُمْ لَنَا- فَسُرَّ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِسُؤَالِ الأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هُمْ نَاسٌ مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ وَنَوَازِعِ الْقَبَائِلِ لَمْ تَصِلْ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبَةٌ تَحَابُّوا فِي اللَّهِ وَتَصَافَوْا يَضَعُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فَيُجْلِسُهُمْ عَلَيْهَا، فَيَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ نُورًا وَثِيَابَهُمْ نُورًا يَفْزَعُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يَفْزَعُونَ، وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**»(٢).

وَهَٰذِهِ الْمَحَبَّةُ فِي الله، جَعَلَهَا اللهُ شَرْطًا مِن شُرُوطِ الإِيْمَانِ وَمُتَعَلِّقًا بِهِ، وَبِالتَّالِي فَهِيَ شَرْطٌ مِن شُرُوطِ دُخُولِ الْجَنَّةِ.

وَمِنَ اللَّطَائِفِ فِي ذَلِكَ: أَنَّ الْمُسْلِمَ إِنْ وَجَدَ فِي قَلْبِهِ حُبًّا لأَخٍ لَهُ فِي الله، فَلْيُعْلِمْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ، فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ**»(٣).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي لأُحِبُّ هَٰذَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعْلَمْتَهُ؟**»، فَقَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٢٩٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٣) عن أبي مالك الأشعري، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٦، ٢٧٧): «رواه كله أحمد والطبراني بنحوه... ورجاله وثقوا»، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٠٢٧): «صحيح لغيره».

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٢٤)، والترمذي (٢٣٩٢)، عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه، وصححه الألباني.

لَا، قَالَ ﷺ: «**أعلِمه**»، فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إنِّي أُحِبُّكَ فِي اللهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: أحَبَّكَ الَّذِي أحْبَبْتَنِي لَهُ(١).

مِنْ هُنَا نَعْلَمُ أنَّ الْـمُسْلِمَ الْحَقَّ يُحِبُّ كُلَّ النَّاسِ عَلَىٰ اخْتِلَافِهِمْ، وَلَا يُبْغِضُ أحَدًا لِذَاتِهِ، وَإذَا أبْغَضَ فَإنَّمَا يُبْغِضُ بِسَبَبِ الأعْمَالِ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللهُ تَعَالَىٰ، وَيُبْغِضُهَا أَهْلُ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، فَمِنَ الأعْمَالِ: أَعْمَالُ بِرٍّ وَفَضْلٍ، وَمِنَ الأَعْمَالِ: أعْمَالُ سُوءٍ وَشَرٍّ، وَعَلَىٰ الْـمُسْلِمِ إنْ أحَبَّ، أنْ يُحِبَّ للهِ، وإنْ أبْغَضَ، فَلْيُبْغِضْ للهِ أيْضًا، فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»(٢).

وَمِنْ حُقُوقِ الأُخُوَّةِ أَيْضًا التَّنَاصُحُ، فَقَدْ قَالَ ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قُلْنَا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(٣).

وَقَالَ عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ: «مَنْ وَصَلَ أَخَاهُ بِنَصِيحَةٍ لَهُ فِي دِينِهِ وَنَظَرَ لَهُ فِي صَلاحِ دُنْيَا فَقَدْ أَحْسَنَ صِلَتَهُ وَأَدَّىٰ وَاجِبَ حَقِّهِ».

وَقَالَ الحَارِثُ المُحَاسَبِيُّ: «اعْلَمْ أَنَّ مَنْ نَصَحَكَ، فَقَدْ أَحَبَّكَ، وَمَنْ دَاهَنَكَ فَقَدْ غَشَّكَ، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ نَصِيحَتَكَ فَلَيْسَ بِأَخٍ لَكَ».

كَمَا أَنَّ مِنْ حُقُوقِ الأُخُوَّةِ عَدَمَ المُجَامَلَةِ عَلَىٰ حِسَابِ الحَقِّ، فَمَنْ جَامَلَ أَخَاهُ عَلَىٰ حِسَابِ الحَقِّ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ عَيْنُ ظُلْمِهِ، أَيُجَامِلُهُ فِي الدُّنْيَا وَيُورِدُهُ المَوارِدَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!

وَفِي الحِكْمَةِ: «انْتَفَعْتُ بِأَعْدَائِي أَكْثَرَ مِمَّا انْتَفَعْتُ بِأَصْدِقَائِي، فَأَعْدَائِي كَانُوا يَتَرَصَّدُونَ لأَخْطَائِي فَأَنْتَبِهُ إِلَيْهَا، وَأَصْدِقَائِي كَانُوا يُزَيِّنُونَ لِي خَطَئِي».

(١) أخرجه أبو داود (٥١٢٥)، وحسَّنه الشيخ الألباني.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، عن أبي أُمامة رضي الله عنه. وصححه الشيخ الألباني.
(٣) أخرجه البخاري فوق حديث (٥٧) معلقًا، ووصله مسلم (٥٥) عن تميم بن أوس الدَّارِيِّ رضي الله عنه.

كَمَا أَنَّ مِنْ وَاجِبِ الأُخُوَّةِ عَدَمَ اسْتِخْدَامِ أُسْلُوبِ التَّجْرِيحِ وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ ضَرَبَ مَثَلاً بِالْمُسْلِمِينَ الأَوَائِلِ فَقَالَ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[1]، فَإِنْ كُنْتَ نَاصِحًا فَاجْعَلْ رِدَاءَ نُصْحِكَ الرِّفْقَ، وَاللِّينَ، فَالإِسْلامُ عَلَّمَنَا الذَّوْقَ الرَّفِيعَ فِي الْمُخَاطَبَةِ وَفِي الكَلَامِ، وَمِنْ وَاجِبِ الأُخُوَّةِ أَيْضًا: أَنْ تَتَوَاضَعَ لأَخِيكَ فَقَدْ قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»[2]، فَالْمُسْلِمُ الحَقُّ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ أَخٍ مِنْ إِخْوَانِهِ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ.

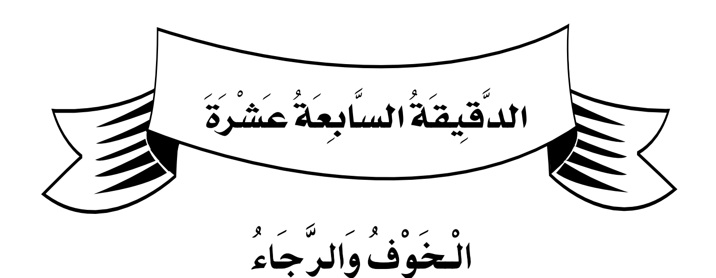
وَخِتَامُ هَذِهِ الحُقُوقِ: حَدِيثُ النَّبِيِّ ﷺ: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ**»، قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَسَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتْبَعْهُ**»[3].

وَقَالَ ﷺ: «**لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»[4].

اللَّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا بِالإِيمَانِ بِكَ، وَنَقِّ سَرَائِرَنَا، فَنَتَحَابَّ فِيكَ.

* * *

(١) المائدة: ٥٤.
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، وأبو داود (٤٨٩٥) عن عياض بن حمار المجاشعيّ رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٢١٦٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٢٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.



الدَّقِيقَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ

الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ

يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْ أَنْبِيَائِهِ: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾(١).

نعم إِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللهَ رَغْبَةً فِيمَا يَرْجُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، وَرَهْبَةً مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ. . .

• بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالتَّمَنِّي:

الْفَارِقُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالتَّمَنِّي: أَنَّ الرَّجَاءَ يَكُونُ مَعَ هَمِّ الْقَلْبِ لِلْعَمَلِ وَطَلَبِهِ لِلزِّيَادَةِ فِي الطَّاعَةِ رَجَاءَ الْمَغْفِرَةِ، أَمَّا التَّمَنِّي فَيَكُونُ مَعَ الْكَسَلِ، وَصَاحِبُ التَّمَنِّي لَا يَتَّخِذُ الأَسْبَابَ لِلْحُصُولِ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ**»(٢).

فَالتَّمَنِّي لَا يَصْحَبُهُ عَمَلٌ يُقَوِّيهِ وَيُؤَازِرُهُ حَتَّىٰ يَخْرُجَ بِهِ مِنْ حَيِّزِ التَّمَنِّي إِلَىٰ دَائِرَةِ الرَّجَاءِ، وَإِنْ تَوَافَرَ مَعَ التَّمَنِّي الْعَمَلُ صَارَ رَجَاءً.

• أَنْوَاعٌ ثَلَاثَةٌ لِلرَّجَاءِ:

لِلرَّجَاءِ أَنْوَاعٌ ثَلَاثَةٌ، اثْنَانِ مِنْهَا مَحْمُودَانِ، وَوَاحِدٌ مَذْمُومٌ.

---

(١) الأنبياء: ٩٠.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)، وأحمد (٤/ ١٢٤) عن شداد بن أوس رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن»، وضعفه الشيخ الألباني.

فالأوَّلُ: رَجَاءُ رَجُلٍ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَىٰ نُورٍ مِنَ اللهِ، فَهُوَ رَاجٍ لِثَوَابِهِ.

وَالثَّانِي: رَجُلٌ أَذْنَبَ ذَنْبًا ثُمَّ تَابَ مِنْهُ رَاجٍ لِلْمَغْفِرَةِ وَالإِحْسَانِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ.

وَالثَّالِثُ: رَجُلٌ مُتَمَادٍ فِي التَّفْرِيطِ وَالْخَطَايَا، يَرْجُو رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَىٰ بِلَا عَمَلٍ، فَهَـٰذَا - لَا شَكَّ - غُرُورٌ وَجَهْلٌ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ وَتَمَنٍّ بِلَا عَمَلٍ، لَا يَرْقَىٰ أَبَدًا لأَنْ يَكُونَ رَجَاءً وَحُسْنَ ظَنٍّ بِاللهِ تَعَالَىٰ.

سُئِلَ أَحْمَدُ بنُ عَاصِمٍ: مَا عَلَامَةُ الرَّجَاءِ فِي الْعَبْدِ؟

فَقَالَ: أَنْ يَكُونَ إِذَا أَحَاطَ بِهِ الإِحْسَانُ، أُلْهِمَ الشُّكْرَ، رَاجِيًا لِتَمَامِ النِّعْمَةِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا، وَتَمَامِ عَفْوِهِ عَنْهُ فِي الآخِرَةِ.

● **أَيُّهُمَا أَكْمَلُ رَجَاءً؟**

إِذَا كَانَ الرَّجَاءُ المحْمُودُ عَلَىٰ ضَرْبَيْنِ: **الأَوَّلُ:** رَجَاءُ ثَوَابٍ عَلَىٰ طَاعَةٍ، **وَالثَّانِي:** رَجَاءُ مَغْفِرَةٍ مِنْ ذَنْبٍ، فَأَيُّهُمَا أَكْمَلُ وَأَحْظَىٰ بِالْقَبُولِ وَالإِحْسَانِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ؟

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ: فَطَائِفَةٌ رَجَّحَتْ رَجَاءَ صَاحِبِ الطَّاعَةِ، وَطَائِفَةٌ رَجَّحَتْ رَجَاءَ طَالِبِ الْمَغْفِرَةِ مِنْ بَعْدِ ذَنْبٍ.

يَقُولُ يَحْيَىٰ بنُ مُعَاذٍ: «يَكَادُ رَجَائِي للهِ مَعَ الذُّنُوبِ يَغْلِبُ رَجَائِي لَهُ مَعَ الأَعْمَالِ؛ لأَنِّي أَجِدُ اعْتِمَادَ الأَعْمَالِ عَلَىٰ الإِخْلَاصِ، وَكَيْفَ لِي أَنْ أُصَفِّيَهَا وَأُحْرِزَهَا وَأَنَا بِالآفَاتِ مَعْرُوفٌ، وَأَجِدُنِي مَعَ الذُّنُوبِ أَعْتَمِدُ عَلَىٰ عَفْوِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَكَيْفَ لَا يَغْفِرُ وَهُوَ بِالْجُودِ وَالْكَرَمِ مَوْصُوفٌ؟!».

وَقَالَ فِي مَوْقِفِ الْمُنَاجَاةِ: «إِلَهِي، أَحْلَىٰ الْعَطَايَا فِي قَلْبِي رَجَاؤُكَ، وَأَعْذَبُ الْكَلَامِ عَلَىٰ لِسَانِي ثَنَاؤُكَ، وَأَحَبُّ السَّاعَاتِ عَلَيَّ سَاعَةٌ يَكُونُ فِيهَا لِقَاؤُكَ».

وَقَدْ جَاءَ فِي الأَثَرِ: أَنَّ مُوسَىٰ عليه السلام سَأَلَ رَبَّهُ وَقَالَ: «يَا رَبِّ، بِمَاذَا تُجِيبُ عَبْدَكَ الطَّائِعَ إِذَا نَادَاكَ؟ فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: أَقُولُ لَهُ: لَبَّيْكَ عَبْدِي. فَقَالَ: وَبِمَاذَا تُجِيبُ عَبْدَكَ الْعَاصِيَ إِذَا نَادَاكَ؟ أَقُولُ لَهُ: لَبَّيْكَ عَبْدِي، فَتَعَجَّبَ مُوسَىٰ مِنْ

ذَلكَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: لأنَّ الْمُطِيعَ نَادَانِي مُعْتَمِدًا عَلَىٰ طَاعَتِه، أمَّا الْعَاصِي، فَقَدْ نَادَانِي مُعْتَمِدًا عَلَىٰ رَحْمَتِي وَعَفْوِي».

● **دَرَجَاتُ الرَّجَاءِ:**

الرَّجَاءُ عَلَى ثَلاثِ دَرَجَاتٍ:

الدَّرَجَةُ الأولَى: رَجَاءٌ يَبْعَثُ الْعَامِلَ عَلَىٰ الاجْتِهَادِ، وَيُوَلِّدُ التَّلَذُّذَ بِالطَّاعَة، فَكُلَّمَا طَالَعَ الْعَبْدُ ثِمَارَ طَاعَتِه وَحُسْنَ عَاقِبَتِهَا، تَلَذَّذَ بِهَا، وَهَـٰذَا هُوَ نَفْسُ حَالِ صَاحِبِ التِّجَارَةِ الَّذِي كُلَّمَا تَحَصَّلَ عَلَىٰ رِبْحٍ، تَمَنَّىٰ وَاجْتَهَدَ لِتَحْصِيلِ الْمَزِيدِ، فَفَرَحُ الْمُؤْمِنِ بِالطَّاعَةِ يُعَادِلُ ـ بَلْ يَفُوقُ ـ فَرَحَ التَّاجِرِ بِالرِّبْحِ.

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: رَجَاءُ أَصْحَابِ الرِّيَاضَاتِ، وَهُمْ الْمُجَاهِدُونَ لأنْفُسِهِمْ بِتَرْكِ الْمَأْلُوفِ، فَهُمْ يَبْحَثُونَ عَنْ مَوَاطِنِ الْعِبَادَةِ وَإِنْ كَانَتْ تُخَالِفُ هَوَىٰ النَّفْسِ فَهُمْ يُجَاهِدُونَ النَّفْسَ وَيُصَارِعُونَ الْهَوَىٰ؛ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ الَّذِي يَرْجُونَ بِهِ مَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ.

الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: وَهُوَ رَجَاءُ أَرْبَابِ الْقُلُوبِ، وَهُوَ رَجَاءُ لِقَاءِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَهَـٰذَا الرَّجَاءُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الاشْتِيَاقِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَهَـٰذَا ـ لَا شَكَّ ـ أَفْضَلُ دَرَجَاتِ الرَّجَاءِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[1].

وَهَـٰذَا الرَّجَاءُ هُوَ مَحْضُ الإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَىٰ وَثَمَرَتُهُ.

● **عِبَادَةُ الْخَوْفِ:**

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: «مَا فَارَقَ الْخَوْفُ قَلْبًا إِلَّا خَرِبَ».

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بنُ سُفْيَانَ: «إِذَا سَكَنَ الْخَوْفُ الْقُلُوبَ، أَحْرَقَ مَوَاضِعَ الشَّهَوَاتِ مِنْهَا، وَطَرَدَ الدُّنْيَا عَنْهَا».

(١) الكهف: ١١٠.

وَقَالَ ذُو النُّونِ: «النَّاسُ عَلَىٰ الطَّرِيقِ مَا لَمْ يَزُلْ عَنْهُمْ الْخَوْفُ، فَإِذَا زَالَ عَنْهُمْ، ضَلُّوا الطَّرِيقَ».

وَقَالَ حَاتِمٌ الأَصَمُّ: «لَا تَغْتَرَّ بِمَكَانٍ صَالِحٍ، فَلَا مَكَانَ أَصْلَحُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَقَدْ لَقِيَ آدَمُ فِيهَا مَا لَقِيَ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ، فَإِنَّ إِبْلِيسَ بَعْدَ طُولِ الْعِبَادَةِ لَقِيَ مَا لَقِيَ، وَلَا تَغْتَرَّ بِلِقَاءِ الصَّالِحِينَ وَذُرِّيَّتِهِمْ، فَلَا شَخْصَ أَصْلَحُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِلِقَائِهِ أَعْدَاؤُهُ وَالْمُنَافِقُونَ».

● **الْخَوْفُ لَيْسَ مَقْصُوداً لِذَاتِهِ:**

الْخَوْفُ لَيْسَ مَقْصُوداً لِذَاتِهِ، بَلْ هُوَ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ؛ وَلِهَـٰذَا فَهُوَ يَزُولُ بِزَوَالِ الْمُخَوِّفِ، فَأَهْلُ الإِيْمَانِ يَخَافُونَ الْعَذَابَ وَالْعِقَابَ، فَإِنْ صَارُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، صَدَقَ فِيهِمْ قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[1].

وَالْخَوْفُ الْمَحْمُودُ الصَّادِقُ، هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ مَحَارِمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي لِهَـٰذَا الْخَوْفِ أَنْ يَزِيدَ عَلَىٰ حَدِّهِ، فَيَنْقَلِبَ إِلَىٰ يَأْسٍ وَقُنُوطٍ.

إِنَّ أَفْضَلَ دَرَجَاتِ الْعِبَادَةِ، أَنْ تَعْبُدَ اللهَ طَمَعاً فِيمَا عِنْدَهُ وَخَوْفاً مِنْ عَذَابِهِ، وَلَا يَنْبَغِي لأَحَدِهِمَا أَنْ يُفَارِقَ الآخَرَ.

فَالْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ جَنَاحَانِ بِهِمَا يَصِلُ الْعَبْدُ إِلَىٰ مُنَاهُ، وَيُدْرِكُ طَاعَةَ مَوْلَاهُ، وَيَفُوزُ بِرِضْوَانِهِ.

● **بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ:**

فَالْخَوْفُ هُوَ سَوْطُ اللهِ تَعَالَىٰ يَسُوقُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَىٰ الْمُوَاظَبَةِ عَلَىٰ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ...

وَالرَّجَاءُ هُوَ أَمَلُ النَّفْسِ فِي تَحْصِيلِ الثَّوَابِ وَالْفَوْزِ بِمَا عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَهَذَا الْخَوْفُ، وَهَـٰذَا الرَّجَاءُ، يَسِيرُ بِهِمَا الْعَبْدُ وَفْقَ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا**

(١) البقرة: ٦٢.

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾(١).

وَلَوْ تَأَمَّلْنَا فِي وُقُوعِ المَعَاصِي مِنْ العُصَاة، لَوَجَدْنَاهُمْ لاَ يَقْصِدُونَ العِصْيَانَ، وَإِنَّمَا يَقْصِدُونَ مُوَافَقَةَ هَوَاهُمْ، وَهُمْ يَغْفُلُونَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**﴾(٢).

لاَ تَجْعَلْ رَحْمَةَ اللهِ تُنْسِيكَ غَضَبَه وَعِقَابَهُ...

وَلاَ تَجْعَلْ عِقَابَهُ وَسَخَطَهُ يُنْسِيكَ رَحْمَتَهُ وَلُطْفَهُ...

وَلْيَكُنْ حَالُكَ بَيْنَ الخَوْفِ والرَّجَاءِ.

فَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ الخَوْفَ وَالرَّجَاءَ جَنَاحَانِ يَطِيرُ بِهِمَا العَبْدُ إِلَىٰ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَمَا يَنْبَغِي لأَحَدِهِمَا أَنْ يُلْغِيَ الآخَرَ، فَلاَ الخَوْفُ مِنْ عَذَابِ اللهِ يُنْسِيكَ الرَّجَاءَ فِيمَا عِنْدَهُ، وَلاَ الرَّجَاءُ يُلْهِيكَ عَنْ عَذَابِهِ وَغَضَبِهِ.

• المُعَادَلَةُ المَطْلُوبَةُ:

احْذَرْ مِنْ المُغَالاَة، فَالخَوْفُ مِنَ اللهِ إِنْ أَدَّىٰ إِلَىٰ القُنُوطِ وَاليَأْسِ مِنْ رَحْمَتِه، فَهُوَ مَذْمُومٌ، بَلْ هُوَ إِسَاءَةُ أَدَبٍ وَجَهْلٌ فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ الَّذِي سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ.

قَالَ مَكْحُولُ الدِّمَشْقِيُّ:

«**مَنْ عَبَدَ اللهَ بِالخَوْفِ**، فَهُوَ حَرُورِيٌّ - أَيْ: مِنَ الخَوارِجِ - **وَمَنْ عَبَدَ اللهَ بِالرَّجَاءِ**، فَهُوَ مِنَ المُرْجِئَةِ - أَيْ: مِنَ الَّذِينَ لاَ يُدْخِلُونَ العَمَلَ فِي مُسَمَّىٰ الإِيمَانِ - **وَمَنْ عَبَدَ اللهَ بِالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالمَحَبَّةِ** فَهُوَ مُوَحِّدٌ».

هِيَ المُعَادَلَةُ المَطْلُوبَةُ، حَتَّىٰ تَكُونَ العِبَادَةُ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَبَيْنَ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ!

---

(١) الحجر: ٤٩، ٥٠.

(٢) آل عمران: ٢٨.

رَوَائِعُ مِن حَيَاةِ سَلَفِنَا الصَّالِح

وَمِمَّا ذُكِرَ عَنْ سَلَفِنَا الصَّالِحِ - رِضْوَانُ الله تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ - أَنَّ مُحَمَّدَ بنَ الْمُنْكَدِرِ كَانَ يُصَلِّي ذَاتَ لَيْلَةٍ فَبَكَىٰ، وَكَثُرَ بُكَاؤُهُ، فَفَزِعَ أَهْلُهُ لِذَلِكَ، فَسَأَلُوهُ: مَا الذي أَبْكَاكَ؟ فَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِم مِنْ شِدَّةِ بُكَائِه، فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ أَبِي حَازِمٍ صَاحِبِه، وَأَخْبَرُوهُ بِأَمْرِه، فَجَاءَهُ وَسَأَلَهُ قَائِلاً: يَا أَخِي مَا الذي أَبْكَاكَ؟ قَدْ رَوَّعْتَ أَهْلَكَ! فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ مَرَرْتُ عَلَىٰ آيَةٍ فِي كِتَابِ الله، فَقَالَ أَبُو حَازِمٍ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[1]، فَبَكَىٰ أَبُو حَازِمٍ وَاشْتَدَّ بُكَاؤُهُمَا، فَقَالَ بَعْضُ أهلِ مُحَمَّدِ بنِ الْمُنْكَدِرِ لأَبِي حَازِمٍ: جِئْنَا بِكَ لِتُفَرِّجَ عَنْهُ فزِدْتَهُ؟!

ومحمدُ بنُ الْمُنْكَدِرِ هَـٰذَا الذي بَكَىٰ وَأَبْكَىٰ أَهْلَهُ يَقُولُ فِي مَوْقِفٍ آخَرَ: «إِنِّي لأَسْتَحِي مِنَ اللهِ أَنْ يَعْلَمَ مِنْ قَلْبِي أَنَّنِي ظَنَنْتُ أَنَّ رَحْمَتَهُ عَجَزَتْ عَنِّي».

يَقُولُ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -:

خَفِ اللَّهَ وَارْجُوهُ لِكُلِّ عَظِيمَةٍ	وَلا تُطِعِ النَّفْسَ اللَّجُوجَ فَتَنْدَمَا
وَكُنْ بَيْنَ هَاتَيْنِ مِنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَا	وَأَبْشِرْ بِعَفْوِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مُسْلِمًا
فَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي	جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ يُوسُفَ - رَحِمَهُ اللهُ -:

أَسِيرُ الْخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ وَاقِفٌ	عَلَى وَجَلٍ مِمَّا بِهِ أَنْتَ عَارِفُ
يَخَافُ ذُنُوبًا لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبُهَا	وَيَرْجُوكَ فِيهَا فَهُوَ رَاجٍ وَخَائِفُ
فَمَنِ الَّذِي يُرْجَى سِوَاكَ وَيُتَّقَى	وَمَا لَكَ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مُخَالِفُ
فَيَا سَيِّدِي لاَ تُخْزِنِي فِي صَحِيفَتِي	إِذَا نُشِرَتْ يَوْمَ الْحِسَابِ الصَّحَائِفُ

---

(١) الزمر: ٤٧.

وَكُنْ مُؤْنِسِي فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ عِنْدَمَا ... يُصَدُّ ذَوو الْقُرْبَى وَيَجْفُو الْمُوَالِفُ

لَئِنْ ضَاقَ عَنِّي عَفْوُكَ الْوَاسِعُ الَّذِي ... أُرَجِّي لإِسْرَافِي فَإِنِّي لَتَالِفُ

وَهَـٰذَا الإِمَامُ ابنُ الجَوْزِيِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يَبْكِي عِنْدَ المَوْتِ، فَيَقُولُ جُلَسَاؤُهُ وَمَنْ حَوْلَهُ: يَا إِمَامُ مَا الذِي يُبْكِيكَ؟ فَيَقُولُ: مَا أَخْشَىٰ إِلاَّ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[1]، فَبَكَىٰ مَنْ حَوْلَهُ.

وَهَـٰذَا أَحْمَدُ بنُ أَبِي الحَوَارِيِّ يَقُولُ: «دَخَلْتُ عَلَىٰ أَبِي سُلَيْمَانَ وَهُوَ يَبْكِي فَقُلْتُ لَهُ: مِمَّ تَبْكِي؟ فَقَالَ لِي: وَيْحَكَ يَا أَحْمَدُ! كَيْفَ لاَ أَبْكِي؟ وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ إِذَا جَنَّ اللَّيْلُ وَهَدَأَتِ العُيُونُ، وَخَلاَ كُلُّ خَلِيلٍ بِخَلِيلِهِ، وَاسْتَنَارَتْ قُلُوبُ المُؤْمِنِينَ، وَتَلَذَّذَتْ بِذِكْرِ رَبِّهَا، وَارْتَفَعَتْ هِمَمُهُمْ إِلَىٰ ذِي العَرْشِ، وَافْتَرَشَ أَهْلُ المَحَبَّةِ بَيْنَ يَدَي مَلِيكِهِمْ فِي مُنَاجَاتِهِ، وَرَدَّدُوا كَلاَمَهُ بِأَصْوَاتٍ مَحْزُونَةٍ، جَرَتْ دُمُوعُهُمْ عَلَىٰ خُدُودِهِم وَتَقَطَّرَتْ فِي مَحَارِيبِهِمْ خَوْفًا وَاشْتِيَاقًا...».

وَهَـٰذَا سَيِّدُ الخَلْقِ ﷺ يَأْتِي بِالأَمْرَيْنِ مَعًا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ فَفِي الصَّحِيحَيْنِ: مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِي رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ يَا رَبِّ، وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ الْمَوْلُودُ،** ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[2]، قَالَ: فَيَقُولُونَ: فَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ**»، قَالَ: فَقَالَ النَّاسُ: اللَّهُ أَكْبَرُ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ**

---

(١) الزمر: ٤٧.

(٢) الحج: ٢.

الْجَنَّةِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، قَالَ: فَكَبَّرَ النَّاسُ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ فِي النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَسْوَدِ أَوْ كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَبْيَضِ**»[1].

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِلُطْفِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...

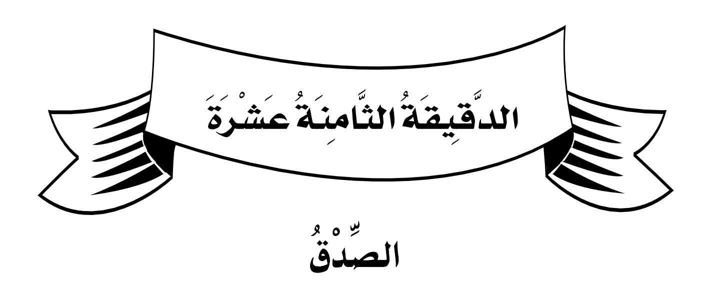
اللَّهُمَّ الْطُفْ بِنَا...

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا نَخْشَاكَ كَأَنَّنَا نَرَاكَ...

اللَّهُمَّ بَلِّغْنَا فِيمَا يُرْضِيكَ آمَالَنَا...

❖ ❖ ❖

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.



الصِّدْقُ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(١).

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي تَفْصِيلِ حَالِ الصَّادِقِينَ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(٢).

وَوَصَفَ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْبِيَاءَهُ بِالصِّدْقِ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(٣).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾(٤).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾(٥).

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ فِي الحَدِيثِ المتَّفَقِ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا**»(٦).

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحَيْهِمَا: «**البَيِّعَانِ**

---

(١) التوبة: ١١٩.
(٢) البقرة: ١٧٧.
(٣) مريم: ٤١.
(٤) مريم: ٥٤.
(٥) مريم: ٥٦.
(٦) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

بِالخيارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا ـ أَوْ قَالَ: **حَتَّى يَتَفَرَّقَا ـ فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وإِنْ كَتَمَا وكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»**[1].

وَيَقُولُ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَقَدْ رَبِحَ: الصِّدْقُ، وَالْحَيَاءُ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَالشُّكْرُ».

وَقَالَ بِشْرُ بنُ الْحَارِثِ: «مَنْ عَامَلَ اللهَ تَعَالَىٰ بِالصِّدْقِ، اسْتَوْحَشَ مِنَ النَّاسِ».

وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: «اجْعَلِ الصِّدْقَ مَطِيَّتَكَ، وَالْحَقَّ سَيْفَكَ، وَاللهَ تَعَالَىٰ غَايَةَ طَلَبِكَ».

وَقَالَ رَجُلٌ لأَحَدِ الْحُكَمَاءِ: «مَا رَأَيْتُ صَادِقًا!»، فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ: «لَوْ كُنْتَ صَادِقًا، لَعَرَفْتَ الصَّادِقِينَ».

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ**﴾[2]، قَالَ: «هُمُ الَّذِينَ ادَّعَوْا مَحَبَّةَ اللهِ تَعَالَىٰ وَلَمْ يَكُونُوا بِهَا صَادِقِينَ».

وَرُوِيَ أَنَّ اللهَ ـ تَعَالَىٰ ـ أَوْحَىٰ إِلَىٰ دَاوُدَ عليه السلام: «يَا دَاوُدُ، مَنْ صَدَّقَنِي فِي سَرِيرَتِهِ، صَدَّقْتُهُ عِنْدَ الْمَخْلُوقِينَ فِي عَلَانِيَتِهِ».

• **حَقِيقَةُ الصِّدْقِ وَمَعْنَاهُ:**

الصِّدْقُ يُسْتَعْمَلُ فِي مَعَانٍ كَثِيرَةٍ، وَلَهُ مَرَاتِبُ وَأَحْوَالٌ، أَهَمُّهَا: خَمْسُ مَرَاتِبَ، وَهِيَ:

أَوَّلاً: الصِّدْقُ فِي الْقَوْلِ: وَهُوَ مَا يُمْكِنُ أَنْ نُطْلِقَ عَلَيْهِ: «صِدْقُ اللِّسَانِ»؛ أَيْ: لَا يَتَكَلَّمُ اللِّسَانُ إِلَّا بِالصِّدْقِ.

(١) أخرجه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢) عن حكيم بن حزام رضي الله عنه.
(٢) الزمر: ٦٠.

وَفِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ، أَهَمُّهَا: حَدِيثُ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رضي الله عنه الَّذي يُوصِيهِ النَّبِيُّ ﷺ بِوَصَايَا جَاءَ فِيهَا: «**أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟**»، فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه، قَالَ: «**رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَلا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟**»، فَقُلْتُ لَهُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّه، فَأَخَذَ بِلِسَانِه فَقَالَ: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ -** أَوْ قَالَ: **عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ!**»[١].

فَصِدْقُ اللِّسَانِ مَرْتَبَةٌ عَظِيمَةٌ تَجْمَعُ فَضَائِلَ عَدِيدَةٍ، فَإِمْسَاكُ اللِّسَانِ إِلَّا عَنِ الصِّدْقِ، يُعَدُّ مِلاكَ الأُمُورِ كُلِّهَا بِنَصِّ كَلامِ النَّبِيِّ ﷺ.

ثَانِيًا: صِدْقُ النِّيَّةِ وَالإِرَادَةِ: وَهَـٰذَا مَرْجِعُهُ إِلَى الإِخْلاصِ، وَمَجَالُهُ أَنْ يَصْدُقَ الْمَرْءُ فِي عَمَلِهِ الَّذِي يَتَوَجَّهُ بِهِ إِلَى الله تَعَالَى، فَلا يَقْصِدُ أَحَدًا سِوَاهُ، وَعَكْسُ صِدْقِ النِّيَّةِ هُنَا هُوَ: الرِّيَاءُ، فَالْمُرَائِي يَدَّعِي أَنَّهُ يَقْصِدُ وَجْهَ الله لا سِوَاهُ وَهُوَ كَاذِبٌ؛ وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي حَدِيث: أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِم النَّارُ: الْعَالِمُ، وَالْمُتَصَدِّقُ، وَالْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله! يَدَّعِي كُلُّ وَاحِدٍ أَنَّهُ أَرَادَ وَجْهَ الله تَعَالَى، لَكِنَّ الْعَكْسَ هُوَ مَا حَدَثَ، فَقَدْ تَعَلَّمَ الْعَالِمُ؛ لِيُقَالَ: إِنَّهُ عَالِمٌ، وَقَدْ تَصَدَّقَ الْمُتَصَدِّقُ؛ لِيُقَالَ: إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، وَقَدْ جَاهَدَ الْمُجَاهِدُ وَقَاتَلَ - وَرُبَّمَا قُتِلَ - لَكِنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ؛ لِيُقَالَ: شُجَاعٌ![٢].

وَلَوْ صَدَقَ الْعَبْدُ فِي نِيَّتِهِ، بَارَكَ اللهُ لَهُ فِي عَمَلِهِ، وَأُجِرَ عَلَيْهِ خَيْرًا، وَوَفَّقَهُ إِلَى أَحْسَنَ مِنْهُ.

وَالْمُنَافِقُونَ كَانُوا يَشْهَدُونَ أَمَامَ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ رَسُولُ الله تَعَالَى، وَلَكِنَّ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥/ ٢٣١) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن صحيح»، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والنسائي (٣١٣٧)، وأحمد (٢/ ٣٢١، ٣٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الْقُرْآنَ أظْهَرَ الْحَقِيقَةَ، وَهِيَ: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(١)، مَعَ أَنَّهُمْ قَالُوا بِأَلْسِنَتِهِمْ، لَكِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَتْ كَاذِبَةً مُخَادِعَةً.

ثَالِثًا: صِدْقُ الْعَزْمِ: وَالْعَزْمُ هُوَ الَّذِي يَتَقَدَّمُ الْعَمَلَ دَائمًا، فَالْعَبْدُ قَدْ يَأْخُذُ عَهْدًا عَلَىٰ نَفْسِه أنْ يَفْعَلَ فِعْلاً مُعَيَّنًا، فَإِنْ كَانَ صَادِقَ الْعَزْمِ فِي ذَلِكَ، أَعَانَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْه، وإِنْ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا، فَسَيَكُونُ حَلِيفُهُ التَّفْرِيطَ فِي هَـٰذَا الْعَمَلِ.

وَقَدْ يَقُولُ إِنْسَانٌ: إِنْ رَزَقَنِي اللهُ تَعَالَىٰ الْمَالَ، فَسَأَصْرِفُهُ فِي وُجُوهِ الْخَيْرِ وَفِي الصَّدَقَةِ، وَرُبَّمَا يَأْتِي الْمَالُ وَلَا يُنَفِّذُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وَالسَّبَبُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ صَادِقًا فِي هَـٰذَا الْعَزْمِ، وَاللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قَدْ ضَرَبَ لَنَا مَثَلاً فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(٢).

فَعَزِيمَةُ الْمُؤْمِنِ فِي الْخَيْرِ لَا بُدَّ أَنْ تَنْبُعَ مِنْ إِحْسَاسٍ عَمِيقٍ مِنَ النَّفْسِ لَا يُخَالِطُهُ شِرْكٌ وَلَا خَلَلٌ وَلَا كَسَلٌ.

وَهُنَاكَ مِثَالٌ رَائِعٌ فِي صِدْقِ الْعَزْمِ، وَهُوَ مِثَالُ أَنَسِ بنِ النَّضْرِ رضي الله عنه، فَعَنْ أَنَس رضي الله عنه قَالَ: غَابَ عَمِّي أَنَس بْن النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِن اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ ـ يَعْنِي: أَصْحَابَهُ ـ وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَـٰؤُلَاءِ ـ يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ ـ ثُمَّ تَقَدَّمَ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْد بن مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بن مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ. قَالَ سَعْد: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ الله مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَس: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ، وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَس: كُنَّا نُرَىٰ ـ أَوْ نَظُنّ ـ أَنَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي

---

(١) المنافقون: ١.

(٢) التوبة: ٧٥ ـ ٧٧.

أشْبَاهه : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (١) (٢) .

رَابِعًا: الصِّدْقُ فِي الأعْمَالِ: وَهُوَ أنْ يَجْتَهِدَ الْعَبْدُ فِي أَعْمَالِه، فَيَكُونُ بَاطِنُهُ فِي أعْمَالِه كَظَاهِرِه، فَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ لَيْسَ فِيه، وَمِثَالٌ عَلَىٰ ذَلِكَ: مَنْ يُصَلِّي وَهُوَ عَلَىٰ هَيْئَةِ الْخُشُوعِ، وَهُوَ لَا يَقْصِدُ أنْ يَرَاهُ النَّاسُ، فَيَقُولُونَ: هُوَ مِنَ الْخَاشِعِينَ لَكِنَّهُ يَخْشَعُ لَا خُشُوعَ الْخَشْيَةِ مِنَ الله، وَإِنَّمَا خُشُوعُ مَنْ امْتَلأَ فِكْرُهُ وَقَلْبُهُ بِأَمْرٍ آخَرَ مِن أُمُورِ الدُّنْيَا، فَقَدْ يُفَكِّرُ فِي حِسَابَاتٍ دُنْيَوِيَّةٍ أُخْرَىٰ لَا عَلاقَةَ لَهَا بِالصَّلاةِ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ مُرَائِيًا، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ خَالِصًا مُنْتَبِهًا، وإنَّمَا كَانَ غَافِلاً مُسْتَغْرِقًا فِي شَيْءٍ آخَرَ.

يَقُولُ يَزِيدُ بنُ الْحَارِثِ: «إذَا اسْتَوَتْ سَرِيرَةُ الْعَبْدِ وَعَلانِيَتُهُ، فَذَلِكَ النَّصَفُ، وَإنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ أَفْضَلَ مِن عَلانِيَتِهِ، فَذَلِكَ الْفَضْلُ، وَإنْ كَانَتْ عَلانِيَتُهُ أَفْضَلَ مِن سَرِيرَتِه، فَذَلِكَ الْجَوْرُ.

إذَا السِّرُّ وَالإعْلانُ فِي المؤْمِنِ اسْتَوَى ... فَقَدْ عَزَّ فِي الدَّارَيْنِ وَاسْتَوْجَبَ الثَّنَا

فَإِنْ خَالَفَ الإعْلانُ سِرًّا فَمَا لَهُ ... عَلَى سَعْيِهِ فَضْلٌ سِوَى الْكَدِّ وَالْعَنَا

وَمِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَىٰ هَـٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ، قَالَ أَحَدُ الصَّالِحِينَ: «مَنْ يَدُلُّنِي عَلَىٰ بَكَّاءٍ بِاللَّيْلِ بَسَّامٍ بِالنَّهَارِ؟».

وَقَالَ عَبْدُ الْوَاحِدِ بنُ زَيْدٍ: «كَانَ الْحَسَنُ إِذَا أَمَرَ بِشَيْءٍ، كَانَ مِن أَعْمَلِ النَّاسِ بِه، وَإِذَا نَهَىٰ عَنْ شَيْءٍ، كَانَ مِنْ أَتْرَكِ النَّاسِ لَهُ، وَلَمْ أَرَ أَحَدًا قَطُّ أَشْبَهَ سَرِيرَةً بِعَلَانِيَةٍ مِنْهُ».

خَامِسًا: الصِّدْقُ فِي مَقَامَاتِ الدِّينِ كُلِّهَا: وَهُوَ الصِّدْقُ فِي كُلِّ الأحْوَالِ وَالأقْوَالِ وَالأفْعَالِ وَالأمَانِيّ؛ صِدْقٌ فِي الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، صِدْقٌ فِي الرِّضَا

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٥) واللفظ له، ومسلم (١٩٠٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

وَالزُّهْدِ وَفِي التَّوَكُّلِ، وَفِي الْـحُبِّ وَالْبُغْضِ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1].

الصِّدْقُ، هُوَ عَمُودُ الدِّينِ وَبُشْرَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ لِلمُؤْمِنِينَ: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

يَقُولُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: «عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ وَإِنْ قَتَلَكَ».

وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ بنُ عُبَيْدِ الله: «لَـمَّا حَضَرَتْ أَبِي الوَفَاةُ جَمَعَ بَنِيهِ، فَقَالَ لَهُمْ: يَا بَنِيَّ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَعَلَيْكُمْ بِالقُرْآنِ، فَتَعَاهَدُوهُ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ حَتَّىٰ لَوْ قَتَلَ أَحَدُكُمْ قَتِيلاً، ثُمَّ سُئِلَ عَنْهُ أَقَرَّ بِهِ، وَاللهِ مَا كَذَبْتُ كِذْبَةً قَطُّ مُذْ قَرَأْتُ القُرْآنَ».

وَيَقُولُ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ: «الصِّدْقُ ثَلاثَةٌ: صِدْقُ التَّوْحِيدِ، وَصِدْقُ الطَّاعَةِ، وَصِدْقُ الْـمَعْرِفَةِ، فَصِدْقُ التَّوْحِيدِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾[3]، وَصِدْقُ الطَّاعَةِ لأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْوَرَعِ، وَصِدْقُ الْـمَعْرِفَةِ لأَهْلِ الْوِلَايَةِ.

وَقَالَ جَعْفَرُ الصَّادِقُ: «الصِّدْقُ: هُوَ الْـمُجَاهَدَةُ، وَأَنْ لَا تَخْتَارَ عَلَىٰ اللهِ غَيْرَهُ كَمَا لَمْ يَخْتَرْ عَلَيْكَ غَيْرَكَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾[4]».

---

(١) البقرة: ١٧٧.

(٢) المائدة: ١١٩.

(٣) الحديد: ١٩.

(٤) الحج: ٧٨.

وَقَالَ الْـجُنَيْدُ: «حَقِيقَةُ الصِّدْقِ: أَنْ تَصْدُقَ فِي مَوْطِنٍ لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ إِلَّا الْكَذِبُ».

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْـخَوَّاصُ: «الصَّادِقُ لَا تَرَاهُ إِلَّا فِي فَرْضٍ يُؤَدِّيهِ أَوْ فَضْلٍ يَعْمَلُ فِيهِ».

نَعَمْ، فَحَالُ الصَّادِقِ دَائِمًا، أَنَّهُ عَلَىٰ عَلاقَةٍ بِاللهِ تَعَالَىٰ، صَدَقَ فِي حُبِّ اللهِ، فَأَحَبَّهُ اللهُ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ كُلَّ وُجُوهِ الطَّاعَةِ.

وَقَالَ يُوسُفُ بنُ أَسْبَاطٍ: «لأَنْ أَبِيتَ لَيْلَةً أُعَامِلُ اللهَ بِالصِّدْقِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَضْرِبَ بِسَيْفِي فِي سَبِيلِ اللهِ».

وَقَالَ الْـحَارِثُ الْـمُحَاسِبِيُّ: «الصَّادِقُ هُوَ الَّذِي لَا يُبَالِي لَوْ خَرَجَ كُلُّ قَدْرٍ لَهُ فِي قُلُوبِ الْـخَلْقِ مِن أَجْلِ صَلَاحِ قَلْبِهِ، وَلَا يُحِبُّ اطِّلَاعَ النَّاسِ عَلَىٰ مَثَاقِيلِ الذَّرَّةِ مِن حُسْنِ عَمَلِهِ، وَلَا يَكْرَهُ أَنْ يَطَّلِعَ النَّاسُ عَلَىٰ السَّيِّئِ مِن عَمَلِهِ، فَإِنَّ كَرَاهَتَهُ لِذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ يُحِبُّ الزِّيَادَةَ عِنْدَهُمْ، وَلَيْسَ هَـٰذَا مِن عَلَامَاتِ الصِّدْقِ».

وَقَالَ أَحَدُ الصَّالِحِينَ: «مَنْ طَلَبَ اللهَ بِالصِّدْقِ، أَعْطَاهُ مِرْآةً يُبْصِرُ فِيهَا الْـحَقَّ وَالْبَاطِلَ».

وَقَالَ أَحَدُ الصَّالِحِينَ: «عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ حَيْثُ تَخَافُ أَنَّهُ يَضُرُّكَ، فَإِنَّهُ يَنْفَعُكَ، وَدَعِ الْكَذِبَ حَيْثُ تَرَىٰ أَنَّهُ يَنْفَعُكَ، فَإِنَّهُ يَضُرُّكَ».

وَهَـٰذَا الْـمُهَلَّبُ بنُ أَبِي صُفْرَةَ يَقُولُ: مَا السَّيْفُ الصَّارِمُ فِي يَدِ الشُّجَاعِ بِأَقْوَىٰ مِنَ الصِّدْقِ.

وَهَـٰذَا بِلالُ بنُ رَبَاحٍ رضي الله عنه يُحْكَىٰ أَنَّهُ ذَهَبَ لِيَخْطُبَ لأَخِيهِ امْرَأَةً قُرَشِيَّةً، فَاجْتَمَعَ أَهْلُهَا، فَقَالَ بِلالُ لَهُمْ: نَحْنُ مَنْ قَدْ عَرَفْتُمْ: كُنَّا عَبْدَيْنِ، فَأَعْتَقَنَا اللهُ تَعَالَىٰ، وَكُنَّا ضَالَّيْنِ، فَهَدَانَا اللهُ تَعَالَىٰ، وَكُنَّا فَقِيرَيْنِ، فَأَغْنَانَا اللَّهُ تَعَالَىٰ وَأَنَا أَخْطُبُ إِلَيْكُمْ فُلانَةً لأَخِي، فَإِنْ تُنْكِحُوهَا لَهُ فَالحَمْدُ لله، وَإِنْ تَرُدُّونَا فَاللهُ أَكْبَرُ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فَقَالُوا: بِلالٌ مِمَّنْ عَرَفْتُمْ سَابِقَتَهُ وَمَشَاهِدَهُ وَمَكَانَهُ مِنَ

رَسُولِ الله ﷺ فَزَوِّجُوا أَخَاهُ، فَزَوَّجُوهُ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا قَالَ لَهُ أَخُوهُ: يَغْفِرُ اللهُ لَكَ أَمَا كُنْتَ تَذْكُرُ سَوَابِقَنَا وَمَشَاهِدَنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، وَلاَ تَذْكُرُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ بِلالُ: مَهْ يَا أَخِي صَدَقْتُ، فَأَنْكَحَكَ الصِّدْقُ.

وَخَطَبَ الحَجَّاجُ يَوْمًا فَأَطَالَ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: الصَّلاةُ، فَإِنَّ الوَقْتَ لاَ يَنْتَظِرُكَ وَالرَّبُّ لاَ يَعْذُرُكَ، فَأَمَرَ الحَجَّاجُ بِحَبْسِه، فَأَتَاهُ قَوْمُهُ وَزَعَمُوا أَنَّهُ مَجْنُونٌ وَسَأَلُوهُ أَنْ يُخَلِّي سَبِيلَهُ، فَقَالَ الحَجَّاجُ: إِنْ أَقَرَّ بِالجُنُونِ خَلَّيْتُهُ فَقِيلَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: مَعَاذَ الله، لاَ أَزْعُمُ أَنَّ الله ابْتَلانِي وَقَدْ عَافَانِي، فَبَلَغَ ذَلِكَ الحَجَّاجَ، فَعَفَا عَنْهُ لِصِدْقِه.

وَمِنْ عَلامَاتِ الصِّدْقِ: طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ، وَمِنْ عَلَامَاتِ الْكَذِبِ حُصُولُ رِيبَةٌ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الصِّدْقُ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ**»[1].

وَإِنْ كَانَ الصِّدْقُ مِفْتَاحَ الْجَنَّةِ «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّه كَذَّابًا**»[2].

وكُلُّ مَقَامٍ أَوْ حَالٍ لِلصَّادِقِينَ - كَمَا سَبَقَ - مَنْفِيٌّ عَنِ الْكَاذِبِينَ لَكِنَّ الْكَذِبَ أَيْضًا عَلَىٰ مَرَاتِبَ:

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَكْذِبُ بِلِسَانِه، وَمِنْهُمْ كَاذِبُ الْعَمَلِ، وَكَاذِبُ الْعَزِيمَةِ. . . وَهَـٰكَذَا، إِلَّا أَنَّ مَنْزِلَةً أَوْ مَرْتَبَةً وَاحِدَةً مِنَ الْكَذِبِ، كَافِيَةٌ بِأَنْ يَنْخَرِطَ الْعَبْدُ فِي زُمْرَةِ الْكَاذِبِينَ.

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَلاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٨) وقال: «حديث حسن صحيح». وصححه الألباني.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩)، والترمذي (١٩٧١)، وأحمد (١/ ٣٨٤) عن ابن مسعود رضي الله عنه. وقال شيعب الأرنؤوط: «إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين».

كَذَّابًا»[٣].

فَكَمَا أنَّ الْعَمَلَ الْـحَسَنَ يَهْدِي إلَىٰ أحْسَنَ مِنْهُ، فَكَذَلِكَ الْعَمَلُ الْـخَبِيثُ يَهْدِي إلَىٰ مِثْلِهِ.

فَالكَذِبُ رَأْسُ كُلِّ مَأْثَمٍ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ**﴾[١]، وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾[٢].

وَعِنْدَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلاً؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ المؤمن كَذَّابًا؟ فَقَالَ: «**لاَ**»[٣].

فَالْمُؤْمِنُ قَدْ يَكُونُ جَبَانًا، وَقَدْ يَكُونُ بَخِيلاً مَعَ اجْتِهَادِهِ وَمُعَالَجَتِهِ نَفْسَهُ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِيهِ هَـٰذِهِ الصِّفَاتُ، لَكِنَّهُ لاَ يَكُونُ أَبَدًا كَذَّابًا.

فَالكَذِبُ أَسَاسُ كُلِّ آفَةٍ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يُعَافِينَا وَإِيَّاكُمْ، مِنْ كَذِبِ اللِّسَانِ، وَكَذِبِ القَلْبِ.

اللَّهُمَّ احْشُرْنَا فِي زُمْرَةِ الصَّادِقِينَ.

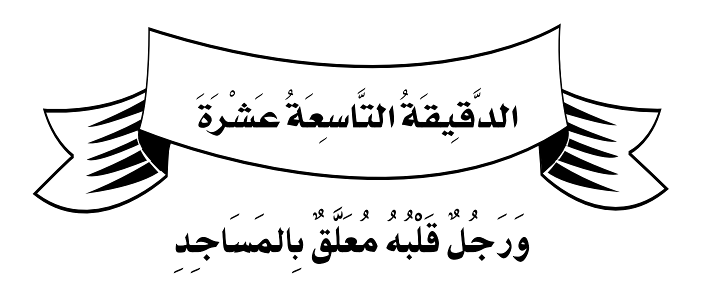
❖ ❖ ❖

---

(١) الزمر: ٦٠.

(٢) البقرة: ١٠.

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩٩٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨١٢) عن صفوان بن سليم رضي الله عنه مرسلاً، وقال الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٧٥٢): «مرسل ضعيف».



وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ۞ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾[١].

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[٢].

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**المَسْجِدُ بَيْتُ كُلِّ مُؤْمِنٍ**»[٣].

وورَدَ فِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ عَنِ النَّبِي ﷺ قوله: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ كَانَ قَلْبُهُ مُعَلَّقًا بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللهِ، فَاجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ ذَاتُ حَسَبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ** - عَزَّ وَجلَّ - **وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**»[٤].

إِنَّ مَنْ لاَزَمَ بَيْتَ كَرِيمٍ، حُقَّ لَهُ الإِكْرَامُ، فَكَيْفَ بِمَنْ لاَزَمَ بَيْتَ أَكْرَمِ الأَكْرَمِينَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ عَاكِفٌ عَلَىٰ طَاعَتِهِ، رَاغِبٌ فِي حُسْنِ عِبَادَتِهِ... إِنَّ

---

(١) النور: ٣٦، ٣٧.

(٢) التوبة: ١٨.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧٦) عن سلمان رضي الله عنه. وقال الألباني في صحيح الجامع (٦٧٠٢): «حسن».

(٤) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

بُيوتَ اللهِ فِي الأَرْضِ المَسَاجِدُ [١] وَجَلِيسُهَا ضَيْفٌ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَمَا ظَنُّكَ فِي رَجُلٍ شَغُوفٍ بِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ وَالوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ مَعَ اسْتِحْضَارِ مَعَانِي العَظَمَةِ وَالجَلَالِ يَطْلُبُ الرَّحْمَةَ مِمَّنْ يَمْلِكُهَا . . .

وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ الَّذِي أَخْرَجَهُ أَبُو دَاودَ فِي سُنَنِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاثَةٌ كُلُّهُمْ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: رَجُلٌ خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ حَتَّى يَتَوفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ رَاحَ إِلَى المَسْجِدِ فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُ فَيُدْخِلَهُ الجَنَّةَ أَوْ يَرُدَّهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ وَغَنِيمَةٍ، وَرَجُلٌ دَخَلَ بَيْتَهُ بِسَلَامٍ، فَهُوَ ضَامِنٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[٢].

إِنَّ المسأَلَةَ لاَ تَتَعَلَّقُ بِقَضَاءِ وقتٍ فِي المَسْجِدِ فِي ذِكْرٍ أَوْ فِي صَلاةٍ، وَإِنَّمَا هِي مَسْأَلَةُ قَلْبٍ تَعَلَّقَ بِهَـٰذَا المَكَانِ لا يَكَادُ يَخْرُجُ مِنْهُ حَتَّىٰ يَشْعُرَ بِالوَحْشَةِ إِلَيْهِ؛ وَلِهَـٰذَا كَانَ نَصُّ الحَدِيثِ «**وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ**»، وَهَـٰذَا الرَّجُلُ لَنْ يَصِيرَ المَسْجِدُ عِنْدَهُ مَكَانًا لِقَضَاءِ الصَّلَاةِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا مَكَانُ الحَبِيبِ الذِي تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِهِ، فَرُبَّمَا وَجَدَ حَنَانًا إِلَيْهِ، فَدَخَلَهُ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلاةِ.

وتَأَمَّلُوا هَـٰذَا المَوْقِفَ وَهَـٰذَا الدَّرْسَ . . .

جَاءَ فِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُد» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الْـمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنْ الأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: أَبُو أُمَامَةَ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا أُمَامَةَ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْـمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلاةِ؟!**»، قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**أَفَلا أُعَلِّمُكَ**

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٦١) (١٠٣٢٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٢): «رواه الطبراني في الكبير، وفيه عبد الله بن يعقوب الكرماني وهو ضعيف».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٩٤)، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه. وصححه الشيخ الألباني.

كَلامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّكَ وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ**». قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ؛ فَأَذْهَبَ اللَّهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ هَمِّي وَقَضَىٰ عَنِّي دَيْنِي[1].

وَالشَّاهِدُ مِنَ الحَدِيثِ أَنَّ المَسْجِدَ صَارَ مُتَنَفَّسَ هَـٰذَا الصَّحَابِيِّ، فَلَمَّا أَلَمَّ بِهِ الحُزْنُ، وَتَجَمَّعَتْ عِنْدَهُ الهُمُومُ، وَجَدَ فِي المَسْجِدِ خَيْرَ مَكَانٍ.

أَلاَ فَلْيَنْتَبِهْ أُنَاسٌ جَعَلُوا مُتَنَفَّسَ هُمُومِهِمْ أَمَاكِنَ أَقَلُّ مَا فِيهَا يُغْضِبُ اللهَ تَعَالَىٰ.

وَلَيْتَهُمْ بِذَلِكَ اسْتَرَاحُوا!! بَلْ مَا زَادَهُمْ هَـٰذَا إِلاَّ تَعَبًا عَلَىٰ تَعَبٍ، فَسَعَادَةُ النَّفْسِ وَطُمَأْنِينَةُ القَلْبِ، لَيْسَتْ إِلاَّ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالمَعْصِيَةُ تَجْلِبُ كُلَّ ضَنْكٍ وَشَقَاءٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ**﴾[2].

فَالمَسْجِدُ رَكِيزَةٌ مِنْ رَكَائِزِ الإِسْلاَمِ وَعَمُودٌ عَظِيمٌ مِنْ أَعْمِدَتِهِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ أَوَّلُ فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ عَقِبَ دُخُولِهِ الْمَدِينَةَ بَعْدَ الهِجْرَةِ أَنْ بَنَىٰ المَسْجِدَ؛ لِيُؤَسِّسَ بِذَلِكَ أَرْكَانَ أُمَّةٍ سَتَحْمِلُ دِينَ اللهِ تَعَالَىٰ إِلَىٰ البَشَرِيَّةِ كُلِّهَا.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ يَعْمُرُونَ مَسَاجِدَهُ، وَمِمَّنْ تَعَلَّقَتْ قُلُوبُهُمْ بِبَيْتِهِ، فَيُظِلَّنَا بِظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ.



(١) أخرجه أبو داود (١٥٥٥)، وضعفه الشيخ الألباني.
(٢) طه: ١٢٤ ـ ١٢٦



الدَّقِيقَةُ العِشْرُون

الْحِلْمُ وَالصَّفْحُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ

رَبُّ العالمينَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى أَثْنَى عَلَى أَخْلاقِ نَبِيِّه، فَقَالَ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١)، وقَالَ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(٢).

وَهَـذَا الخُلُقُ هُوَ «**الحِلْمُ والصَّفْحُ**» نُلْقِي عَلَيْهِ الضَّوْءَ مِنْ حَيَاتِهِ الشَّرِيفَةِ وَسِيرَتِهِ الْعَطِرَةِ ـ صَلَوَاتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْه.

وَالَّذِي كَانَ وَاضِحًا ظَاهِرًا فِي حَيَاته ﷺ، فَقَدْ رَوَى التِّرمذِيُّ بِسَنَده عَنْ عَبْد الله ابْن مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ ﷺ: «**لاَ يُبلِّغُني أحدٌ عَنْ أحدٍ مِنْ أَصْحَابي شَيْئًا، فَإِنِّي أحبُّ أَنْ أخْرُجَ إليهِمْ وأنا سليمُ الصَّدْرِ**»، قَالَ عبدُ الله: فَأُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَالٍ، فَقَسَمَهُ النَّبِيّ ﷺ، فانْتَهَيْتُ إِلَى رَجُلَيْنِ جَالسَيْنِ وَهُمَا يَقُولانِ: والله ما أَرَادَ مُحَمَّدٌ بِقِسْمَته التي قَسَمَها وَجْهَ الله، وَلاَ الدَّارَ الآخرَةَ، فَتَثَبَّتُّ حِينَ سَمِعْتُهَا، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَخْبَرْتُهُ، فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ، وَقَالَ: «**دَعْنِي عَنْكَ فَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ يَسْتَعِينُهُ فِي

---

(١) القلم: ٤.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٦٠) مختصراً، والترمذي في المناقب (٣٨٩٦) وقال: «حديث غريب». وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد، لكن الشطر الثاني منه في القسمة صحيح.

شَيءٍ، قَالَ عكْرِمَةُ: أُرَاهُ في دَمٍ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ الله ﷺ شيئًا، ثُمَّ قَالَ: أَحسَنْتُ إِلَيْكَ؟ قَالَ الأَعْرَابِيُّ: لاَ، ولاَ أَجْمَلتَ، فَغَضِبَ بَعْضُ الْمُسْلمِينَ وَهَمُّوا أَنْ يَقُومُوا إليه، فَأَشَارَ النَّبيُّ ﷺ إليهمْ أَنْ كُفُّوا، فَلَمَّا قَامَ النَّبيُّ ﷺ وبَلَغَ إِلَىٰ مَنْزِله، دَعَا الأَعْرابِيَّ إِلىٰ البَيْت، فقَالَ لَهُ: «**إنَّكَ جِئْتَنَا فسَألْتَنَا، فأعْطَيْنَاكَ، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ**»، فزَادَهُ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا، فقَالَ: «**أحسَنْتُ إليكَ**»؟ فَقَالَ الأَعْرابِيُّ: نَعَمْ، فَجَزَاكَ الله منْ أَهْلٍ وعَشيرٍ خَيْراً، فقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّكَ كُنْتَ جِئْتَنَا فَسَألْتَنَا فَأعْطَيْنَاكَ فَقُلْتَ مَا قُلْتَ وَفِي نَفْسِ أصْحَابِي عَلَيْكَ مِنْ ذَلكَ شَيءٌ، فَإذَا جِئْتَ فَقُلْ بَيْنَ أيْدِيهم مَا قُلْتَ بيْنَ يَدَيَّ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْ صُدُورِهِمْ**»، قَالَ: فَلَمَّا جَاءَ الأَعْرابِيُّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إنَّ صَاحِبَكُمْ كَانَ جَاءنَا فَسَألنَا فَأعْطَيْنَاهُ، فَقَالَ مَا قَالَ، وإنَّا قَدْ دَعَوْنَاهُ فَأعْطَيْنَاهُ، فَزَعَمَ أنَّهُ قَدْ رَضِيَ أكَذَلكَ؟**»، قَالَ الأَعْرابِيُّ: نَعَمْ فَجَزَاكَ الله منْ أَهْلٍ وَعَشيرٍ خَيْراً، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ مَثَلِي ومثَلَ هَذَا الأعْرَابِيَّ كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ فَشَرَدَتْ عَلَيْهِ، فاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِيدُوهَا إلا نُفُوراً، فَقَالَ لَهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي فَأنَا أرْفَقُ بِهَا وأعْلَمُ بِهَا، فَتَوجَّهَ إليْهَا صَاحِبُ النَّاقَةِ، فَأخَذَ لَهَا مِنْ قِشَامِ الأرْضِ ودَعَاهَا حَتَّى جَاءَتْ واسْتَجَابَتْ وشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا واسْتَوَى عَلَيْهَا وَلَوْ أنِّي أطَعْتُكُم حَيْثُ قَالَ مَا قَالَ، دَخَلَ النَّارَ...**»(١).

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَىٰ مُعَلِّم النَّاسِ الحِلْمَ والصَّفْحَ والرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ، القَائِل: «**إنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحبُّ الرِّفْقَ فِي الأمْرِ كُلِّهِ**»(٢).

وَهَـٰذَا البُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - يَرْوِي بِسَنَده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً تَقَاضَىٰ رَسُولَ الله ﷺ، فَأَغْلَظَ لَهُ فَهَمَّ بِه أَصْحَابُهُ فَقَالَ: «**دَعُوه، فَإنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالاً، وَاشْتَرُوا لَهُ بَعِيراً فَأعْطُوهُ إيَّاهُ**»، فَقَالُوا: لاَ نَجِدُ إلاَّ

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ١٦) وعزاه للبزار، وقال: «وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو متروك».
(٢) أخرجه البخاري (٦٩٢٧)، ومسلم (٢١٦٥)، عن عائشة رضي الله عنها.

أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ، فقال ﷺ: «**اشْتَرُوهُ فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ، فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً**»(١).

رَوَىٰ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً بِرِدَائِهِ حَتَّىٰ نَظَرتُ إِلىٰ صَفْحَةِ عَاتِقِ رَسُولِ الله ﷺ، قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ البُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ الله الَّذِي عِنْدَكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُول الله ﷺ، ثُمَّ ضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ»(٢).

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلاَ امْرَأَةً، وَلاَ خَادِمًا، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ الله، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمُ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ مِنْ مَحَارِمِ الله تَعَالَىٰ، فَيَنْتَقِمَ لله تَعَالَىٰ.

وعَنِ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ**»(٣).

هَـٰذَا الخُلُقُ العَمَلِيُّ مِنْ رَسُولُ الله ﷺ تَمَثَّلَهُ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم، وَكَذَلِكَ التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَكَانُوا أَرَقَّ وَأَرْحَمَ قُلُوبًا.

فَهَـٰذَا عُمَرُ بنُ عَبْدِ العَزِيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ يَسِيرُ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَيَطَأُ بِقَدَمِهِ عَلَىٰ رَجُلٍ جَالِسٍ أَوْ عَلَىٰ ثَوْبِهِ، فَيَفْزَعُ الرَّجُلُ وَيَقُولُ لَهُ: هَلْ أَنْتَ أَعْمَىٰ؟ فَيَرُدُّ عُمَرُ فِي هُدُوءٍ وَسَكِينَةٍ وَيَقُولُ: لاَ، فَيَهُمُّ أَصْحَابُهُ بِالرَّجُلِ، فَيَقُولُ لَهُمْ عُمَرُ: لَا، عَلَيْكُمْ لَقَدْ سَأَلَنِي هَلْ أَنْتَ أَعْمَىٰ؟ فَقُلْتُ: لاَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٥٨٠٩)، ومسلم (١٠٥٧).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، وفي الزوائد: «هـٰذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات»، وصححه الألباني.

فَمَا هُوَ حَالُكَ أيُّهَا المُسْلِمُ؟!

كَيْفَ هِي نَفْسُكَ إِنْ جَهِلَ عَلَيْكَ جَاهِلٌ؟

كَيْفَ هُوَ حَالُكَ إِنْ طَالَكَ أَحَدٌ بِسُوءٍ؟

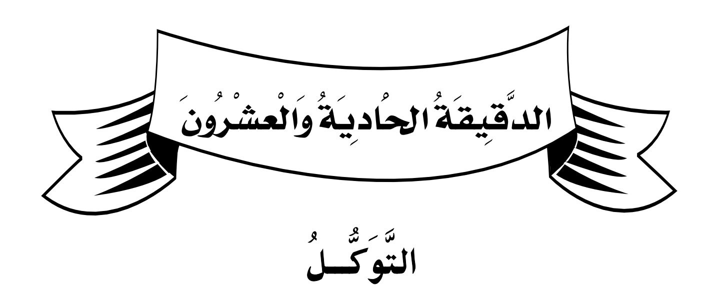
هَلِ الانْتِصَارُ للنَّفْسِ يَسْبِقُ عِنْدَكَ الانْتِصَارَ لله؟

فَعَائِشَةُ رضي الله عنها تَقُولُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ أَخَذَ أَيسرَهُمَا مَا لَمْ يكُنْ إِثْماً، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، ومَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِه إِلاَّ أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله، فَيَنْتَقِمَ لله بِهَا»[1].

اللَّهُمَّ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَة، إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ عفوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنَّا.



(١) أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٣٧٢٧).



الدَّقِيقَةُ الحَادِيَةُ وَالعِشْرُونَ

التَّوَكُّلُ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي مُحْكَمِ آيَاتِه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(١)، وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(٢).

وَقَالَ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾(٣).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٤).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(٥).

وَجَاءَ فِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(٦).

وَرَوَىٰ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحَيْهِمَا» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى ﷺ وَقَوْمُهُ وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي:**

(١) آل عمران: ١٢٢.
(٢) الطلاق: ٣.
(٣) النمل: ٧٩.
(٤) آل عمران: ١٥٩.
(٥) آل عمران: ١٧٣.
(٦) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ الآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ» ثُمَّ نَهَضَ، فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ أُخْرَىٰ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟**»، فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ لَهُمْ: «**هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**». فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ ﷺ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**»(١).

وَفِي السُّنَنِ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ**»، قَالَ: «**يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ فَيَقُولُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ**»(٢).

وَعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»(٣).

- **مَا التَّوَكُّلُ؟**

هُوَ اعْتِمَادُ القَلْبِ عَلَىٰ المُوَكَّلِ فِي الاعْتِقَادِ مَعَ الأَخْذِ بِكُلِّ الأَسْبَابِ، فَيَكُونُ المُؤْمِنُ عَلَىٰ يَقِينٍ مِنْ أَنَّهُ لَيس وَرَاءَ قُدْرَةِ اللهِ قُدْرَةٌ، وَلاَ وَرَاءَ عِلْمِهِ عِلْمٌ، وَلاَ وَرَاءَ رَحْمَتِهِ رَحْمَةٌ.

قَالَ ابْنُ عَطَاء: «التَّوَكُّلُ أَنْ لاَ يَظْهَرَ فِيكَ انْزِعَاجٌ إِلَى الأَسْبَابِ مَعْ شِدَّةِ فَاقَتِكَ إِلَيْهَا، وَلاَ نُزُولٌ عَنْ حَقِيقَةِ السُّكُونِ إِلَىٰ الحَقِّ مَعَ وُقُوفِكَ عَلَيْهَا».

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦) عن أنس رضي الله عنه. وصححه الشيخ الألباني.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)، وأحمد (١/ ٣٠) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وَقَالَ ذُو النُّون: «هُوَ تَرْكُ تَدْبِيرِ النَّفْسِ وَالانْخِلاعِ عَنِ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ، وَإِنَّمَا يَقْوَى العَبْدُ عَلَىٰ التَّوَكُّلِ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الحَقَّ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ وَيَرَىٰ مَا فِيهِ».

وَقَالَ أَيْضًا: «هُوَ قَطْعُ الأَسْبَابِ، أَيْ: قَطْعُهَا مِنْ تَعَلُّقِ القَلْبِ بِهَا».

● **حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ:**

قَالَ صَاحِبُ «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»: التَّوَكُّلُ حَالٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ مَجْمُوعِ أُمُورٍ، لاَ تَتِمُّ حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ إِلاَّ بِهَا.

هُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ وَصِفَاتِهِ: مِنْ قُدْرَتِهِ وَكِفَايَتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ وَانْتِهَاءِ الأُمُورِ إِلَىٰ عِلْمِهِ وَصُدُورِهَا عَنْ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَهَذِهِ المَعْرِفَةُ أَوَّلُ دَرَجَةٍ يَضَعُ بِهَا المُؤْمِنُ قَدَمَهُ عَلَىٰ مَقَامِ التَّوَكُّلِ.

ثَانِي أُمُورِ التَّوَكُّلِ: هِيَ إِثْبَاتُ الأَسْبَابِ وَالمُسَبَّبَاتِ.

فَمَنْ نَفَىٰ الأَسْبَابَ، فَتَوَكُّلُهُ مَدْخُولٌ، فَنُفَاةُ الأَسْبَابِ لاَ يَسْتَقِيمُ لَهُمْ تَوَكُّلٌ، فَهُوَ كَالدُّعَاءِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ سَبَبًا فِي حُصُولِ المَدْعُوِّ بِهِ عَلَىٰ مَا يُحِبُّ.

ثَالِثُ أُمُورِ التَّوَكُّلِ: هُوَ رُسُوخُ القَلْبِ فِي مَقَامِ تَوْحِيدِ التَّوَكُّلِ، فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَقِيمُ تَوَكُّلُ العَبْدِ حَتَّىٰ يَصِحَّ لَهُ تَوْحِيدُهُ، بَلْ حَقِيقَةُ التَّوَكُّلِ هِيَ تَوْحِيدُ القَلْبِ، وَعَلَىٰ قَدْرِ تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ تَكُونُ صِحَّةُ التَّوَكُّلِ، فَإِنَّ العَبْدَ مَتَىٰ الْتَفَتَ إِلَىٰ غَيْرِ اللهِ أَخَذَ ذَلِكَ الالْتِفَاتُ شُعْبَةً مِنْ شُعَبِ قَلْبِهِ، فَنَقَصَ مِنْ تَوَكُّلِهِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ بِقَدْرِ ذَهَابِ تِلْكَ الشُّعْبَةِ.

رَابِعُ أُمُورِ التَّوَكُّلِ: اعْتِمَادُ القَلْبِ عَلَىٰ اللهِ وَاسْتِنَادُهُ إِلَيْهِ وَسُكُونُهُ إِلَيْهِ، بِحَيْثُ لاَ تَغْلِبُ عَلَىٰ هَذَا الاعْتِمَادِ تَشْوِيشُ الأَسْبَابِ، وَعَلاَمَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ لاَ يُبَالِي بِإِقْبَالِهَا وَإِدْبَارِهَا وَلاَ يَضْطَرِبُ قَلْبُهُ وَلاَ يَخْفِقُ عِنْدَ إِدْبَارِ مَا يُحِبُّ وَإِقْبَالِ مَا يَكْرَهُ؛ لأَنَّ اعْتِمَادَهُ عَلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ.

خَامِسُ أُمُورِ التَّوَكُّلِ: حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَىٰ، فَعَلَىٰ قَدْرِ ظَنِّ العَبْدِ بِرَبِّهِ

وَرَجَائِهِ لَهُ، يَكُونُ تَوَكُّلُهُ، وَلِهَـٰذَا فَقَدْ فَسَّرَ العُلَمَاءُ التَّوَكُّلَ بِحُسْنِ الظَّنِّ.

سَادِسُ أُمُورِ التَّوَكُّلِ: التَّفْوِيضُ: وَهُوَ إِلْقَاءُ الأُمُورِ كُلِّهَا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِنْزَالُهَا بِهِ طَلَبًا، وَاخْتِيَارًا لاَ كُرْهًا وَاضْطِرَارًا، وَهِيَ كَتَفْوِيضِ الابْنِ العَاجِزِ الضَّعِيفِ كُلَّ أُمُورِهِ إِلَىٰ أَبِيهِ العَالِمِ بِشَفَقَتِهِ عَلَيْهِ وَرَحْمَتِهِ وَتَمَامِ كِفَايَتِهِ وَحُسْنِ وِلاَيَتِهِ.

وَقَدْ يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّ مَعْنَىٰ التَّوَكُّلِ تَرْكُ الكَسْبِ بِالبَدَنِ، وَتَرْكُ التَّدْبِيرِ بِالقَلْبِ، وَهَـٰذَا عَيْنُ الخَطَأِ، فَالنَّبِيُّ ﷺ عِنْدَمَا هَمَّ بِالهِجْرَةِ اتَّخَذَ كُلَّ سَبَبٍ مُمْكِنٍ وَمُبَاحٍ لِنَجَاحِ الهِجْرَةِ، حَتَّىٰ كَانَتْ خُطَّةُ الهِجْرَةِ خُطَّةً عَظِيمَةً مُحْكَمَةً، وَلاَ مَجَالَ هُنَا لِتَفْصِيلِ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِضِيقِ الوَقْتِ، وَكُلُّ هَـٰذَا وَاضِحٌ فِي كُتُبِ السُّنَّةِ الصِّحَاحِ.

وَاتَّضَحَ مَعْنَىٰ التَّوَكُّلِ أَيْضًا عِنْدَمَا قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ: «**اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ**»[1].

وَاعْقِلْهَا ـ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ ـ بِمَعْنَىٰ: ارْبِطْهَا، أَيْ: اتَّخِذْ كُلَّ سَبَبٍ لِلحِفَاظِ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَوَكَّلْ.

• تطبيق للمعنى الحقيقي للتوكل:

وَهَذَا المَعْنَىٰ أَثْبَتَهُ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه عِنْدَمَا وَجَدَ رَجُلاً فِي المَسْجِدِ يَتَعَبَّدُ، فَسَأَلَ عَمَّنْ يَكْفُلُهُ، فَقَالُوا: إِنَّ أَخَاهُ يَكْفُلُهُ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: «إِنَّ أَخَاهُ أَفْضَلُ مِنْهُ».

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ لله وَأَرْضَاهُ يَخْرُجُ إِلَىٰ التِّجَارَةِ وَيَتْرُكُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلاَ يَنْهَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ.

وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: «لأَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ جَبَلٍ أَطْلُبُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٧) عن أنس رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث غريب». وحسَّنه الألباني.

كَفَافَ وَجْهِي، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَمُوتَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ».

فَالتَّوَكُّلُ: أَنْ تَأْخُذَ بِكُلِّ الأَسْبَابِ وَتَعْتَمِدَ عَلَىٰ مُسَبِّبِ الأَسْبَابِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَلْيَكُنْ فِي ذِهْنِكَ حَالُ النَّبِيِّ ﷺ وَصَحَابَتِهِ الكِرَامِ -رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ- الَّذِينَ ضَرَبُوا أَعْظَمَ الأَمْثِلَةِ فِي التَّوَكُّلِ.

انْظُرُوا إِلَىٰ فِطْنَةِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ لَيْلَةَ الغَارِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَدْخُلْ قَبْلَكَ فَإِنْ كَانَتْ حَيَّةٌ أَوْ شَيءٌ كَانَتْ بِي قَبْلَكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ادْخُلْ**»[١].

وَهُنَا الدَّرْسُ أَيُّهَا الأَحِبَّةُ فَأَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَعْصُومٌ عَصَمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ، إِلاَّ أَنَّ ذَلِكَ لاَ يُنَافِي أَبَدًا مَعْنَىٰ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ وَالأَخْذِ بِالأَسْبَابِ.

• **تَعَلُّقُ التَّوَكُّلِ بِأَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ:**

لِلتَّوَكُّلِ تَعَلُّقٌ خَاصٌّ بِأَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَصِفَاتِهِ، فَلَهُ تَعَلُّقٌ بِاسْمِ «**الغَفَّارِ وَالتَّوَّابِ وَالعَفُوِّ وَالرَّؤُوفِ وَالرَّحِيمِ وَلَهُ تَعَلُّقٌ بِاسْمِ الفَتَّاحِ وَالوَهَّابِ وَالرَّزَّاقِ وَالمُعْطِي وَالمُحْسِنِ**».

وَكُلَّمَا زَادَ تَعَلُّقُ قَلْبِ العَبْدِ بِأَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ وَصِفَاتِهِ صَحَّ تَوَكُّلُهُ، فَمُقْتَرِفُ الذَّنْبِ التَّائِبُ مِنْهُ يَعْمَلُ جَاهِدًا وَيَطْلُبُ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ العَفْوَ وَالمَغْفِرَةَ، وَكُلُّهُ يَقِينٌ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ هُوَ الغَفُورُ العَفُوُّ الرَّحِيمُ، فَهَـٰذَا أَقْرَبُ إِلَىٰ عَفْوِ اللهِ وَمَغْفِرَتِهِ مِنْ أَيِّ أَحَدٍ، وَتَعَلُّقُ قَلْبِ العَبْدِ الطَّالِبِ لِلرِّزْقِ بِاسْمِ اللهِ الرَّزَّاقِ يَزِيدُ مِنْ تَوَكُّلِهِ وَطُمَأْنِينَةِ قَلْبِهِ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَنْ يَنْسَاهُ وَسَيَسُوقُ رِزْقَهُ إِلَيْهِ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا.

وَتَعَلُّقُ قَلْبِ المَظْلُومِ بِاسْمِ اللهِ العَدْلِ يَزِيدُهُ إِيمَانًا وَتَوَكُّلاً، وَيَقِينًا أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٤٧٧) عن ضبة بن محصن رضي الله عنهما، وزاد المتقي الهندي نسبته في الكنز (٣٥٦١٥) للدينوري في المجالسة وأبي الحسن بن بشران في فوائده واللالكائي في السنّة.

لاَ يَغْفُلُ عَنِ الظَّالِمِينَ الْمُعْتَدِينَ، فَاللهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الحَكَمُ العَدْلُ الَّذِي قَدْ يُمْهِلُ لَكِنَّهُ أَبَدًا لاَ يُهْمِلُ.

● **دَرَجَاتُ التَّوَكُّلِ:**

لِلْتَّوَكُّلِ دَرَجَاتٌ ثَلاثٌ وَهِيَ:

الدَّرَجَةُ الأولَى: التَّوَكُّلُ مَعَ الطَّلَبِ، وَصَاحِبُ هَذِهِ الدَّرَجَةِ يَتَوَكَّلُ عَلَىٰ الله تَعَالَىٰ وَلاَ يَتْرُكُ الأَسْبَابَ، بَلْ يَتَعَاطَاهَا عَلَىٰ نِيَّةِ شَغْلِ النَّفْسِ بِالسَّبَبِ، فَهُوَ إِنْ لَمْ يَشْغَلْ نَفْسَهُ بِمَا يَنْفَعُهَا شَغَلَتْهُ بِمَا يَضُرُّهُ، وَيَكُونُ قِيَامُهُ بِالسَّبَبِ عَلَىٰ نِيَّةِ نَفْعِ النَّفْسِ وَنَفْعِ النَّاسِ بِذَلِكَ، فَيَحْصُلُ لَهُ نَفْعُ نَفْسِهِ وَنَفْعُ غَيْرِهِ، فَالْمَرِيضُ الَّذِي يَتَوَكَّلُ عَلَىٰ الله تَعَالَىٰ فِي تَحْصِيلِ الشِّفَاءِ يَشْتَغِلُ بِالأَسْبَابِ وَهِيَ التَّدَاوِي، وَيَشْغَلُ نَفْسَهُ بِالجَيِّدِ مِنْهَا دُونَ الرَّدِيءِ، وَهَـٰذَا لاَ يَنْفِي صِحَّةَ تَوَكُّلِهِ عَلَىٰ الله تَعَالَىٰ، فَمِنْ جِهَةٍ لأَنَّ الأَخْذَ بِالأَسْبَابِ هِيَ سُنَّةُ الدِّين «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[1]، وَ«**تَدَاوَوا فَإِنَّ اللهَ لَمْ يُنْزِلْ دَاءً إِلاَّ أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ**»[2].

الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: التَّوَكُّلُ مَعَ إِسْقَاطِ الطَّلَبِ وَغَضِّ العَيْنِ عَنِ السَّبَبِ اجْتِهَادًا لِتَصْحِيحِ التَّوَكُّلِ وَقَمْعًا لِلنَّفْسِ، فَصَاحِبُ هَذِهِ الدَّرَجَةِ لاَ يَطْلُبُ مِنَ النَّاسِ شَيْئًا، فَعِنْدَهُ أَنَّ الطَّلَبَ مِنَ الْخَلْقِ مَحْظُورٌ، وَلاَ يُبَاحُ إِلاَّ لِضَرُورَةٍ، بَلِ البَعْضُ يَرَىٰ أَنَّ الطَّلَبَ مِنَ النَّاسِ ظُلْمٌ فِي حَقِّ الرُّبُوبِيَّةِ.

فَسُؤَالُ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ كَسُؤَالِ الفَقِيرِ لِلْفَقِيرِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ كُلَّمَا سَأَلْتَهُ كَرُمْتَ عَلَيْهِ وَرَضِيَ عَنْكَ وَأَحَبَّكَ، وَالْمَخْلُوقُ كُلَّمَا سَأَلْتَهُ هُنْتَ عَلَيْهِ وَأَبْغَضَكَ وَمَقَتَكَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) عن عليّ رضي الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (٤٥١).

وَمِنْ هُنَا قِيلَ:

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيُّ آدمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وَفِي «صَحِيحُ مُسْلِم» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكَثُّراً فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْراً، فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ**»(١).

وَفِي «سُنَنِ أَبِي دَاوُد» عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «**مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ أَنْزَلَهَا بِالله أَوْشَكَ اللَّهُ لَهُ بِالْغِنَى، إِمَّا بِمَوْتٍ عَاجِلٍ أَوْ غِنىً عَاجِلٍ**»(٢).

وَفِي «صَحِيح مُسْلِم» عَنْ قَبِيصَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ المَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ إِلاَّ لأَحَدِ ثَلاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ** - أَوْ قَالَ: **سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلاثَةٌ مِنْ ذَوِي الحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ: سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ - فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ المَسْأَلَةِ يَا قُبَيْصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا**»(٣).

فَمدُّ الأَيْدِي لِلْغَيْرِ، وَتَرْكُ العَمَلِ وَالتَّكَسُّبِ الحَلاَلِ، مَرْفُوضٌ وَلاَ يُعَدُّ تَوَكُّلاً بِحَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ، وَيُعَدُّ تَرْكًا لِلأَسْبَابِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي أُمِرَ المُؤْمِنُ بِاتِّخَاذِهَا.

الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: دَرَجَةُ التَّوَكُّلِ مَعَ مَعْرِفَةِ التَّوَكُّلِ، النَّازِعَةِ إِلَى الخَلاَصِ مِنْ عِلَّةِ التَّوَكُّلِ، وَهِيَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مُلْكَ الحَقِّ تَعَالَى لِلأَشْيَاءِ هُوَ مُلْكُ عِزَّةٍ لاَ يُشَارِكُهُ فِيهَا مُشَارِكٌ، فَيَكِلُ شِرْكَتَهُ إِلَيْهِ.

فَالتَّوَكُّلُ هُنَا هُوَ مَحْضُ الاعْتِمَادِ وَالثِّقَةِ وَالسُّكُونِ إِلَى مَنْ لَهُ الأَمْرُ كُلُّهُ، وَعِلْمُ

(١) أخرجه مسلم (١٠٤١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٣٢٦) عن ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (١٠٤٤) عن قبيصة بن مخارق رضي الله عنه. وصححه الألباني.

العَبْدِ بِتَفَرُّدِ الحَقِّ تَعَالَىٰ بِمُلْكِ الأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ مُشَارِكٌ فِي ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِ الكَوْنِ، فَإِنْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ فِي قَلْبِ العَبْدِ لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنِ اعْتِمَادِ قَلْبِهِ عَلَىٰ الحَقِّ وَحْدَهُ وَثِقَتِهِ بِهِ وَسُكُونِهِ إِلَيْهِ وَطُمَأْنِينَتِهِ بِهِ وَحْدَهُ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّ جَمِيعَ حَاجَاتِهِ وَضَرُورَاتِهِ وَجَمِيعَ مَصَالِحِهِ كُلِّهَا بِيَدِهِ وَحْدَهُ لاَ بِيَدِ غَيْرِهِ، فَلاَ يَجِدُ إِلاَّ التَّوَكُّلَ عَلَىٰ الله لَهُ مُلْتَجَئًا.

● **سَوَادُ عَيْنِ التَّوَكُّلِ:**

الثِّقَةُ بِالله تَعَالَىٰ هِيَ سَوَادُ عَيْنِ التَّوَكُّلِ وَسُوَيْدَاءُ قَلْبِ التَّسْلِيمِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَهِيَ خُلاصَةُ التَّوَكُّلِ وَلُبُّهُ.

وَالوَاثِقُ بِاللهِ عَلَىٰ يَقِينٍ مِنْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا حَكَمَ حُكْمًا، أَوَ قَضَىٰ بِقَضَاءٍ فَلاَ مَرَدَّ لِحُكْمِهِ ولاَ مُعَقِّبَ لَهُ، فَمَنْ حَكَمَ الله لَهُ بِحُكْمٍ، وَقَسَمَ لَهُ بِنَصِيبٍ مِنَ الرِّزْقِ أَوِ الطَّاعَةِ، فَلاَ بُدَّ مِنْ حُصُولِهِ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَقْسِمْ لَهُ بِذَلِكَ، فَلاَ سَبِيلَ لَهُ إِلَيْهِ «**مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ**»[1].

وَبِهَـٰذَا يَدْخُلُ العَبْدُ فِي دَائِرَةِ المُتَوَكِّلِينَ عَنْ مَعْرِفَةٍ بِاللَّهِ تَعَالَىٰ.

● **التَّوَكُّلُ وَالدُّعَاءُ:**

قَالَ الشَّيْخُ تَقِيُّ الدِّينِ: «ظَنَّ طَائِفَةٌ أَنَّ التَّوَكُّلَ لاَ يَحْصُلُ بِهِ جَلْبُ مَنْفَعَةٍ وَلاَ دَفْعُ مَضَرَّةٍ، بَلْ مَا كَانَ مَقْدُوراً بِدُونِ التَّوَكُّلِ فَهُوَ مَقْدُورٌ مَعَهُ، وَلَكِنَّ التَّوَكُّلَ عِبَادَةٌ يُثَابُ عَلَيْهَا مِنْ جِنْسِ الرِّضَا بِالقَضَاءِ.

وَهَـٰذَا القَوْلُ يُشْبِهُ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنَّ الدُّعَاءَ لاَ يَحْصُلُ بِهِ جَلْبُ مَنْفَعَةٍ وَلاَ دَفْعُ مَضَرَّةٍ، بَلْ هُوَ عِبَادَةٌ يُثَابُ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي عَلَيْهِ الجُمْهُورُ أَنَّ المُتَوَكِّلَ وَالدَّاعِيَ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ جَلْبِ المَنْفَعَةِ وَدَفْعِ المَضَرَّةِ مَا لاَ يَحْصُلُ لِغَيْرِهِ وَالقُرْآنُ يَدُلُّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وصححه الألباني.

عَلَىٰ ذَلِكَ ثُمَّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ سَبَبٌ عِنْدَ الأَكْثَرِينَ» ا. هـ.

فَالبَعْضُ يَرَىٰ التَّوَكُّلَ عِبَادَةً مَحْضَةً كَمَا يَرَىٰ أَنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَةٌ مَحْضَةٌ لاَ يَحْصُلُ بِهَا شَيْءٌ، وَهَـٰذَا الفَهْمُ يَشُوبُهُ النَّقْصُ، فَالتَّوَكُّلُ لاَ يَعْنِي تَرْكَ الأَسْبَابِ كُلِّيَّةً، وَإِنَّمَا يَعْنِي عَدَمَ تَعَلُّقِ القَلْبِ بِهَا، وَالدُّعَاءُ سَبَبٌ لِلاسْتِجَابَةِ كَمَا أَنَّهُ عِبَادَةٌ.

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[1].

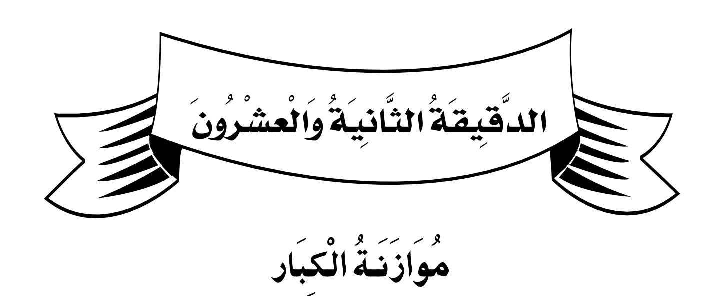
فَاللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ـ قَرَنَ الاسْتِجَابَةَ بِالدُّعَاءِ، وَاعْتَبَرَ هَـٰذَا الدُّعَاءَ عِبَادَةً، وَلِهَـٰذَا قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: «أَنَا لاَ أَحْمِلُ هَمَّ الإِجَابَةِ وَلَكِنْ أَحْمِلُ هَمَّ الدُّعَاءِ»، فَإِنَّهُ إِنْ وُفِّقَ لِلدُّعَاءِ اسْتُجِيبَ لَهُ، فَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ الْمُتَوَكِّلِينَ، وَأَنْ يُدْخِلَنَا الجَنَّةَ بِلاَ حِسَابٍ وَلاَ سَابِقَةِ عَذَابٍ.



---

(١) غافر: ٦٠.



مُوَازَنَةُ الْكِبَار

لِلنَّاسِ فِي حَيَاتِهِمْ مَوَازِينُ، يَزِنُونَ بِهَا أُمُورَ حَيَاتِهِمْ، وَلِلكِبَارِ مِنَ النَّاسِ مَوَازِينُ خَاصَّةٌ، لَيْسَتْ إِلاَّ عِنْدَهُمْ.

لَهُمْ مَرَاتِبُ وَمَنَازِلُ عَزَمُوا عَلَى الوُصُولِ إِلَيْهَا، تَعَالَوْا بِنَا لِنَتَعَرَّفَ عَلَى مَوَازِينِ الكِبَارِ، عَلَّنَا أَنْ نَتَشَبَّهَ بِهِمْ وَحَالُنَا كَحَالِ القَائِلِ:

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ ... إِنَّ التَشَبُّهَ بِالرِّجَالِ فَلاَحُ

يَقُولُ مَكْحُولٌ الدِّمَشْقِيُّ:

«مَنْ عَبَدَ اللهَ بِالخَوْفِ فَهُوَ حَرُورِيٌّ - أَيْ: مِنَ الخَوارِجِ -.

وَمَنْ عَبَدَ اللهَ بِالرَّجَاءِ، فَهُوَ مِنَ المُرْجِئَةِ - أَيْ: مِنَ الّذِينَ لاَ يُدْخِلُونَ العَمَلَ فِي مُسَمَّى الإِيمَانِ.

وَمَنْ عَبَدَ اللهَ بِالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالمَحَبَّةِ، فَهُوَ مُوَحِّدٌ».

وَهَـٰذِهِ هِيَ المُعَادَلَةُ المَطْلُوبَةُ، حَتَّى تَكُونَ العِبَادَةُ بَيْنَ الخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وبَيْنَ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ!

وَهَـٰذَا الإِمَامُ ابنُ الجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - يَبْكِي عِنْدَ المَوْتِ، فَيَقُولُ جُلَسَاؤُهُ وَمَنْ حَوْلَهُ: يَا إِمَامُ مَا الذِي يُبْكِيكَ؟ فَيَقُولُ: مَا أَخْشَى إِلاَّ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿**وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾[1]، فَبَكَى مَنْ حَوْلَهُ.

وَعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ الحَسَنِ بنِ الحُسَيْنِ رضي الله عنه قَالَ: «أَتَيْتُ بَابَ عُمَرَ بْنِ

(١) الزمر: ٤٧.

عَبْدِ العَزِيزِ فِي حَاجَةٍ، فَقَالَ لِي: إِذَا كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ إِليَّ، فَأَرْسِلْ إِليَّ رَسُولاً أَوِ اكْتُبْ لِي كِتَابًا، فَإِنِي لأَسْتَحِي مِنَ اللهِ أَنْ يَرَاكَ عَلَىٰ بَابِي».

وَنَحْنُ نَقُولُ: إِذَا سَأَلْتَ الكَرِيمَ وَمَنَعَكَ، فَاعْلَمْ أَنَّ أَمرًا مَنَعَهُ مِنَ إِجَابَةِ طَلَبِكَ وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلربَّمَا مَنَعَ الكَرِيمُ وَمَا بِهِ ... بُخْلٌ ولكِنْ سُوءُ حَظِّ الطَّالِبِ

وَرَوَىٰ المِقْدَادُ بنُ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، دُلَّنِي عَلَىٰ عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الجَنَّةَ، قَالَ: «**إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ: بَذْلَ السَّلامِ، وَحُسْنَ الْكَلامِ**»[1].

وَيُحْكَىٰ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ سَمِعَ أَحَدَ النَّاسِ يَقُولُ:

إِذَا اصْطَنَعْتَ صَنِيعَةً فَاعْمِدْ بِهَا ... للَّهِ أَوْ لِذَوِي القَرَابَةِ أَوْ دَعِ

فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: هَـٰذَا الكَلامُ يَدْعُو إِلَىٰ البُخْلِ، وَلَكِنْ أَقُولُ: أَمْطِرِ المَعْرُوفَ مَطَرًا، فَإِنْ أَصَابَ الكِرَامَ كَانُوا لَهُ أَهْلاً، وإِنْ أَصَابَ اللِئَامَ كُنْتَ لَهُ أَهْلاً... !

أَيْ: افْعَلْ المَعْرُوفَ فِي أَهْلِهِ وَفِي غَيْرِ أَهْلِهِ، فَإِنْ وَقَعَ فِي أَهْلِهِ فَهَـٰذَا هُوَ المُرَادُ، وَإِنْ لَمْ يَقَعْ فِي أَهْلِهِ، فَأَنْتَ أَهْلٌ لأَنْ تَفْعَلَ المَعْرُوفَ...

وَمِنْ أَلْطَفِ مَا جَاء عَنِ الأَئِمَةِ ـ رَحِمَهُم اللهِ ـ قَوْلُ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ ـ رَحِمَهُ الله ورَضِيَ عَنْهُ: «الانْقِبَاضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ للعَدَاوَةِ، والانْبِسَاطُ إِلِيهِمْ مَجْلَبَةٌ لِقُرَنَاءِ السُّوءِ، فَكُنْ بَيْنِ المُنْقَبِضِ وَالمُنْبَسِطِ وَصَاحِبْ بِمَعْرُوفٍ، وَجَانِبْ مَنِ اعْتَدَىٰ، وَفَارِقْ وَلَكِنْ بِالتَّي هِيَ أَحْسَنُ».

---

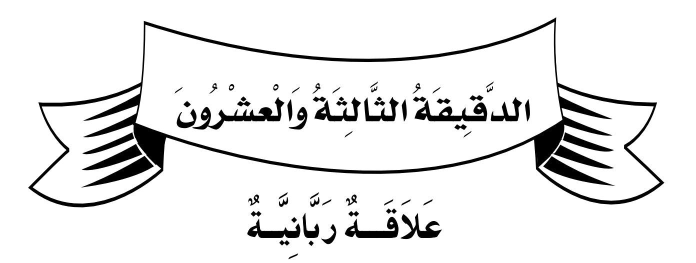
(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٨٠) (٤٦٩) عن هانئ بن يزيد، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٩): «رواه الطبراني وفيه أبو عبيدة بن عبد الله الأشجعي، روىٰ عنه أحمد بن حنبل وغيره ولم يضعفه أحد وبقية رجاله رجال الصحيح»، و صححه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٣٢).

● **الأَجَانِبُ، وَصَاحِبُ الخُلُقِ السَّيِّئِ أَجْنَبِيٌّ عِنْدَ أَهْلِهِ.**

وَمِمَّا يُحْكَىٰ فِي الأَثَرِ: أَنَّ ابْنَ لُقْمَانَ الحَكِيمِ قَالَ لَهُ: يَا أَبَتِ أَيُّ الخِصَالِ مِنَ الإِنْسَانِ خَيْرٌ؟ فَقَالَ: الدِّينُ. قَالَ: فَإِنْ كَانَت اثْنَتَيْنِ؟ قَالَ: الدِّينُ وَالمَالُ، قَالَ: فَإِنْ كَانَتْ ثَلاثًا؟ قَالَ: الدِّينُ وَالمَالُ وَالحَيَاءُ، قَالَ: فَإِنْ كَانَتْ أَرْبَعًا؟، قَالَ: الدِّينُ وَالمَالُ والحَيَاءُ وَحُسْنُ الخُلُقِ، قَالَ: فَإِنْ كَانَتْ خَمْسًا؟ قَالَ: الدِّينُ وَالمَالُ وَالحَيَاءُ وَحُسْنُ الخُلُقِ وَالسَّخَاءُ، قَالَ: فَإِنْ كَانَتْ سِتًّا؟ فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ إِذَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ الخَمْسُ خِصَالٍ، فَهُوَ نَقِيٌّ تَقِيٌّ وَللهِ تَعَالَىٰ وَلِيٌّ.

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لَنَا دُنْيَانَا التِي فِيهَا مَعَاشُنَا، وَأَصْلِحْ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادُنَا، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لَنَا فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَالمَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ.





الدَّقِيقَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ

عَلاقَــةٌ رَبَّانِيَّــةٌ

لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَعَ رَبِّه حَالٌ، وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ فِي الدُّنْيَا عَلامَةٌ يُعْرَفُ بِهَا فِي السَّمَاءِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْرَفُ بِالْفُجُورِ وَالإِثْمِ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْرَفُ بِالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ، فَابْحَثْ عَنْ نَفْسِكَ وَعَنْ عَلامَتِكَ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَا.

• **أَهْلُ اللَّيْلِ:**

وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**عَلَيْكُم بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ**»[1].

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَرْفَعُهُ قَالَ: سُئِلَ أَيُّ الصَّلاةِ أَفْضَلُ بَعْدَ الْمَكْتُوبَةِ... فَقَالَ: «أَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ الْمَكْتُوبَةِ: الصَّلاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ...»[2].

وَرَوَىٰ الإِمَامُ مُسْلِمُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ: «**إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاه وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ**»[3].

وَكَانَ الإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رضي الله عنه: يَسْتَيْقِظُ فِي اللَّيْلِ مِنْ نَوْمِه فَيُوقِدُ السِّرَاجَ، وَيَكْتُبُ الْفَائِدَةَ تَمُرُّ بِخَاطِرِهِ، ثُمَّ يُطْفِئُ سِرَاجَهُ ثُمَّ يَقُومُ مَرَّةً أُخْرَىٰ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩)، وحسَّنه الشيخ الألباني.
(٢) أخرجه مسلم (١١٦٣).
(٣) أخرجه مسلم (٧٥٧) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وأُخْرَىٰ حَتَّىٰ كَانَ يَتَعَدَّدُ مِنْهُ ذَلِكَ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً فِي اللَّيْلَةِ الوَاحِدَةِ.

قَالَ عَبْدُ اللهِ بنُ الحَسَنِ: «كَانَتْ عِنْدِي جَارِيَةٌ عَجَمِيَّةٌ وَضِيئَةٌ، وَكُنْتُ بِهَا مُعْجَبًا، وكَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ نَائِمَةً إِلَىٰ جَنْبِي، فَانْتَبَهْتُ فَلَمْ أَجِدْهَا، فَالْتَمَسْتُهَا فَلَمْ أَجِدْهَا، وَقُلْتُ لِنَفْسِي: سِرْ، فَلَمَّا وَجَدْتُهَا وَجَدْتُهَا سَاجِدَةً، وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ بِحُبِّكَ لِي اغْفِرْ لِي... ! فَقُلْتُ لَهَا: لاَ تَقُولِي هكَذَا، وَإِنَّمَا قُولِي: بِحُبِّي لَكَ اغْفِرْ لِي، فَقَالَتْ: يَا بَطَّالُ حُبُّهُ لِي أَخْرَجَنِي مِنَ الشِّرْكِ إِلَىٰ الإِسْلامِ، وَحُبُّهُ لِي أَيْقَظَ عَيْنِي وَأَنَامَ عَيْنَكَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهَا: اذْهَبِي، فَأَنْتِ حُرَّةٌ لِوَجْهِ الله تَعَالَىٰ، فَقَالَتْ: يَا مَوْلاَيَ أَسَأْتَ إِلَيَّ، كَانَ لِي أَجْرَانِ، صَارَ لِي أَجْرٌ وَاحِدٌ».

الإِمَامُ أَحْمَدُ

كَانَ إِذَا بَلَغَهُ عَنْ رَجُلٍ صَلاَحٌ أَوْ زُهْدٌ أَوْ اتِّبَاعُ الأَثَرِ، سَأَلَ عَنْهُ وَأَحَبَّ أَنْ يَجْرِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مَعْرِفَةٌ.

وَكَانَ إِذَا أَحَبَّ رَجُلاً أَحَبَّ لَهُ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَكَرِهَ لَهُ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ حُبُّهُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَىٰ يَدَيْهِ وَيَكُفَّ عَنْ ظُلْمٍ أَوْ مَكْرُوهٍ إِذَا كَانَ مِنْهُ.

وَكَانَ إِنْ حَمَلَ عَلَيْهِ احْتَمَلَ وَحَلُمَ وَقَالَ: يَكْفِينِي اللهُ، وَكَانَ كَثِيرَ التَّوَاضُعِ، يُحِبُّ الفُقَرَاءَ، يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ الحَرْبِيُّ: كَانَ أَحْمَدُ بنُ حَنْبَلٍ كَأَنَّهُ رَجُلٌ قَدْ وُفِّقَ لِلأَدَبِ وَسُدِّدَ بِالحِلْمِ وَمُلِئَ بِالعِلْمِ.

وَقَالَ الْخَلَّالُ: حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بنُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: حَضَرَ مَجْلِسَ أَبِي عَبْدِ اللهِ أَحَدُ الزَّنَادِقَةِ، فَقُلْتُ لَهُ: أَيْ عَدُوَّ اللهِ أَنْتَ فِي مَجْلِسِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مَا تَصْنَعُ؟ فَقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: مَنْ أَمَرَكُمْ بِهَـٰذَا؟ عَمَّنْ أَخَذْتُمْ هَـٰذَا؟ دَعُوا النَّاسَ يَأْخُذُونَ العِلْمَ وَيَنْصَرِفُونَ لَعَلَّ اللهَ يَنْفَعُهُمْ.

عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ الحَسَنِ العَنْبَرِيُّ

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ بنُ مَهْدِيٍّ تِلْمِيذُ عُبَيْدِ اللهِ بنِ الحَسَنِ: كُنَّا فِي جِنَازَةٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَغَلَطَ فِيهَا، فَقُلْتُ لَهُ: أَصْلَحَكَ اللهُ، القَوْلُ فِيهَا كَذَا وكَذَا، فَأَطْرَقَ سَاعَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: إِذَن أَرْجِعُ وَأَنَا صَاغِرٌ؛ لأَنْ أَكُونَ ذَنَبًا فِي الحَقِّ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ رَأْسًا فِي البَاطِلِ.

أَهْلُ الذِّكْرِ وَسَاحَاتُ الجِهَادِ

هَـٰذِهِ نَمَاذِجُ مِنْ هَدْيِ خَيْرِ القُرُونِ مِنْ جِيلِ الصَّحَابَةِ السَّابِقِينَ بِالإِحْسَانِ، مِنَ المَعْرُوفِينَ بِالقِرَاءَةِ وَالعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ أَهْلِ التَّقْوَىٰ وَأَصْحَابِ العَلاقَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّ البَرِيَّةِ أَهْلِ الصِّيَامِ وَالتَّهَجُّدِ وَسَلامَةِ الصَّدْرِ.

مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ

أَوَّلُ مُعَلِّمٍ يُهَاجِرُ إِلَى المَدِينَةِ دَاعِيَةً إِلَىٰ الإِسْلامِ يَمْضِي شَهِيدًا يَوْمَ أُحُدٍ وَهُوَ يَتْلُو القُرْآنَ فِي المَيْدَانِ، وَكَانَ آخِرُ مَا قَرَأَ: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[1].

- **وإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ!**

قَالَ الأَصْمَعِيُّ: «لَـمَّا صَفَّ قُتَيْبَةُ بنُ مُسْلِمٍ البَاهِلِيُّ جَيْشَهُ اسْتِعْدَادًا لِلْمَعْرَكَةِ، هَالَهُ أَمْرُ عَدُوِّهِ وَكَثْرَتُهُمْ، فَسَأَلَ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ وَاسِعٍ فَقِيلَ: هُوَ ذَاكَ فِي المَيْمَنَةِ جَامِعٌ عَلَىٰ قَوْسِهِ يُبَصْبِصُ بِإِصْبَعِهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، فَقَالَ قُتَيْبَةُ: تِلْكَ الإِصْبَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ سَيْفٍ شَهِيرٍ وَشَابٍّ طَرِيرٍ».

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

وَيَقُولُ مُحَمَّدُ بنُ وَاسِعٍ فِي مَقَامٍ آخَرَ: «لَوْ كَانَ لِلْذُنُوبِ رِيحٌ مَا جَلَسَ إِلَيْنَا أَحَدٌ، فَاللَّهُمَّ يَا سِتِّيرُ اسْتُرْ عَلَيْنَا وَلاَ تَفْضَحْنَا، وَقَالَ فِي مَقَامٍ آخَرَ: إِذَا أَقْبَلَ العَبْدُ بِقَلْبِهِ عَلَى اللهِ، أَقْبَلَ اللهُ بِقُلُوبِ العِبَادِ عَلَيْهِ».

سَعْدُ بن أبي وَقاص

جَاءَ فِي سِيرَةِ ابْنِ هِشَامٍ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بنِ عُمَيْرٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: «شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ حَتَّى قَالُوا: إِنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي، قَالَ سَعْدُ: أَمَّا إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لاَ أَخْرِمُ عَنْهَا، أَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ وَأَحْذِفُ فِي الأُخْرَيَيْنِ، فَقَالَ عُمَرُ: ذَاكَ الظَّنُّ فِيكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ، وَبَعَثَ عُمَرُ رِجَالاً يَسْأَلُونَ عَنْهُ فِي مَجَالِسِ الكُوفَةِ، فَكَانُوا لاَ يَأْتُونَ مَجْلِسًا إِلاَّ أَثْنَوا عَلَيْهِ خَيْرًا أَوْ قَالُوا مَعْرُوفًا حَتَّى أَتَوْا مَسْجِدًا مِنْ مَسَاجِدِهِمْ، فَقَامَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: أَبُو سَعْدَةَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِذْ سَأَلْتُمُونَا فَإِنَّهُ كَانَ لاَ يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ وَلاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ وَلاَ يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ.

فَقَالَ سَعْدٌ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ كَاذِبًا فَأَعْمِ بَصَرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ لِلْفِتَنِ.

قَالَ عَبْدُ المَلِكِ بنُ عُمَيْرٍ الرَّاوِي: فَأَنَا رَأَيْتُهُ يَتَعَرَّضُ لِلإِمَاءِ فِي السِّكَكِ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ: كَيْفَ أَنْتَ يَا أَبَا سَعْدَةَ؟ فَيَقُولُ: كَبِيرٌ مَفْتُونٌ أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ».

وَعَنْ مُصْعَبِ بنِ سَعْدِ بنِ أَبِي وَقَّاصٍ: أَنَّ رَجُلاً نَالَ مِنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، فَنَهَاهُ سَعْدُ، فَلَمْ يَنْتَهِ، فَقَالَ سَعْدُ: أَدْعُو عَلَيْكَ؟ فَلَمْ يَنْتَهِ فَدَعَا عَلَيْهِ سَعْدٌ، فَمَا بَرِحَ حَتَّى جَاءَ بَعِيرٌ نَادٌّ أَوْ نَاقَةٌ نَادَّةٌ فَخَبَطَتْهُ حَتَّى مَاتَ.

العَلاَءُ بنُ الحَضْرَمِيِّ

جَاءَ فِي «تَقْرِيبِ التَّهْذِيبِ» عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بنِ أُخْتِ سَهْمِ بنِ مَنْجَابٍ قَالَ: «سَمِعْتُ سَهْمًا يَقُولُ: غَزَوْنَا مَعَ العَلاَءِ بنِ الحَضْرَمِيِّ، قَالَ: فَدَعَا بِثَلاثِ دَعَوَاتٍ

فَاسْتَجَابَ اللهُ لَهُ فِيهِنَّ كُلِّهِنَّ، قَالَ: سِرْنَا مَعَهُ فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً وَطَلَبْنَا الوَضُوءَ، فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَقَامَ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ دَعَا اللهَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ يَا عَلِيمُ يَا حَكِيمُ يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ، إِنَّا عَبِيدُكَ وَفِي سَبِيلِكَ نُقَاتِلُ عَدُوَّكَ، فَاسْقِنَا غَيْثًا نَشْرَبُ مِنْهُ وَنَتَوَضَّأُ مِنَ الأَحْدَاثِ وَإِذَا تَرَكْنَاهُ، فَلاَ تَجْعَلْ لأَحَدٍ فِيهِ نَصِيبًا غَيْرَنَا، قَالَ: فَمَا جَاوَزْنَا غَيْرَ قَلِيلٍ فَإِذَا نَحْنُ بِنَهْرٍ مِنْ مَاءِ السَّمَاءِ يَتَدَفَّقُ قَالَ: فَنَزَلْنَا وَتَرَوَّيْنَا، وَمَلأْتُ إِدَاوَتِي، ثُمَّ تَرَكْتُهَا، فَقُلْتُ: لأَنْظُرَنَّ هَلِ اسْتُجِيبَ لَهُ، فَسِرْنَا مِيلاً أَوْ نَحْوَهُ، فَقُلْتُ لأَصْحَابِي: إِنِّي نَسِيتُ إِدَاوَتِي، فَذَهَبْتُ إِلَىٰ ذَلِكَ المَكَانِ، فَكَأَنَّمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَاءٌ قَطُّ، فَأَخَذْتُ إِدَاوَتِي فَجِئْتُ بِهَا، فَلَمَّا أَتَيْنَا المَدِينَةَ الَّتِي نَقْصِدُ لِفَتْحِهَا «دَارِينَ» كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ البَحْرُ، فَدَعَا العَلاءُ بِنَفْسِ الدُّعَاءِ، ثُمَّ اقْتَحَمَ بِنَا البَحْرَ فَوَاللهِ مَا ابْتَلَّتْ سُرُوجُنَا حَتَّىٰ خَرَجْنَا إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَجَعْنَا اشْتَكَىٰ العَلاءُ مِنْ بَطْنِهِ فَمَاتَ، فَلَمْ نَجِدْ مَا نُغَسِّلُهُ بِهِ، فَكَفَّنَّاهُ فِي ثِيَابِهِ وَدَفَنَّاهُ فَلَمَّا سِرْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ إِذَا نَحْنُ بِمَاءٍ كَبِيرٍ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: ارْجِعُوا لِنَسْتَخْرِجَهُ فَنُغَسِّلَهُ، فَرَجَعْنَا فَطَلَبْنَاهُ فَخَفِيَ عَلَيْنَا قَبْرُهُ، فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: إِنِّي سَمِعْتُهُ يَدْعُو، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ يَا عَلِيمُ يَا حَكِيمُ يَا عَلِيُّ يَا عَظِيمُ أَخْفِ جُثَّتِي وَلاَ تُطْلِعْ عَلَىٰ عَوْرَتِي أَحَدًا، قَالَ فَرَجَعْنَا وَتَرَكْنَاهُ».

أَبُو مُسْلِمٍ الخَوْلاَنِيُّ

حَدَّثَ عُثْمَانُ بنُ عَطَاءٍ قَالَ: «كَانَ أَبُو مُسْلِمٍ الخَوْلاَنِيُّ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلَهُ سَلَّمَ، فَإِذَا بَلَغَ وَسَطَ الدَّارِ كَبَّرَ وَكَبَّرَتِ امْرَأَتُهُ، قَالَ: فَيَدْخُلُ، فَيَنْزِعُ رِدَاءَهُ وَحِذَاءَهُ، فَتَأْتِيهِ بِطَعَامِهِ فَيَأْكُلُ.

فَجَاءَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَسَلَّمَ فَلَمْ تُجِبْهُ، ثُمَّ أَتَىٰ بَابَ البَيْتِ، فَكَبَّرَ وَسَلَّمَ فَلَمْ تُجِبْهُ، فَإِذَا الْبَيْتُ لَيْسَ فِيهِ سِرَاجٌ، وَإِذَا هِيَ جَالِسَةٌ بِيَدِهَا عُودٌ فِي الأَرْضِ تُقَلِّبُ بِهِ، فَقَالَ

لَهَا: مَا لَكِ؟ فَقَالَت: النَّاسُ بِخَيْرٍ وَأَنْتَ أَبُو مُسْلِمٍ، لَوْ أَنَّكَ أَتَيْتَ مُعَاوِيَةَ، فَيَأْمُرُ لَنَا بِخَدَمٍ وَيُعْطِيكَ شَيْئًا نَعِيشُ بِهِ؟

فَقَالَ: «اللَّهُمَّ مَنْ أَفْسَدَ عَلَيَّ أَهْلِي فَأَعْمِ بَصَرَهُ»، قَالَ: وَكَانَتْ مَعَهَا امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ لَهَا: أَنْتِ امْرَأَةُ مُسْلِمٍ، فَلَوْ كَلَّمْتِ زَوْجَكِ يُكَلِّمُ مُعَاوِيَةَ لِيُخْدِمَكُمْ وَيُعْطِيَكُمْ.

قَالَ فِيمَا هَـٰذِهِ المَرْأَةُ فِي مَنْزِلِهَا وَالسِّرَاجُ يُزْهِرُ؛ إِذْ أَنْكَرَتْ بَصَرَهَا، فَأَقْبَلَتْ كَمَا هِيَ إِلَىٰ أَبِي مُسْلِمٍ، فَلَمْ تَزَلْ تُنَاشِدُهُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ وَتَطْلُبُ إِلَيْهِ، قَالَ: فَدَعَا اللهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهَا بَصَرَهَا، وَرَجَعَتِ امْرَأَتُهُ إِلَىٰ حَالِهَا الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ.

حَبِيبٌ العَجْمِيُّ

كَانَ حَبِيبٌ العَجَمِيُّ مِمَّنْ يُجَابُ دُعَاؤُهُمْ، رُوِيَ عَنْهُ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جِيرَانِهِ وَلَدَتْ غُلَامًا جَمِيلاً لَكِنَّهُ كَانَ أَقْرَعَ الرَّأْسِ، فَجَاءَ بِهِ أَبُوهُ إِلَىٰ حَبِيبٍ بَعْدَمَا كَبِرَ الغُلَامُ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ ابْنِي هَـٰذَا وَإِلَىٰ جَمَالِهِ، وَقَدْ بَقِيَ أَقْرَعَ الرَّأْسِ كَمَا تَرَىٰ، فَادْعُ اللهَ فَجَعَلَ حَبِيبٌ يَبْكِي وَيَدْعُو لِلْغُلَامِ، وَيَمْسَحُ بِالدُّمُوعِ رَأْسَهُ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّىٰ اسْوَدَّ رَأْسُهُ مِنْ أُصُولِ الشَّعْرِ، فَلَمْ يَزَلْ بَعْدُ ذَلِكَ الشَّعْرُ يَنْبُتُ حَتَّىٰ صَارَ كَأَحْسَنِ النَّاسِ شَعَرًا.

وَقَالَ السَّرِيُّ بنُ يَحْيَىٰ: اشْتَرَىٰ أَبُو مُحَمَّدٍ حَبِيبٌ العَجَمِيُّ طَعَامًا فِي مَجَاعَةٍ أَصَابَتِ النَّاسَ، فَقَسَّمَهُ عَلَىٰ المَسَاكِينِ، ثُمَّ أَخَاطَ الأَكْيِسَةَ، فَجَعَلَهَا تَحْتَ فِرَاشِهِ ثُمَّ دَعَا اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فَجَاءَ وَأَصْحَابُ الطَّعَامِ يَتَقَاضَونَهُ، فَأَخْرَجَ تِلْكَ الأَكْيَاسَ، فَإِذَا هِيَ مَمْلُوءَةٌ دَرَاهِمَ، فَوَزَنَهَا فَإِذَا هِيَ حُقُوقُهُمْ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِمْ.

إِبْرَاهِيمُ بنُ أَدْهَمَ

قِيلَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ فِي أَحَدِ أَسْفَارِهِ: هَـٰذَا السَّبُعُ قَدْ ظَهَرَ لَنَا: قَالَ: أَرِنِيهِ،

فَلَمَّا رآهُ قَالَ: يا قَسْوَرَةُ إِنْ كُنْتَ أُمِرْتَ فِينَا بِشَيْءٍ، فَامْضِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ، وَإِلاَّ فَعَوْدُكَ عَلَىٰ بَدْئِكَ.

قَالَ: فَوَلَّىٰ السَّبْعُ ذَاهِبًا، قَالَ: فَتَعَجَّبْتُ كَيْفَ فَهِمَ السَّبْعُ كَلامَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ، فَأَقْبَلَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْنَا وَقَالَ: قُولُوا: اللَّهُمَّ احْرُسْنَا بِعَيْنِكَ الَّتِي لاَ تَنَامُ وَاكْفِنَا بِرُكْنِكَ الَّذِي لاَ يُرَامُ، وَارْحَمْنَا بِقُدْرَتِكَ عَلَيْنَا، فَلاَ نَهْلِكُ وَأَنْتَ رَجَاؤُنَا.

وَقَالَ بَقِيَّةُ بنُ الوَلِيدِ: كُنَّا فِي البَحْرِ، فَهَبَّتِ الرِّيَاحُ، وَهَاجَتِ الأَمْوَاجُ فَبَكَىٰ النَّاسُ وَصَاحُوا، فَقِيلَ لِمَعْيُوفٍ ـ أَوْ أَبُو مَعْيُوفٍ: هَـٰذَا إِبْرَاهِيمُ بنُ أَدْهَمَ لَوْ سَأَلْتَهُ أَنْ يَدْعُوَ الله عَزَّ وَجَلَّ؟

فَأَتَاهُ فَإِذَا هُوَ نَائِمٌ فِي نَاحِيَةِ السَّفِينَةِ مَلْفُوفٌ رَأْسُهُ فِي كِسَاءٍ، فَدَنَا مِنْهُ فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ أَمَا تَرَىٰ مَا النَّاسُ فِيهِ؟ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «اللَّهُمَّ قَدْ أَرَيْتَنَا قُدْرَتَكَ فَأَرِنَا رَحْمَتَكَ»، قَالَ: فَهَدَأَتِ السَّفِينَةُ وَسَكَنَتِ الرِّيحُ.

مَا مَضَىٰ كَانَ نَمَاذِجَ لِرِجَالٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الله تَعَالَىٰ وُدٌّ، وَكَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[1]، وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الله تَعَالَىٰ عَلاقَاتٌ رَبَّانِيَّةٌ، إِذَا دَعَوُا اسْتُجِيبَ لَهُمْ هكَذَا عُرِفُوا بَيْنَ أَهْلِ الأَرْضِ وَعُرِفُوا كَذَلِكَ بَيْنَ أَهْلِ السَّمَاءِ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ بِوَاسِعِ كَرَمِهِ وَجَمِيلِ عَفْوِهِ أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ إِذَا دَعَوْا اسْتُجِيبَ لَهُمْ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ عَلَىٰ الأَمْرِ وَالعَزِيمَةَ عَلَىٰ الرُّشْدِ . . .



(١) مريم: ٩٦.



الصَّدَقَةُ

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾(١).

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾(٢).

وَقَالَ ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»(٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ. وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ. فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ**»(٤).

وَقَالَ ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا إِلاَّ كَانَ فِي حِفْظِ اللَّهِ مَا دَامَ مِنْهُ عَلَيْهِ خِرْقَةٌ**»(٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»(٦).

---

(١) الذاريات: ١٥ـ١٩.
(٢) سبأ: ٣٩.
(٣) أخرجه البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٥) أخرجه الترمذي (٢٤٨٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وضعفه الألباني.
(٦) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «**أنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلانٍ كَذَا، وَلِفُلانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلانٍ**»(١).

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ»: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾(٢)، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ**». فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ(٣).

- **شُرُوطُ الْقَبُولِ:**

لِقَبُولِ أَيِّ عَمَلٍ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، شَرْطَانِ: **الصِّحَّةُ وَالإِخْلاصُ.**

فَالصِّحَّةُ: أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ حَلالاً طَيِّبًا، فَاللهُ تَعَالَىٰ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا.

أَمَّا الإِخْلاصُ: فَهُوَ أَنْ يَبْتَغِيَ بِهَـٰذَا الْعَمَلِ وَجْهَ اللهِ لاَ سِوَاهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٣٢).

(٢) آل عمران: ٩٢.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).

قَالَ ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

مِنْ هُنَا كَانَ لَا بُدَّ لِلْمُتَصَدِّقِ أَنْ يُرَاعِيَ هَـٰذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ.

فَلَا يَسْرِقُ لِكَيْ يَتَصَدَّقَ، وَلَا يَتَصَدَّقُ لِكَيْ يُقَالَ: كَرِيمٌ، يَقُولُ رَبُّ الْعِزَّةِ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٢).

وَيَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾(٣).

وَقَالَ ﷺ: «**الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ**»(٤).

وَقَالَ ﷺ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزاً، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللهُ**»(٥).

قَالَ يَحْيَىٰ بنُ مُعَاذٍ: «مَا أَعْرِفُ حَبَّةً تَزِنُ جِبَالَ الدُّنْيَا إِلاَّ الحَبَّةُ مِنَ الصَّدَقَةِ».

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: «مَنْ وَثِقَ بِاللهِ فِي رِزْقِهِ، زَادَ فِي حُسْنِ خُلُقِهِ، وَأَعْقَبَهُ الحِلْمَ، وَسَخَتْ نَفْسُهُ فِي نَفَقَتِهِ، وَقَلَّتْ وَسَاوِسُهُ فِي صَلَاتِهِ».

وَقَالَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «إِنَّ الأَعْمَالَ تَبَاهَتْ فَقَالَتِ الصَّدَقَةُ: أَنَا أَفْضَلُكُنَّ».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البقرة: ٢٦٤.

(٣) البقرة: ٢٦٣.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَقَالَ عُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْوَعَ مَا كَانُوا قَطُّ وَأَعْطَشَ مَا كَانُوا قَطُّ، وَأَعْرَىٰ مَا كَانُوا قَطُّ، فَمَنْ أَطْعَمَ للهِ عَزَّ وَجَلَّ أَشْبَعَهُ اللهُ، وَمَنْ سَقَىٰ للهِ - عَزَّ وَجَلَّ - سَقَاهُ اللهُ، وَمَنْ كَسَا كَسَاهُ اللهُ».

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ: «لَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أَغْنِيَاءَ لَا فَقِيرَ مِنْكُمْ، وَلَكِنَّهُ ابْتَلَىٰ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ».

وَيُقَالُ: إِنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَرَّ بِنَخَّاسٍ وَمَعَهُ جَارِيَةٌ، فَقَالَ الْحَسَنُ لِلنَّخَّاسِ: أَتَرْضَىٰ فِي ثَمَنِهَا بِالدِّرْهَمِ وَالدِّرْهَمَيْنِ؟ فَقَالَ النَّخَّاسُ: لَا، فَقَالَ الْحَسَنُ: اذْهَبْ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَضِيَ فِي الْحُورِ الْعِينِ بِالْفَلْسِ وَاللُّقْمَةِ».

قَالَ الْمُبَرِّدُ: «سَمِعَ الْعَطْوِيُّ رَجُلاً يُحَدِّثُ أَنَّ عُمَرَ بنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً قَالَ لَهُ: إِنَّ فُلَانًا قَدْ جَمَعَ مَالاً، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: وَهَلْ جَمَعَ أَيَّامًا تُكَافِئُ الْمَالَ؟».

اعْلَمْ أَنَّ الْمَالَ إِنْ كَانَ مَفْقُودًا، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ حَالَ العَبْدِ القَنَاعَةُ وَقِلَّةُ الحِرْصِ، وَإِنْ كَانَ مَوْجُودًا فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ حَالَهُ الإِيثَارُ وَالسَّخَاءُ وَاصْطِنَاعُ المَعْرُوفِ وَالتَّبَاعُدُ عَنِ الشُّحِّ وَالبُخْلِ، فَإِنَّ السَّخَاءَ مِنْ أَخْلَاقِ الأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَهُوَ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ التِّجَارَةِ.

قَالَ الشَّعْبِيُّ: «مَنْ لَمْ يرَ نَفْسَهُ إِلَىٰ ثَوَابِ الصَّدَقَةِ أَحْوَجَ مِنَ الفَقِيرِ إِلَىٰ صَدَقَتِهِ، فَقَدْ أَبْطَلَ صَدَقَتَهُ، وَضَرَبَ بِهَا وَجْهَهُ».

وَقَالَ عَبْدُ العَزِيزِ بنُ عُمَيْرٍ: «الصَّلَاةُ تُبَلِّغُكَ نِصْفَ الطَّرِيقِ، وَالصَّوْمُ يُبَلِّغُكَ بَابَ المَلِكِ وَالصَّدَقَةُ، تُدْخِلُكَ عَلَيْهِ».

قَالَ ﷺ: «**أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ**»[1].

وَالبُخْلُ وَالعِيَاذُ بِاللهِ إِذَا دَخَلَ قَلْبَ الرَّجُلِ أَغْلَقَ دُونَهُ أَبْوَابَ الإِنْفَاقِ عَلَىٰ

(١) أخرجه مسلم (٩٩٤) عن ثوبان رضي الله عنه.

نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَعَامَّةِ النَّاسِ.

• صُورَةُ الْمُجْتَمَعِ الْفَاضِلِ:

تَحَدَّثَ الْفَارَابِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ عَنِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْفَاضِلَةِ وَوَضَعُوا لِهَٰذِهِ الْمُجْتَمَعَاتِ عَلَامَاتٍ، لَكِنِ اتَّسَمَ كَلَامُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ بِالْخَيَالِيَّةِ، وَالصُّورَةُ الَّتِي يَصْعُبُ تَحْقِيقُهَا فِي عَالَمِ الإِنْسَانِ، لَكِنَّ الإِسْلَامَ بِتَشْرِيعَاتِهِ وَقَوَانِينِهِ الْحَكِيمَةِ الْمُتَنَاسِقَةِ مَعَ فِطْرَةِ الإِنْسَانِ الْبَشَرِيَّةِ هِيَ الْكَفِيلَةُ بِإِيجَادِ هَٰذِهِ الْمَدِينَةِ الْفَاضِلَةِ أَوْ الْمُجْتَمَعِ الْمُتَرَاحِمِ، وَلَا عَجَبَ فَقَدْ تَحَقَّقَتْ هَٰذِهِ الأُمْنِيَةُ فِي الْعُصُورِ الزَّاهِرَةِ مِنَ الأُمَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ فِي عَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَفِي فَتَرَاتٍ أُخْرَىٰ مِنَ الدُّوَلِ الإِسْلَامِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالزَّكَاةُ وَالصَّدَقَةُ حِينَمَا رَغَّبَ فِيهَا الإِسْلَامُ كَانَتْ بَابًا عَظِيمًا لِتَحْقِيقِ هَٰذِهِ الأُمْنِيَةِ، أُمْنِيَةُ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ الَّذِي يَخْشَىٰ فِيهِ الْمُسْلِمُ أَنْ يَنَامَ وَجَارُهُ جَائِعٌ، وَقَدْ هَدَفَ الإِسْلَامُ إِلَىٰ تَحْقِيقِ غَايَاتٍ عَنْ طَرِيقِ الصَّدَقَاتِ مِنْ هَٰذِهِ النَّاحِيَةِ.

أَوَّلاً: أَنْ يَتَحَقَّقَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعِهِمْ صُورَةُ التَّكَافُلِ الاجْتِمَاعِيِّ: «**إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الأَعْضَاءِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[(١)].

وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[(٢)].

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»[(٣)].

فَالْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ، مُجْتَمَعٌ مُتَكَامِلٌ مُتَرَاحِمٌ، الْغَنِيُّ فِيهِ يَحْنُو عَلَىٰ الْفَقِيرِ، وَالْفَقِيرُ فِيهِ لَا يَحْقِدُ عَلَىٰ الْغَنِيِّ وَلَا يَتَمَنَّىٰ زَوَالَ النِّعْمَةِ مِنْ عِنْدِهِ، بَلْ يَتَمَنَّىٰ لَهَا الزِّيَادَةَ، وَأَنَّىٰ لِلنِّعْمَةِ أَنْ تَزُولَ مِنْ عِنْدِ الْمُسْلِمِ وَهُوَ يُحَصِّنُهَا بِالزَّكَاةِ وَيُنَمِّيهَا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٦٠١٥)، ومسلم (٢٦٢٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

بِالصَّدَقَةِ، فَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**»(١).

ثَانِيًا: الصَّدَقَاتُ تُطَبِّعُ الْمُسْلِمَ عَلَىٰ خُلُقِ الْكَرَمِ، فَهِيَ تُعَوِّدُ الْمُسْلِمَ عَلَىٰ الْبَذْلِ وَتَقْتَلِعُ مِنْ نَفْسِهِ جُذُورَ الشُّحِّ وَأَرْكَانَ الْبُخْلِ، فَحِينَمَا يَعْلَمُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ(٢)، فَيُحَاوِلُ أَنْ يَخْطُو خُطَاهُ وَيَسِيرُ فِي دَرْبِهِ ﷺ.

وَخُلُقُ الْكَرَمِ يُعَدُّ خُلُقًا بَشَرِيًّا قَدْ تَجِدُهُ حَتَّىٰ فِي غَيْرِ الْمُسْلِمِ، وَالْحِكَايَاتُ عَنِ الْعَرَبِ قَبْلَ الإِسْلَامِ فِي الْكَرَمِ وَالْجُودِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَىٰ، فَحَرِيٌّ بِالْمُسْلِمِ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهَـٰذَا الْخُلُقِ، وَيَجْعَلَهُ للهِ تَعَالَىٰ، وَلَا يَجْعَلَهُ لِلْمُبَاهَاةِ أَوِ الْمُفَاخَرَةِ.

ثَالِثًا: الصَّدَقَةُ تُقَوِّي آصِرَةَ الأُخُوَّةِ وَالْمَحَبَّةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَالْمُسْلِمُ الَّذِي يُؤَدِّي زَكَاةَ مَالِهِ، وَالْمُسْلِمُ الَّذِي يَتَصَدَّقُ مِنْ مَالِهِ عَلَىٰ مَنْ يَسْتَحِقُّ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّمَا يَبْنِي بِذَلِكَ جُسُورًا مِنَ الْحُبِّ وَالتَّآلُفِ فِي الْمُجْتَمَعِ الإِسْلَامِيِّ، وَلَنْ يُحْرَمَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ دَعْوَةِ الْمِسْكِينِ أَوِ الْمُحْتَاجِ، إِمَّا بِالزِّيَادَةِ أَوْ بِالْبَرَكَةِ أَوْ بِالْقَبُولِ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَفَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ مُجْتَمَعٍ يَسُودُ الْحُبُّ بَيْنَ أَفْرَادِهِ، وَبَيْنَ مُجْتَمَعٍ مَلِيءٍ حِقْدًا وَحَسَدًا وَبُغْضًا!

● **أَيُّهُمَا أَحَبُّ: إِخْفَاءُ الصَّدَقَةِ أَمْ إِظْهَارُهَا؟**

اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ: فَالْبَعْضُ قَالَ: الإِخْفَاءُ فِي الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ، وَالْبَعْضُ قَالَ: الإِظْهَارُ فِيهَا أَفْضَلُ.

وَقَبْلَ التَّحْدِيدِ، فَهُنَاكَ مُمَيِّزَاتٌ لِلإِخْفَاءِ، وَأُخْرَىٰ لِلإِظْهَارِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦)، ومسلم (٢٣٠٨) عن ابن عباس رضي الله عنه.

أوْلاً: مُمَيِّزَاتِ الإخْفَاء: أَبْقَى لِلسَّتْرِ، وَحِفَاظًا عَلَى التَّعَفُّفِ، وَيَصُونُ أَصْحَابَ الْحَاجَاتِ الَّذِينَ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا.

وَفِي الْحَدِيث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ:... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ...**»(١).

ثَانِيًا: إِنَّ صَاحِبَ الصَّدَقَةِ يَسْلَمُ مِن قُلُوبِ النَّاسِ وَحِقْدِهِمْ وَرُبَّمَا حَسَدِهِمْ.

يَقُولُ أَبُو أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيّ: «إِنِّي لأَتْرُكُ لُبْسَ الثَّوْبِ الْجَدِيدِ خَشْيَةَ أَنْ يُحْدِثَ فِي جِيرَانِي حَسَدًا».

فَإِخْفَاءُ الصَّدَقَةِ أَوْعَى لِسَلَامَةِ الْقُلُوبِ مِن إِظْهَارِهَا.

ثَالِثًا: صَدَقَةُ السِّرِّ تَكُونُ أَسْلَمَ لِقَلْبِ الْمُتَصَدِّقِ مِن صَدَقَةِ الْعَلَانِيَةِ.

فَالْمُتَصَدِّقِ فِي الْخَفَاءِ يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الشِّرْكِ أَوِ الْمَنِّ أَوِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، وَرُوِيَ أَنَّ أَحَدَهُمْ قُدِّمَتْ إِلَيْهِ صَدَقَتُهُ فِي الْعَلَانِيَةِ فَرَفَضَهَا، ثُمَّ قُدِّمَتْ إِلَيْهِ فِي السِّرِّ فَقَبِلَهَا، فَلَمَّا سُئِلَ فِي ذَلِكَ، قَالَ: أَمَّا الأَوَّلُ فَقَدْ أَسَاءَ الأَدَبَ فِي مَعْرُوفِهِ فَرَدَدْتُهُ. وَالثَّانِي أَعْمَلَ الأَدَبَ فِي مَعْرُوفِهِ فَقَبِلْتُهُ.

رَابِعًا: إِنَّ إِظْهَارَ الصَّدَقَةِ يُعَدُّ ذُلًّا وَامْتِهَانًا، وَلَيْسَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: «لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَذْكُرُ صَدَقَتَهُ وَلَا يَتَحَدَّثُ بِهَا، لَقَبِلْتُ صَدَقَتَهُ».

أَمَّا الإِظْهَارُ فَفِيهِ أَيْضًا فَضَائِلُ، فَهِيَ:

أوْلاً: إِظْهَارٌ لِنِعْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَطْبِيقٌ لأَوَامِرِهِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

رَبّكَ فَحَدّثْ﴾[١]. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً إِلاَّ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَهَا عَلَيْهِ**»[٢].

ثَانِيًا: الْمُتَصَدِّقُ فِي الْعَلَانِيَةِ يَحُثُّ غَيْرَهُ عَلَىٰ التَّصَدُّقِ مِثْلَهُ، وَيَكُونُ كَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً.

فَفِي الْحَدِيث: أَنَّ رَجُلاً دَخَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَشَكَا إِلَيْهِ الْحَاجَةَ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ لِلتَّصَدُّقِ، فَقَامَ رَجُلٌ أَمَامَ الْجَمِيعِ وَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، فَتَبِعَهُ النَّاسُ يَتَصَدَّقُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَن سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»[٣].

ثَالِثًا: إِظْهَارُ الصَّدَقَةِ يُسْقِطُ الْجَاهَ وَالْمَنْزِلَةَ وَالْكِبْرِيَاءَ، يَقُولُ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ لِتِلْمِيذِهِ: أَظْهِرِ الأَخْذَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ آخِذاً، فَإِنَّكَ لَا تَخْلُو مِنْ أَحَدِ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ تَسْقُطُ مِنْ قَلْبِهِ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ أَوْ رَجُلٍ تَزْدَادُ فِي قَلْبِهِ بِإِظْهَارِكَ الصَّدَقَةَ، فَذَلِكَ الَّذِي يُرِيدُهُ مِنْهُ؛ لأَنَّهُ يَزْدَادُ ثَوَابًا بِزِيَادَةِ حُبِّهِ لَهُ وَتَعْظِيمِهِ إِيَّاهُ.

رَابِعًا: صَدَقَةُ الْعَلَانِيَةِ - أَحْيَانًا - تَقْضِي عَلَىٰ الشِّرْكِ وَالْمُرَاءَاةِ، وَتَدْعُو إِلَىٰ الإِخْلاصِ، فَقَدْ يَتَسَاوَىٰ عِنْدَ الْكَثِيرِ السِّرُّ وَالْعَلَنُ فِي الإِخْلَاصِ، وَأَصْحَابُ الْقُلُوبِ الْمُخْلِصَةِ لَا يَنْظُرُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ إِلَّا إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَرِضَاهُ.

- **الأَفْضَلُ النَّظَرُ إِلَى الْحَالِ:**

فَأَفْضَلُ الدَّرْبَيْنِ فِي الصَّدَقَةِ - السِّرِّ وَالْعَلَنِ - هُوَ الَّذِي يَتَحَرَّىٰ فِيهِ صَاحِبُهُ

---

(١) الضحىٰ: ١١.
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/ ١٣٢): «رواه أحمد وفيه يحيىٰ بن عبيد الله بن موهب، وهو ضعيف».
(٣) أخرجه مسلم (١٠١٧) عن المنذر بن جرير عن أبيه.

الإِخْلاصَ، وَيَنْظُرُ فِيهِ إِلَىٰ الْحَالِ، فَهُنَاكَ مَوَاضِعُ يَكُونُ الْعَلَنُ فِيهِ أَنْفَعُ، خَاصَّةً إِذَا أَمِنَ الْعَبْدُ أَنْ يَقَعَ فِي الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ وَكَانَ هَـٰذَا الْعَلَنُ مَدْعَاةً لِغَيْرِهِ لِكَيْ يَقْتَدِيَ بِهِ، وَهُنَاكَ مَوَاضِعُ يَحْسُنُ فِيهَا الإِخْفَاءُ، خَاصَّةً عَلَىٰ الْمُتَعَفِّفِينَ وَأَصْحَابِ الْعَثَرَاتِ الْكِرَامِ.

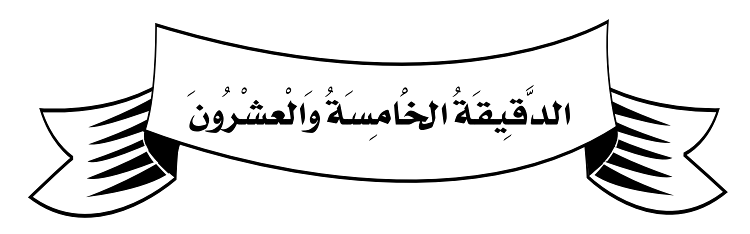
يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾[١].

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾[٢].

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ، أَنْ يَجْعَلَ الْمَالَ فِي أَيْدِينَا لاَ فِي قُلُوبِنَا، وَأَنْ يَجْعَلَ خَيْرَ أَمْوَالِنَا للهِ . . . اللَّهُمَّ آمِين.



(١) الرعد: ٢٢.
(٢) فاطر: ٢٩، ٣٠.



الدَّقِيقَةُ الخَامِسَةُ وَالعِشْرُونَ

الْخَوْفُ من اللَّه

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. وَبَعْدُ:

الْخَوْفُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، سَبِيلٌ مِنْ سُبُلِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَمَقَامٌ مِنْ مَقَامَاتِ الصَّالِحِينَ، وَمَنْزِلَةٌ خَاصَّةٌ لأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ بِاللهِ تَعَالَى، وَحَالٌ مِنْ أَحْوَالِ الْمُقَرَّبِينَ، فَكُلَّمَا عَرَفْتَ إِنْسَانًا وَتَقَرَّبْتَ مِنْهُ، زِدْتَ مِنْ جَانِبِهِ أَمْنًا إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كُلَّمَا تَقَرَّبْتَ مِنْهُ وَعَرَفْتَهُ، زِدْتَ مِنْهُ خَشْيَةً.

الخَوْفُ: تَأَلُّمُ القَلْبِ وَاحْتِرَاقُهُ بِسَبَبِ تَوَقُّعِ مَكْرُوهٍ فِي المُسْتَقْبَلِ.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾(١).

قَالَ القُرْطُبِيُّ: «الْمَعْنَى: خَافَ مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ لِلحِسَابِ، فَتَرَكَ المَعْصِيَةَ».

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ التِّرْمِذِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ: جَنَّةٌ لِخَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَجَنَّةٌ لِتَرْكِهِ شَهْوَتَهُ.

وَفِي الحَدِيثِ القُدْسِيِّ، قَالَ تَعَالَى: «**وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَجْمَعُ لِعَبْدِي أَمْنَيْنِ وَلا خَوْفَيْنِ، إِنْ هُوَ أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي، وَإِنْ هُوَ خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ أَجْمَعُ عِبَادِي**»(٢).

---

(١) الرحمن: ٤٦.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٨) عن شداد بن أوس رضي الله عنه، وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٢): «حديث حسن».

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**»، فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ لَهُمْ حَنِين(١).

وَقَالَ يَزِنُ بنُ حَوْشَبٍ مُحَدِّثًا: «مَا رَأَيْتُ أَخْوَفَ مِنَ الحَسَنِ، وَعُمَرَ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ كَأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ إِلاَّ لَهُمَا».

وكَانَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسْأَلُ حُذَيْفَةَ: «أَنْشُدُكَ اللهَ هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ - يَعْنِي فِي المُنَافِقِينَ - فَيَقُولُ: لَا وَلَا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا».

وَهَـٰذَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه وَهُوَ يَسِيرُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالخَوْفِ يَقُولُ: لَوْ نَادَىٰ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ دَاخِلُونَ الجَنَّةَ كُلُّكُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِدًا، لَخِفْتُ أَنْ أَكُونَ هُوَ، وَلَوْ نَادَىٰ مُنَادٍ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ دَاخِلُونَ النَّارَ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِدًا لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ هُوَ».

قَالَ ابنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: «أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ».

وَقَالَ أَبُو القَاسِمِ الحَكِيمُ: «مَنْ خَافَ شَيْئًا هَرَبَ مِنْهُ، وَمَنْ خَافَ اللهَ هَرَبَ إِلَيْهِ».

وَقَالَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَلِكِ امْرَأَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ: «يَكُونُ مِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ صَوْمًا وَصَلاَةً مِنْ عُمَرَ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشَدَّ خَوْفًا مِنْ رَبِّهِ مِنْ عُمَرَ، كَانَ إِذَا صَلَّىٰ العِشَاءَ قَعَدَ فِي المَسْجِدِ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّىٰ يَغْلِبَهُ النَّوْمُ، ثُمَّ يَنْتَبِهُ فَلاَ يَزَالُ يَدْعُو رَافِعًا يَدَيْهِ يَبْكِي حَتَّىٰ تَغْلِبَهُ عَيْنَاهُ».

وَحِينَ دَخَلَ العَلاَءُ بنُ مُحَمَّدٍ عَلَىٰ عَطَاءٍ السُّلَيْمِيِّ وَقَدْ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لامْرَأَتِهِ أُمِّ جَعْفَرٍ: «مَا شَأْنُ عَطَاءٍ؟ قَالَتْ: سَجَرَتْ جَارَتُنَا التَّنُّورَ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَخَرَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

مَغْشياً عَلَيْه ؛ وَلِهَذَا فَإِنَّ سُفْيَانَ يَبْكِي يَقُولُ : أَخَافُ أَنْ أُسْلَبَ الإِيمَانَ عِنْدَ المَوْتِ» .

إِنَّ قُوَّةَ المَرَاقَبَةِ وَالمُحَاسَبَةِ وَالمُجَاهَدَةِ بِحَسَبِ قُوَّةِ الخَوْفِ الَّذِي هُوَ تَأَلُّمُ القَلْبِ وَاحْتِرَاقُهُ ، وَقُوَّةُ الخَوْفِ بِحَسَبِ قُوَّةِ المَعْرِفَةِ بِجَلاَلِ الله وَصِفَاته وَأَفْعَاله ، وَبِعُيُوبِ النَّفْسِ وَمَا بَيْنَ يَدَيْهَا مِن الأَخْطَارِ وَالأَهْوَالِ ، وَأَقلُّ دَرَجَاتِ الخَوْفِ مِمَّا يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي الأَعْمَالِ أَنْ يُمْنَعَ عَنِ المَحْظُورَات ، وَيُسَمِّي الكَفُّ الحَاصِلُ عَنِ المَحْظُورَات وَرَعًا ، فَإِنَّ زَادَتْ قُوَّتُه كَفَّ عَمَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْه إِمْكَانُ التَّحْرِيمِ ، فَكَفَّ أَيْضًا عَمَّا لاَ يُتيَقَّنُ تَحْرِيمُهُ .

وَهَـٰذَا الْخَوْفُ تَارَةً يَنْبُعُ مِن الْعِلْمِ بِالله تَعَالَىٰ وَمَعْرِفَةِ صِفَاته مِن أَنَّهُ سُبْحَانَهُ الْقَوِيُّ وَأَنَّهُ لَوْ أَهْلَكَ الْعَالَمِينَ لَمْ يُبَالِ وَلَمْ يَمْنَعْهُ مَانِعٌ ، وَتَارَةً يَكُونُ لِكَثْرَةِ الْجِنَايَةِ مِنَ الْعَبْدِ بِمُقَارَفَةِ الْمَعَاصِي وَخَوْفِه مِن الْعِقَابِ ، وَتَارَةً يَكُونُ بِالأَمْرَيْنِ مَعًا .

وَأَكْثَرُ النَّاسِ خَوْفًا مِن الله تَعَالَىٰ ، أَعْرَفُهُمْ بِه ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا فِي حَدِيث أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**وَاللَّه إِنِّي لأَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ**»[1] .

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[2] ؛ إِذْ إِنَّ الْمَعْرِفَةَ أَوْرَثَتْ فِي قُلُوبِهِمْ إِجْلالاً وَخَوْفًا .

يَقُولُ أَبُو الْقَاسِمِ الْحَكِيمُ : «مَنْ خَافَ شَيْئًا هَرَبَ مِنْهُ ، وَمَنْ خَافَ اللهَ هَرَبَ إِلَيْهِ» .

وَقِيلَ لِذِي النُّونِ الْمِصْرِيِّ : مَتَىٰ يَكُونُ الْعَبْدُ خَائِفًا؟

فَقَالَ : «إِذَا أَنْزَلَ نَفْسَهُ مَنْزِلَةَ السَّقِيمِ الَّذِي يَحْتَمِي مَخَافَةَ طُولِ السَّقَامِ» .

وَالْعَارِفُ بِصِفَاتِ الله تَعَالَىٰ ، يَقْمَعُ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ ، وَيُكَدِّرُ لَذَّاتِهَا ، فَتَصِيرُ

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٢٢) عن عائشة رضي الله عنها بإسناد صحيح .

(٢) فاطر : ٢٨ .

الْمَعَاصِي الْمَحْبُوبَةُ عِنْدَهُ مَكْرُوهَةً، كَمَا يَصِيرُ الْعَسَلُ مَكْرُوهًا عِنْدَ مَنْ يَشْتَهِيهِ إِذَا عَرَفَ أَنَّ فِيهِ سُمًّا فَتَتَأَدَّبُ الْجَوَارِحُ وَيَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ الْخُشُوعُ وَالْمَسْكَنَةُ وَيُفَارِقُهُ الْكِبْرُ وَالْحَسَدُ وَالْحِقْدُ، وَلَا يَكُونُ لَهُ شُغْلٌ إِلَّا الْمُرَاقَبَةَ وَالْمُحَاسَبَةَ وَالْمُجَاهَدَةَ، فَيُرَاقِبُ تَحَرُّكَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ وَأَقْوَالَهُ، وَيُرَاقِبُ تَصَرُّفَاتِهِ وَسُلُوكِيَّاتِهِ، وَهَـٰذَا لا يَمْنَعُ الْوُقُوعَ فِي الْمَعَاصِي، فَالإِنْسَانُ مَحِلُّ الْخَطَأِ وَالنِّسْيَانِ، لَكِنَّهَا لَا تَكُونُ كَبِيرَةً مِنَ الْكَبَائِرِ، وَإِنَّمَا صَغَائِرُ الذُّنُوبِ - وَاللَّمَمُ مِنْهَا - الَّتِي يُزِيلُهَا الاسْتِغْفَارُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ.

فَحَالُ مَنْ يَخْشَىٰ اللهَ تَعَالَىٰ وَيَخَافُهُ، إِمَّا فِي عَمَلٍ يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ تَعَالَىٰ، أَوْ حَالُ مُسْتَغْفِرٍ مِنْ ذَنْبٍ وَقَعَ فِيهِ.

● **دَرَجَاتُ الْخَوْفِ:**

الْخَوْفُ حَالٌ مَحْمُودٌ، لَكِنْ لَيْسَ كُلُّ خَوْفٍ مَحْمُودًا، وَالْبَعْضُ يَظُنُّ أَنَّهُ كُلَّمَا زَادَ الْخَوْفُ زَادَ الأَجْرُ وَكَانَ الْحَالُ أَفْضَلَ، لَكِنَّ الْخَوْفَ الْمَحْمُودَ هُوَ الْخَوْفُ الْمُعْتَدِلُ الَّذِي يَدْعُو صَاحِبَهُ إِلَىٰ الْعَمَلِ لَا إِلَىٰ الْقُنُوطِ وَالْيَأْسِ؛ الْخَوْفُ الَّذِي يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَىٰ الْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ الْخَالِيَةِ مِنَ الشِّرْكِ، وَالْخَوْفُ الْمَحْمُودُ الْمَطْلُوبُ هُوَ الْخَوْفُ الَّذِي يَجْعَلُ صَاحِبَهُ دَائِمًا عَلَىٰ الطَّاعَةِ لَا الْخَوْفُ الْوَقْتِيُّ السَّرِيعُ الَّذِي يَنْتَهِي بِانْتِهَاءِ الْمُؤَثِّرِ، فَقَدْ يَقْرَأُ الإِنْسَانُ الْقُرْآنَ فَيَمُرُّ عَلَىٰ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ الْعَذَابِ فَيَنْقَبِضُ صَدْرُهُ وَيَشْعُرُ بِالْخَوْفِ، لَكِنَّهُ إِذَا مَا انْتَهَىٰ مِنَ الْقِرَاءَةِ عَادَ كُلُّ شَيْءٍ كَمَا كَانَ؛ إِذْ كَانَ الْخَوْفُ هُنَا وَقْتِيًّا، أَمَّا الْخَوْفُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الَّذِي يَدُومُ فِي الْقَلْبِ فَيَظَلُّ دَائِمًا مُتَيَقِّظًا.

● **فَضِيلَةُ الْخَوْفِ:**

الآيَاتُ الَّتِي جَاءَتْ فِي فَضِيلَةِ الْخَوْفِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَقَدْ رَبَطَ اللهُ تَعَالَىٰ الْخَوْفَ بِأَسْبَابٍ، وَأَعْظَمُ أَسْبَابِ وَبَوَاعِثِ الْخَوْفِ الْمَحْمُودِ: هُوَ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ؛ وَلِذَلِكَ أَثْنَىٰ الْمَوْلَىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ الْعُلَمَاءِ، فَقَالَ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى**

اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾(٢).

وكُلُّ مَا دَلَّ عَلَىٰ فَضِيلَةِ الْعِلْمِ دَلَّ مُبَاشَرَةً عَلَىٰ فَضِيلَةِ الْخَوْفِ؛ لأنَّ الْخَوْفَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ الْقَائِمِ عَلَىٰ الإِيْمَانِ بِالله تَعَالَىٰ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣).

فَاللهُ تَعَالَىٰ أمَرَ بِالْخَوْفِ وَشَرَطَهُ فِي الإِيْمَانِ بِهِ.

يَقُولُ الْفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ: «مَنْ خَافَ اللهَ دَلَّهُ الْخَوْفُ عَلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ».

وَقَالَ يَحْيَىٰ بنُ مُعَاذٍ: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَعْمَلُ السَّيِّئَةَ إِلَّا وَيَلْحَقُهَا حَسَنَتَانِ، خَوْفُ الْعِقَابِ، وَرَجَاءُ الْعَفْوِ».

وَقَالَ ذُو النُّونِ الْمِصْرِيُّ: «مَنْ خَافَ اللهَ تَعَالَىٰ، ذَابَ قَلْبُهُ، وَاشْتَدَّ حُبُّهُ، وَصَحَّ لَهُ لُبُّهُ».

وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، كَيْفَ نَصْنَعُ؟ نُجَالِسُ أَقْوَامًا يُخَوِّفُونَنَا حَتَّىٰ تَكَادَ قُلُوبُنَا تَطِيرُ، فَقَالَ: وَاللهِ إِنَّكَ إِنْ تُخَالِطْ أَقْوَامًا يُخَوِّفُونَكَ حَتَّىٰ يُدْرِكَكَ الأَمْنُ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَصْحَبَ أَقْوَامًا يُؤَمِّنُونَكَ حَتَّىٰ يُدْرِكَكَ الخَوْفُ».

تَقُولُ أُمّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رضي الله عنها: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَٰذِهِ الآيَةِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾(٤)، قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: **«لا، يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا تُقْبَلَ مِنْهُمْ،** ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(٥)»(٦).

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) البينة: ٨.

(٣) آل عمران: ١٧٥.

(٤) المؤمنون: ٦٠.

(٥) المؤمنون: ٦١.

(٦) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وقال الألباني: «صحيح».

وَضِدُّ الْخَوْفِ: الأَمْنُ، كَمَا أَنَّ ضِدَّ الرَّجَاءِ الْيَأْسُ، وَكَمَا دَلَّتْ مَذَمَّةُ الْقُنُوطِ عَلَىٰ فَضِيلَةِ الرَّجَاءِ، فَكَذَلِكَ تَدُلُّ مَذَمَّةُ الأَمْنِ عَلَىٰ فَضِيلَةِ الْخَوْفِ، مِنْ هُنَا كَانَ الْخَوْفُ مُلَازِمًا لِلرَّجَاءِ وَلَا خَيْرَ فِي الْفَصْلِ بَيْنَهُمَا، لَكِنْ قَدْ يَغْلِبُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، أَوْ قَدْ يَنْشَغِلُ الْقَلْبُ بِأَحَدِهِمَا وَقْتًا عَنِ الآخَرِ، لَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِهِمَا مَعًا فِي قَلْبِ الْعَبْدِ.

لِذَلِكَ أَثْنَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[1]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[2].

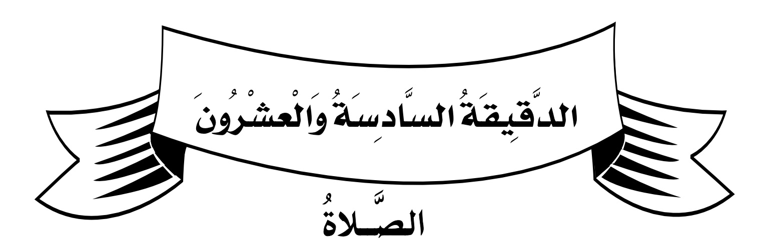
وَلِذَلِكَ عَبَّرَ الْقُرْآنُ فِي أَحَدِ مَوَاطِنِهِ عَنِ الْخَوْفِ بِكَلِمَةِ الرَّجَاءِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[3]؛ أَيْ: لَا يَخَافُونَ.

وَكَثِيرًا مَا وَرَدَ الرَّجَاءُ فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَىٰ الْخَوْفِ؛ وَذَلِكَ لأَنَّهُ مُلَازِمٌ لَهُ، وَالْعَرَبُ يُعَبِّرُونَ عَنِ الشَّيْءِ بِمَا يُلَازِمُهُ.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ، أَنْ يَرْزُقَنَا قُلُوبًا وَجِلَةً خَاشِعَةً، وَأَلْسِنَةً رَطْبَةً ذَاكِرَةً.



(١) الأنبياء: ٩٠.
(٢) السجدة: ١٦.
(٣) نوح: ١٣.



الصَّلاةُ

يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾(١) .

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾(٢) .

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾(٣) .

وَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾(٤) .

وَيَقُولُ تَعَالَىٰ : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾(٥) .

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾(٦) .

وَقَالَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾(٧) .

وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ**

(١) البقرة : ٤٣ .
(٢) البقرة : ٢٣٨ .
(٣) الإسراء : ٧٨ .
(٤) هود : ١١٤ .
(٥) إبراهيم : ٣١ .
(٦) المؤمنون : ١ ، ٢ .
(٧) مريم : ٥٥ .

اللَّه، وإِقَامِ الصَّلاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، والْحَجِّ، وصَوْمِ رَمَضَانَ»[١] .

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ في حَدِيثِ مُعَاذٍ رضي الله عنه : «**رأسُ الأمْرِ الإسْلامُ، وعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ**»[٢] .

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**خَمْسُ صلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللَّهُ تَعَالى، مَنْ أحْسَنَ وضُوءَهُنَّ وصَلاَّهُنَّ لِوقْتِهِنَّ وأتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وخُشُوعَهُنَّ، كَانَ لَهُ علَى اللَّهِ عَهْدٌ أنْ يَغْفِرَ لَهُ، ومَنْ لَمْ يَفْعَلْ فلَيْسَ لَهُ علَى اللَّهِ عَهْدٌ، إنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ، وإنْ شَاءَ عَذَّبَهُ**»[٣] .

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وخُشُوعَهَا ورُكُوعَهَا إلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**»[٤] .

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ: «**الصَّلاةُ علَى وقْتِهَا**» . قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**» . قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»[٥] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**أرأيْتُمْ لَوْ أنَّ نَهَرًا بِبَابِ أحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ**» . قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا . قَالَ: «**فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا**»[٦] .

وعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه : «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى»[٧] .

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما .
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) عن معاذ رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح» . وصححه الألباني .
(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٥) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني .
(٤) أخرجه مسلم (٢٢٨) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه .
(٥) أخرجه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه .
(٦) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٧) أخرجه أبو داود (١٣١٩) عن حذيفة رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني .

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(١).

قَالَ رَبِيعَةُ بْنُ يَزِيدَ: «مَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ لِصَلاةِ الظُّهْرِ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً إِلاَّ وَأَنَا فِي الْمَسْجِدِ إِلاَّ أَنْ أَكُونَ مَرِيضًا أَوْ مُسَافِرًا».

وَقَدْ أَرْشَدَنَا ﷺ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى هَـٰذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ فَقَالَ: «**اعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةُ وَلا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ**»(٢).

أُولَئِكَ قَوْمٌ قُلُوبُهُمْ مُعَلَّقَةٌ بِالْمَسَاجِدِ، وَقَدْ جَاءَتْهُمُ الْبَشَائِرُ فِي قَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثِ السَّبْعَةِ، وَذَكَرَ مِنْهُمْ: «**وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ**»(٣).

وَقَدْ حَثَّ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَلَى السَّيْرِ إِلَى الصَّلَاةِ حَتَّى قَبْلَ النِّدَاءِ، فَقَالَ: لا تَكُنْ مِثْلَ عَبْدِ السُّوءِ لا يَأْتِي حَتَّى يُدْعَى، ايتِ الصَّلَاةَ قَبْلَ النِّدَاءِ.

وَذَلِكَ اسْتِجَابَةً لِقَوْلِهِ ﷺ: «**أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»(٤).

وَهَـٰذَا فَارُوقُ هَـٰذِهِ الأُمَّةِ رضي الله عنه يَنْتَبِهُ بَعْدَمَا ذُكِّرَ بِالصَّلَاةِ وَهُوَ فِي حَالَةِ الإِغْمَاءِ الشَّدِيدِ بَعْدَ طَعْنِهِ، فَقَدْ ذَكَرَ الْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ رضي الله عنه أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لَمَّا طُعِنَ أُغْمِيَ عَلَيْهِ فَقِيلَ: «إِنَّكُمْ لَنْ تُفْزِعُوهُ بِشَيْءٍ مِثْلِ الصَّلَاةِ إِنْ كَانَتْ بِهِ حَيَاةٌ»، فَقَالُوا: الصَّلَاةُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَدْ صُلِّيَتْ، فَانْتَبَهَ فَقَالَ: الصَّلَاةُ هَا اللهِ، لَا حَظَّ فِي الإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ، فَصَلَّى وَإِنَّ جُرْحَهُ لَتَثْغُبُ دَمًا».

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ،**

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)، وأحمد (٣/ ١٢٨)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧)، وحسّنه الألباني.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ»[(١)].

وَكَانَ عَلِيُّ بنُ الحُسَيْنِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ إِذَا تَوَضَّأَ يَصْفَرُّ لَوْنُهُ فَيَقُولُ لَهُ أَهْلُهُ: «مَا هَـٰذَا الَّذِي يَعْتَادُكَ عِنْدَ الوُضُوءِ، فَيَقُولُ: أَتَدْرُونَ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ أُرِيدُ أَنْ أَقُومَ؟».

وَتَوَضَّأَ مَنْصُورُ بنُ زَاذَانَ يَوْمًا، فَلَمَّا فَرَغَ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي، حَتَّىٰ ارْتَفَعَ صَوْتُهُ، فَقِيلَ لَهُ: رَحِمَكَ اللهُ مَا شَأْنُكَ. فَقَالَ: «وَأَيُّ شَيءٍ أَعْظَمُ مِنْ شَأْنِي؟ أُرِيدُ أَنْ أَقُومَ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يُعْرِضَ عَنِّي».

قَالَ سَعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ: «مَا فَاتَتْنِي التَّكْبِيرَةُ الأُولَىٰ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً وَمَا نَظَرْتُ فِي قَفَا رَجُلٍ فِي الصَّلَاةِ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً، وَقَدْ أَدْرَكَ السَّلَفُ ـ رَحِمَهُمُ اللهُ ـ ذَلِكَ فَاهْتَمُّوا بِالتَّبْكِيرِ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، فَقَالَ سُفْيَانُ بنُ عُيَيْنَةَ: «إِنَّ مِنْ تَوْقِيرِ الصَّلَاةِ أَنْ تُؤْتَىٰ قَبْلَ الإِقَامَةِ».

وَقَالَ حَاتِمٌ الأَصَمُّ: «فَاتَتْنِي الصَّلَاةُ فِي الجَمَاعَةِ فَعَزَّانِي أَبُو إِسْحَاقَ البُخَارِيُّ وَحْدَهُ، وَلَوْ مَاتَ لِي وَلَدٌ لَعَزَّانِي أَكْثَرُ مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ؛ لأَنَّ مُصِيبَةَ الدِّينِ أَهْوَنُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ مُصِيبَةِ الدُّنْيَا».

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَشِّرِ المَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى المَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[(٢)].

● الصَّلَاةُ الحَيَّةُ:

قَالَ الحَسَنُ ـ رَحِمَهُ اللهُ: «كُلُّ صَلَاةٍ لا يَحْضُرُ فِيهَا القَلْبُ، فَهِيَ إِلَىٰ العُقُوبَةِ أَسْرَعُ».

يَقُولُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ لَمْ يَخْشَعْ فَسَدَتْ صَلَاتُهُ».

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وقال الألباني: «حسن صحيح».
(٢) أخرجه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣) عن بُرَيْدَةَ الأسلميّ رضي الله عنه، وصححه الألباني.

وَيَقُولُ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: «مَنْ عَرَفَ مَنْ عَلَىٰ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ مُتَعَمِّدًا، وَهُوَ فِي الصَّلاةِ، فَلَا صَلاةَ لَهُ».

مِنْ هُنَا كَانَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ، أَنْ يَحْرِصَ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ صَلاتُهُ حَيَّةً، وَيَكُونُ قَلْبُهُ حَاضِرًا، وَهَـٰذِهِ مَجْمُوعَةُ عَوَامِلَ تُسَاعِدُ عَلَىٰ حُضُورِ القَلْبِ وَخُشُوعِ الجَوَارِحِ:

أولاً: مَعْرِفَةُ جَلالِ اللهِ وَعَظَمَتِه، وَذَلِكَ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الإِيمَانِ، فَإِنَّ مَنْ لا يَعْتَقِدُ بِجَلالِ اللهِ وَعَظَمَتِه، لا تُذْعِنُ نَفْسُهُ لِتَعْظِيمِهِ وَالخُشُوعِ لَهُ، وَكَذَلِكَ مَعْرِفَةُ حَقَارَةِ النَّفْسِ وَضَعْفِهَا وَكَوْنِهَا مُقَصِّرَةً فِي حَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ وَمِنْ هُنَا تَتَوَلَّدُ الاسْتِكَانَةُ وَالخُشُوعُ.

ثانيًا: صَرْفُ الْهِمَّةِ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، وَصَرْفُهَا دَلِيلُ وُجُودِهَا أَصْلاً، وَلَكِنَّهَا مَوْجُودَةٌ لِغَيْرِ الصَّلاةِ، مَوْجُودَةٌ لِلدُّنْيَا بِمَا فِيهَا، فَإِذَا عَرَفَ الْمُؤْمِنُ حَقِيقَةَ الدُّنْيَا وَحَقَارَتَهَا، عَظُمَتِ الآخِرَةُ فِي قَلْبِهِ، وَبِالتَّالِي عَظُمَتْ كُلُّ وَسِيلَةٍ تُبَلِّغُهُ إِلَىٰ غَايَتِهِ الْكُبْرَىٰ وَهِيَ الْجَنَّةُ، فَانْصَرَفَ هَمُّهُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَىٰ الصَّلاةِ، فَحَصَلَ بِذَلِكَ الْخُشُوعُ وَحَضَرَ الْقَلْبُ.

ثالثًا: مُعَالَجَةُ النَّفْسِ قَبْلَ الصَّلاةِ وَفِي أَثْنَائِهَا؛ لِكَيْ تَكُونَ بَيْنَ حَالَيْ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ؛ أَيِ الْخَوْفُ مِنْ عَدَمِ الْقَبُولِ مَعَ الرَّجَاءِ، وَهَـٰذِهِ أَفْضَلُ حَالَاتِ الْعِبَادَةِ.

يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «لَوْ قَبِلَ اللهُ تَعَالَىٰ مِنِّي صَلاةَ رَكْعَتَيْنِ لَسَعِدْتُ بِأَنِّي حِينَهَا مِنَ الْمُتَّقِينَ، فَانْظُرْ كَيْفَ يَخَافُ مِنْ أَنْ لا تُقْبَلَ صَلاتُهُ».

رابعًا: قَطْعُ كُلِّ سَبَبٍ يُلْهِيهِ عَنِ الصَّلاةِ، فَالخُشُوعُ يَنْقَطِعُ بِسَبَبٍ بَسِيطٍ يَتَشَعَّبُ شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّىٰ يَتَعَاظَمَ وَيَتَفَاجَأَ العَبْدُ قَبْلَ انْقِضَاءِ الصَّلاةِ بِقَلِيلٍ أَنَّهُ فِي صَلاةٍ،

وَلَكِنَّهُ إِنْ قَطَعَ هَـٰذِهِ الأَسْبَابَ مُنْذُ البِدَايَةِ كَانَ أَدْعَىٰ لِقَلْبِهِ أَنْ يَخْشَعَ وَيَحْضُرَ، فَيَتَلَذَّذَ بِالصَّلاةِ.

● **أَقْسَامُ الصَّلاةِ:**

تَنْقَسِمُ الصَّلاةُ إِلَى: فَرِيضَةٍ، وَنَافِلَةٍ.

فَالْفَرِيضَةُ: هِيَ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ، أَمَّا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَيُعَدُّ نَافِلَةً.

فَعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، ثَائِرَ الرَّأْسِ، يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ، وَلَا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّىٰ دَنَا، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**»، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ ﷺ: «**لا، إِلاَّ أَنْ تَطَوَّعَ**»[1].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رضي الله عنه إِلَىٰ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «**ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ**»[2].

وَلِمَكَانَةِ الصَّلاةِ وَأَهَمِّيَّتِهَا وَفَرْضِيَّتِهَا، كَانَتْ هِيَ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْمُسْلِمُ وَيُحَاسَبُ عَلَيْهِ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ: صَلاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦)، ومسلم (١١) عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٤١٣) وقال: «حديث حسن غريب»، وصححه الألباني.

• **شُرُوطُ صِحَّةِ الصَّلَاةِ:**

لِلصَّلَاةِ شُرُوطٌ لَا بُدَّ مِنْهَا حَتَّىٰ تَصِحَّ الصَّلَاةُ، وَهَـٰذِهِ الشُّرُوطُ هِيَ:

١ ـ الطَّهَارَةُ مِن الْحَدَثَيْنِ الأَصْغَرِ وَالأَكْبَرِ. فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لا تُقْبَلُ صَلاةٌ بغَيْرِ طُهُورٍ**»(١).

٢ ـ سَتْرُ الْعَوْرَةِ، فَيَجِبُ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ وَالْمُسْلِمَةِ، سَتْرُ الْعَوْرَةِ، وَعَوْرَةُ الرَّجُلِ فِي الصَّلَاةِ: مَا بَيْنَ السُّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ، أَمَّا عَوْرَةُ الْمَرْأَةِ: فَكُلُّ مَا عَدَا الْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ.

٣ ـ اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾(٢).

٤ ـ دُخُولُ وَقْتِ الصَّلاةِ؛ وَذَلِكَ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا**﴾(٣)، فَلَا يَجُوزُ تَقْدِيمُهَا إِلَّا بِشُرُوطٍ وَلا يَجُوزُ تَأْخِيرُهَا إِلَّا لِعُذْرٍ شَدِيدٍ.

• **حِكْمَةُ تَشْرِيعِ الصَّلَاةِ:**

خَلْفَ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أَوَامِرِ اللهِ تَعَالَىٰ حِكَمٌ، مِنْهَا مَا يَظْهَرُ، وَمِنْهَا مَا يَخْفَىٰ، وَلِلصَّلَاةِ خَاصَّةً حِكَمٌ كَثِيرَةٌ وَأَسْرَارٌ عَظِيمَةٌ عَلَىٰ الْعَبْدِ، مِنْهَا:

١ ـ الصَّلاةُ صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، وَيَتَحَقَّقُ فِيهَا مَعْنَىٰ الْعُبُودِيَّةِ الْخَالِصَةِ للهِ تَعَالَىٰ، فَفِي خَمْسِ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ السُّنَنِ الْمُؤَكَّدَةِ وَالرَّاتِبَةِ يَنْقَطِعُ الْعَبْدُ عَنِ هَـٰذِهِ الدُّنْيَا؛ لِيَكُونَ عَلَىٰ صِلَةٍ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَتَكُونُ هَـٰذِهِ السَّاعَةُ سَاعَةَ تَوْبَةٍ وَإِنَابَةٍ إِلَىٰ اللهِ، فَالإِنْسَانُ مَحَلُّ النِّسْيَانِ وَعُرْضَةٌ طَوَالَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) البقرة: ١٥٠.

(٣) النساء: ١٠٣.

عُمُرِهِ فِي لَيْلِهِ أَوْ نَهَارِهِ لاقْتِرَافِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَهَـٰذِهِ الصَّلَوَاتُ بِمَثَابَةِ الْغَسُولِ الطَّاهِرِ لِهَـٰذِهِ الذُّنُوبِ.

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ**»[1].

وَفِي آخَرَ يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»[2].

وَفِي رِوَايَةٍ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتْ الْكَبَائِرُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَزِيَادَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**»[3].

٢ ـ هَـٰذِهِ الصَّلَوَاتُ بِآدَابِهَا، تُعَدُّ غِذَاءً مُسْتَمِرّاً لِلنُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ، فَكَمَا أَنَّ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ غِذَاءُ الأَجْسَامِ، فَكَذَلِكَ الصَّلَاةُ بِمَا فِيهَا مِنْ تَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ وَقِرَاءَةٍ وَذِكْرٍ وَدُعَاءٍ تُعَدُّ غِذَاءً لِلنَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، فَمُلْهِيَاتُ الدُّنْيَا وَوَسَاوِسُ الشَّيْطَانِ وَتَزَاحُمُ الأَهْوَاءِ تُنْسِي الإِنْسَانَ وَاجِبَاتِهِ تِجَاهَ رَبِّهِ وَتِجَاهَ نَفْسِهِ، وَهَـٰذِهِ الصَّلَاةُ مَحَطَّةٌ مُهِمَّةٌ لِلتَّزَوُّدِ بِالطَّاقَةِ الإِيْمَانِيَّةِ فِي طَرِيقِ السَّائِرِينَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، فَهَـٰذِهِ الصَّلَاةُ كَأَنَّهَا رُكُونٌ وَأَوْبَةٌ وَحَدِيثٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، حَدِيثٌ مَعَ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حَدِيثٌ يُذْهِبُ عَنِ النَّفْسِ السَّأَمَ وَالْمَلَلَ، وَيُوقِظُهَا مِن سُبَاتِهَا، وَيَجْعَلُهَا حَيَّةً مُتَفَاعِلَةً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ ـ ثَلَاثًا ـ غَيْرُ تَمَامٍ**»، فَقِيلَ لأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الإِمَامِ، فَقَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم (٦٦٨) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٤٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٢٠).

اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1].

وَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»[2].

فَهَـٰذَا الْقُرْبُ مِنَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَهَـٰذِهِ الصِّلَةُ الرَّبَّانِيَّةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، تَزِيدُ الْعَبْدَ اطْمِئْنَانًا وَسَكِينَةً وَتَزِيدُهُ إِيمَانًا.

● **أَحْوَالُ الْخَاشِعِينَ:**

كَانَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ يَقُولُ: «مَا دَخَلْتُ فِي صَلاةٍ قَطُّ، فَأَهَمَّنِي فِيهَا إِلاَّ مَا أَقُولُ وَمَا يُقَالُ لِي».

وَكَانَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ مِنَ خَاشِعِي الْمُصَلِّينَ، وَكَانَ إِذَا صَلَّى رُبَّمَا ضَرَبَتِ ابْنَتُهُ بِالدُّفِّ، وَتَحَدَّثَ النِّسَاءُ بِمَا يُرِدْنَ فِي الْبَيْتِ، وَلَمْ يَكُنْ يَسْمَعُ ذَلِكَ وَلا يَعْقِلُهُ.

وَقِيلَ لَهُ يَوْمًا: هَلْ تُحَدِّثُكَ نَفْسُكَ فِي الصَّلاةِ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، بِوُقُوفِي بَيْنَ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يَدَيِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَمُنْصَرَفٍ فِي إِحْدَىٰ الدَّارَيْنِ.

قِيلَ: فَهَلْ تَجِدُ شَيْئًا مِمَّا نَجِدُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا فَقَالَ: لأَنْ تَخْتَلِفَ الأَسِنَّةُ فِيَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَجِدَ فِي صَلاتِي مَا تَجِدُونَ.

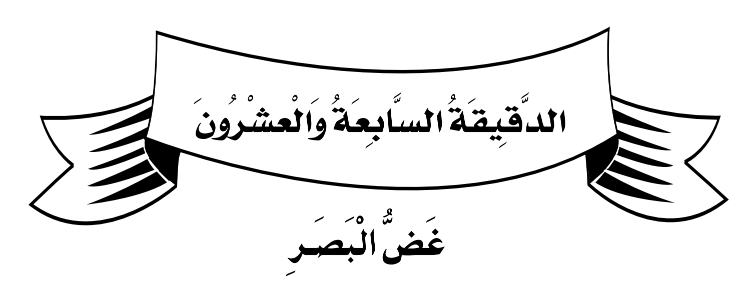
وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه يَقُولُ: «مِنْ فِقْهِ الرَّجُلِ أَنْ يَبْدَأَ بِحَاجَتِهِ قَبْلَ دُخُولِهِ فِي الصَّلاةِ لِيَدْخُلَ فِي الصَّلاةِ وَقَلْبُهُ فَارِغٌ».

وَهَـٰذَا عُرْوَةُ بنُ الزُّبَيْرِ رضي الله عنه يَرْفُضُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا يُغَيِّبُ عَقْلَهُ؛ لِكَيْ تُقْطَعَ رِجْلُهُ بَعْدَمَا حَكَمَ الأَطِبَّاءُ بِقَطْعِهَا، فَيَقُولُ لَهُمْ: عِنْدَمَا أَدْخُلُ فِي الصَّلاةِ افْعَلُوا بِهَا مَا بَدَا لَكُمْ، فَيَدْخُلُ فِي الصَّلاةِ، ثُمَّ يَشْرَعُ الأَطِبَّاءُ فِي قَطْعِهَا.

وَقَالَ مَيْمُونُ بنُ مِهْرَانَ: «مَا رَأَيْتُ مُسْلِمَ بنَ يَسَارٍ مُلْتَفِتًا فِي صَلاةٍ قَطُّ، وَلَقَدِ انْهَدَمَتْ نَاحِيَةٌ مِنَ المَسْجِدِ، فَفَزِعَ أَهْلُ السُّوقِ لِهَدَّتِهَا وَانْطَفَأَ المَسْجِدُ، وَإِنَّهُ لَفِي المَسْجِدِ يُصَلِّي، فَمَا الْتَفَتَ، وَكَانَ أَهْلُ بَيْتِهِ إِذَا دَخَلَ المَنْزِلَ سَكَتُوا، فَإِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاةِ تَكَلَّمُوا وَضَحِكُوا؛ لِعِلْمِهِمْ أَنَّهُ لَنْ يَشْعُرَ بِهِمْ مَا دَامَ فِي الصَّلاةِ».

نَسْأَلُ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَحْشُرَنَا فِي زُمْرَةِ الْـمُصَلِّينَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ صَلاةٍ بِلَا خُشُوعٍ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَعْرِفُ السَّكِينَةَ.





غَضُّ الْبَصَرِ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾(١).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾(٢).

وكَمَا قِيلَ: «مَنْ حَفِظَ بَصَرَهُ أَوْرَثَهُ اللهُ نُوراً فِي بَصِيرَتِهِ، وَيُرْوَىٰ فِي قَلْبِهِ».

وَقِيلَ: مَنْ حَفِظَ هَـٰذِهِ الأَرْبَعَةَ أَحْرَزَ دِينَهُ: اللَّحَظَاتُ وَالخَطَرَاتُ، وَاللَّفَظَاتُ وَالخُطُوَاتُ، فَيَنْبَغِي لِلعَبْدِ أَنْ يَكُونَ بَوَّابَ نَفْسِهِ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الأَبْوَابِ الأَرْبَعَةِ، وَيُلازِمَ الرِّبَاطَ عَلَىٰ ثُغُورِهَا فَمِنْهَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ العَدُوُّ فَيَجُوسُ خِلالَ الدِّيَارِ مُتَبِّرًا مَا عَلا تَتْبِيرًا.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ العَيْنَ مِرْآةَ القَلْبِ، فَإِذَا غَضَّ العَبْدُ بَصَرَهُ غَضَّ القَلْبُ شَهْوَتَهُ وَإِرَادَتَهُ، وَإِذَا أَطْلَقَ بَصَرَهُ أَطْلَقَ القَلْبُ شَهْوَتَهُ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا عَلِيُّ لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الأُولَىٰ وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةَ**»(٣).

قَالَ ﷺ: «**النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ**»(٤)، صَدَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ لأَنَّ السُّمَّ يَسْرِي إِلَىٰ القَلْبِ فَيَعْمَلُ فِي البَاطِنِ قَبْلَ أَنْ يُرَىٰ عَمَلُهُ فِي الظَّاهِرِ.

---

(١) النور: ٣٠.

(٢) الإسراء: ٣٦.

(٣) أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧) عن عليّ رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب»، وقال الألباني: صحيح.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ١٧٣) (١٠٣٦٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٦٣): «رواه الطبراني وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطيّ وهو ضعيف».

فَاحْذَرْ مِنَ النَّظَرِ، فَإِنَّهُ سَبَبُ الآفَاتِ إِلَّا أَنَّ عِلاجَهُ فِي بِدَايَتِهِ قَرِيبٌ، فَإِذَا كُرِّرَ تَمَكَّنَ الشَّرُّ فَصَعُبَ عِلاجُهُ.

فَمَنْ شَرَحَ نَاظِرَهُ أَتْعَبَ خَاطِرَهُ، وَمَنْ كَثُرَتْ نَظَرَاتُهُ ضَاعَتْ أَوْقَاتُهُ وَدَامَتْ حَسَرَاتُهُ.

فَيَا مَنْ يُرِيدُ السَّلامَةَ وَيَطْلُبُ الخَلاصَ، غُضَّ مِنْ بَصَرِكَ، وَاقْصِرْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ طَرْفَكَ، وَلا تُقَلِّلْ مِنْ شَأْنِ النَّظَرِ وَتَسْتَصْغِرْهُ، فَإِنَّ كُلَّ الحَوادِثِ مَبْدَؤُهَا مِنَ النَّظَرِ، كَمَا أَنَّ مُعْظَمَ النَّارِ مَبْدَؤُهَا مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ، تَكُونُ نَظْرَةٌ، ثُمَّ خَطْرَةٌ، ثُمَّ خَطِيئَةٌ.

قَالَ الشَّاعِرُ فِي «الجَوابِ الكَافِي»:

كُلُّ الحَوادِثِ مَبْدَؤُهَا مِنَ النَّظَرِ ... وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ

كَمْ نَظْرَةٍ فَتَكَتْ فِي قَلْبِ صَاحِبِهَا ... فَتْكَ السِّهَامِ بِلا قَوْسٍ وَلا وَتَرِ

وَالمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا ... فِي أَعْيُنِ الغِيدِ مَوْقُوفٌ عَلَى خَطَرِ

قَالَ ﷺ يَوْمًا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب: «**يَا عَلِيُّ إِنَّ لَكَ كَنْزًا مِنَ الجَنَّةِ، وَإِنَّكَ ذُو قَرْنَيْهَا، فَلاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّمَا لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ**»(١).

يَعْنِي أَنَّ النَّظْرَةَ الأُولَى، نَظْرَةَ الفَجْأَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ يُمْنَحُ لَكَ عَفْوٌ بِلَا إِثْمٍ، وَلَيْسَتْ لَكَ الثَّانِيَةَ إِذَا أَتْبَعْتَهَا نَظْرَةَ تَمَتُّعٍ.

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: «إِنِ اتَّفَقَ أَنْ وَقَعَ البَصَرُ عَلَى مُحَرَّمٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ عَنْهُ سَرِيعًا».

قَالَ وَكِيعُ: خَرَجْنَا مَعَ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ يَوْمَ عِيدٍ، فَقَالَ: إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ يَوْمَنَا

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٥٩)، وابن حبان في صحيحه (٥٥٧٠) عن عليّ رضي الله عنه، قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٦٣): «رواه أحمد وفيه ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات»، وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٩٠٢): «حسن لغيره».

غَضُّ أَبْصَارِنَا .

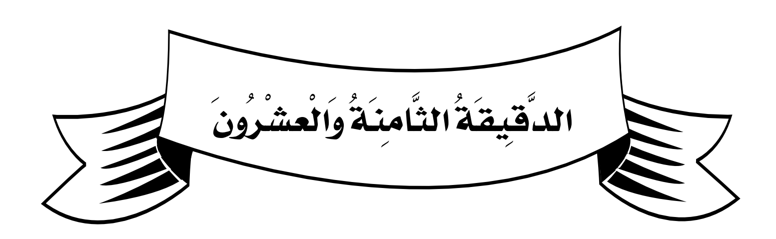
قَالَ الفُضَيْلُ : «يَقُولُ إِبْلِيسُ : هُوَ قَوْسِي وَسَهْمِي الَّذِي لا أُخْطِئُ بِهِ - يَعْنِي : النَّظَرَ» .

قَالَ ﷺ : «**النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ، أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ**»(١) .

وَإِنَّ مِمَّا يُعِينُ عَلَى غَضِّ الْبَصَرِ : الْمُسَارَعَةَ إِلَى الزَّوَاجِ ، قَالَ ﷺ : «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ وأَحْصَنُ لِلفَرْجِ**»(٢) .



(١) سبق تخريجه .
(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .



عِبَادَةُ الشُّكْر

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي مُحْكَمِ آيَاتِهِ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾(١)، ويَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾(٢).

وَرَوَىٰ مُسْلِم فِي «صَحِيحِه» مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ حَتَّىٰ تَفَطَّرَتْ رِجْلاهُ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ رضي الله عنها: أَتَصْنَعُ هَـٰذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**»(٣).

وَرَوَىٰ أَبُو داودَ فِي سُنَنِه عَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي أُحِبُّكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٤).

الشُّكْرُ وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا الشُّكْرُ؟! لَـمَّا عَرَفَ إِبْلِيسُ قَدْرَ الشُّكْرِ قَالَ فِي الطَّعْنِ عَلَىٰ بَنِي آدَمَ: ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾(٥).

وَوَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ الْـمِنْبَرِ يَوْمًا، كَمَا رَوَىٰ الإِمَامُ أَحمدُ مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانِ ابنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ القَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ**

(١) إبراهيم: ٧.
(٢) النساء: ١٤٧.
(٣) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨٢٠) عن المغيرة رضي الله عنه.
(٤) أبو داود (١٥٢٢).
(٥) الأعراف: ١٧.

النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، التَّحدُّثُ بِنَعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ وتَرْكُهَا كُفْرٌ، والجمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالفُرْقَةُ عَذَابٌ»(١).

• حِرْصُ الصَّحَابَةِ عَلَى الشُّكْرِ:

اعْلَمُوا أَنَّ الشُّكْرَ عِبَادَةٌ حَرَصَ عَلَيْهَا الصَّحَابَةُ، رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

فَقَدْ رُوِيَ: أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنَ الأَنْصَارِ الْتَقَيَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قُولُوا هَكَذَا**».

وَجَاءَ فِي «المُوطَّأ» أَنَّ رَجُلاً سَلَّم عَلَىٰ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: الحَمْدُ للهِ، فَقَالَ عُمَرُ: ذَاكَ الذي أَرَدتُ.

إِنَّ الصَّحَابَةَ ـ رَحِمَهُمْ اللهُ ـ كَانُوا يَتَسَاءَلُونَ وَمُرَادُهُم اسْتِخْرَاجُ الشُّكْرِ للهِ فَيَكُونُ الشَّاكِرُ مُطِيعًا مُثَابًا وَالمُسْتَنْطِقُ مُطِيعًا مُثَابًا.

• ثَلاثٌ وأَيّ ثَلاث!

وَجَاءَ فِي «الحِلْيَة» أَنَّ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ صَحِبَ جَعْفَرَ بنَ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ: حَدِّثْنِي، فَأَبَىٰ جَعْفَرٌ، فَقَالَ سُفْيَانُ: لاَ أَقُومُ حَتَّىٰ تُحَدِّثَنِي.

فَقَالَ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدٍ: يَا سُفْيَانُ: إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ بِنِعْمَةٍ فَأَحْبَبْتَ بَقَاءَهَا وَدَوَامَهَا، فَأَكْثِرْ مِنَ الحَمْدِ وَالشُّكْرِ عَلَيْهَا، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾.

يَا سُفْيَان: إِذَا اسْتَبْطَأْتَ الرِّزْقَ فَأَكْثِرْ مِنَ الاسْتِغْفَارِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا**﴾(٢).

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٤/ ٢٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩١١٩) عن النعمان بن بشير ٪، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٨٢): «رواه عبد الله وأبو عبد الرحمٰن راويه عن الشعبي لم أعرفه وبقية رجاله ثقات»، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠١٤).
(٢) نوح: ١٠، ١١.

يَا سُفْيَان: إِذَا حَزَبَكَ أَمْرٌ مِنْ سُلْطَانٍ أَوْ غَيْرِهِ، فَأَكْثِرْ مِنَ «لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ»؛ فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ الفَرَجِ، وَكَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ.

فَعَقَدَ سُفْيَانُ بِيَدِهِ وَقَالَ: ثَلاَثٌ وَأَيُّ ثَلاَثٌ.

وَقَالَ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعًا لَمْ يُحْرَمْ أَرْبَعًا:

- مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمِ الإِجَابَةَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾(١).

- وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمِ القَبُولَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**﴾(٢).

- وَمَنْ أُعْطِيَ الاسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمِ المَغْفِرَةَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾(٣).

- وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمِ الزِّيَادَةَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾(٤).

● مَعْرِفَةُ النِّعْمَةِ وَأَثَرُهَا فِي إِخْلاَصِ الشُّكْرِ:

إِنَّ نِعَمَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الإِنْسَانِ لاَ حَصْرَ لَهَا وَلاَ عَدَّ، وَمِنْ كَمَالِ فَضْلِ اللهِ تَعَالَىٰ وَاسْتِغْنَائِهِ عَنْ خَلْقِهِ أَنَّ نِعَمَهُ شَمِلَتْ عِبَادَهُ كُلَّهُمْ، مُسْلِمَهُمْ وَكَافِرَهُمْ وَمُحْسِنَهُمْ وَمُسِيئَهُمْ.

وَوَاجِبُ المُؤْمِنُ تِجَاهَ هَذِهِ النِّعَمِ، هُوَ:

أَوَّلاً: أَنْ يُحْسِنَ اسْتِخْدَامَهَا فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَلاَ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِنِعْمَةِ اللهِ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ.

---

(١) غافر: ٦٠.
(٢) النساء: ١٧.
(٣) النساء: ١١٠.
(٤) إبراهيم: ٧.

ثانيًا: أَنْ يُحْسِنَ شُكْرَهَا، وَشُكْرُ النِّعْمَةِ يَكُونُ مِنْ جِنْسِهَا، فَشُكْرُ نِعْمَةِ المَالِ هُوَ التَّصَدُّقُ بِهِ وإِنْفَاقُهُ فِي وُجُوهِ الخَيْرِ، وَشُكْرُ نِعْمَةِ الصِّحَّةِ يَكُونُ بِتَسْخِيرِ هَـٰذِهِ الصِّحَّةِ فِيمَا يَنْفَعُ النَّاسَ؛ مِنْ قَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ، وَدَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُمْ، وَنُصْرَةِ المَظْلُومِ، وَإِعَانَةِ المُحْتَاجِ، وَشُكْرُ نِعْمَةِ العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ بِأَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ هَـٰذَا فِي مَصْلَحَةِ الأُمَّةِ، وَلاَ يَبْخَلُ بِعِلْمِهِ عَنِ النَّاسِ.

يَقُولُ الإِمَامُ أَبُو حَامِدٍ الغَزَّالِي ـ رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ الْخَلْقَ لَمْ يُقَصِّرُوا عَنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ إِلَّا للجَهْلِ وَالغَفْلَةِ، وَلاَ يُتَصَوَّرُ شُكْرُ النِّعْمَةِ إِلاَّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهَا، ثُمَّ إِنَّهُم إِنْ عَرَفُوا نِعْمَةً ظَنُّوا أَنَّ الشُّكْرَ عَلَيْهَا بِأَنْ يَقُولَ أَحَدُهُم: الحَمْدُ للَّهِ أَوِ الشُّكْرُ للَّهِ، وَلَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ مَعْنَىٰ الشُّكْرِ أَنْ تُسْتَعْمَلَ النِّعْمَةُ فِي إِتْمَامِ الحِكْمَةِ التِي أُرِيدَتْ بِهَا، وَهِيَ طَاعَةُ اللهِ».

وَاحْذَرُوا ... فَإِلْفُ النِّعْمَةِ قَدْ يُنْسِيكَ شُكْرَهَا.

وَفِي الأَثَرِ: أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَىٰ الحَسَنِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ فَقَالَ: إِنَّ لِي جَارًا لا يَأْكُلُ الفالُوذَجَ، فَقَالَ لَهُ الحَسَنُ: وَلِمَ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: لأَنَّهُ يَدَّعِي أَنَّهُ لاَ يُؤَدِّي شُكْرَهَا، فَقَالَ لَهُ الحَسَنُ: إِنَّ جَارَكَ جَاهِلٌ، وَهَلْ يُؤَدِّي شُكْرَ المَاءِ البَارِدِ.

نَعَمْ... فَنَظْرَةٌ وَاحِدَةٌ فِي حَيَاتِنَا نَجِدُ نِعَمًا لاَ حَصْرَ لَهَا وَلَا عَدَّ وَلكِنْ إِلْفُنَا لَهَا أَنْسَانَا شُكْرَهَا.

وَمِنْ لَطِيفِ مَا يُحْكَىٰ: أَنَّ رَجُلاً شَكَا فَقْرَهُ إِلَىٰ بَعْضِ أَرْبَابِ البَصِيرَةِ، وَأَظْهَرَ شِدَّةَ اغْتِمَامِهِ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ: يَا هَـٰذَا أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ أَعْمَىٰ وَلَكَ عَشْرَةُ آلاَفِ دِرْهَمٍ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَا، فَقَالَ: أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ أَخْرَسُ وَلَكَ عَشْرَةُ آلاَفِ دِرْهَمٍ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَا، فَقَالَ: أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ أَقْطَعُ اليَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَلَكَ عِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَا، فَقَالَ: أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ مَجْنُونٌ وَلَكَ عَشْرَةُ آلاَفِ دِرْهَمْ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: لَا، فَقَالَ لَهُ: أَمَا تَسْتَحِي أَنْ تَشْكُو مَوْلاكَ وَلَهُ عِنْدَكَ عُرُوضٌ

بِخَمْسِينَ أَلْفًا أَوْ يَزِيدُ. . . !

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ القُرَّاءِ أَنَّهُ اشْتَدَّ بِهِ الفَقْرُ حَتَّىٰ ضَاقَ بِهِ ذَرْعًا، فَرَأَىٰ فِي المَنَامِ وكَأَنَّ قَائِلاً يَقُولُ لَهُ: أَتَوَدُّ أَنَّا أَنْسَيْنَاكَ سُورَةَ الأَنْعَامِ ولَكَ أَلْفُ دِينَارٍ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَسُورَةُ هُودٍ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَسُورَةُ يُوسُفَ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: فَمَعَكَ قِيمَةُ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَأَنْتَ تَشْكُو. . . فَأَصْبَحَ القَارِئُ وَقَدْ سُرِّيَ عَنْهُ.

فَالشُّكْرَ الشُّكْرَ عِبَادَ اللهِ، ولَكِنْ قَبْلَ أَنْ تَشْكُرُوا، اعْرِفُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ، لِتُحْسِنُوا شُكْرَهَا.

• **أَقْسَامُ الشُّكْرِ:**

وَالشُّكْرُ يَكُونُ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ.

فَالشُّكْرُ بِاللِّسَانِ يَكُونُ بِالتَّحْمِيدِ وَالتَّحَدُّثِ عَنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ قَالَ ﷺ: «**التَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ**»[1].

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ الْحُبُلِيُّ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَلَّمَ عَلَىٰ الرَّجُلِ، وَسَأَلَهُ كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ فَقَالَ لَهُ الآخَرُ: أَحْمَدُ اللهَ إِلَيْكَ، قَالَ: يَقُولُ الْمَلَكُ الَّذِي عَنْ يَسَارِهِ لِلَّذِي عَنْ يَمِينِهِ: كَيْفَ تَكْتُبُهَا، قَالَ: أَكْتُبْهُ مِنَ الحَامِدِينَ».

وَقَدْ قُلْنَا: إِنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يَسْأَلُونَ بَعْضَهُمُ الْبَعْضَ عَنِ الحَالِ؛ لِتَجْرِيَ أَلْفَاظُ الحَمْدِ عَلَىٰ أَلْسِنَتِهِمْ.

وَأَمَّا الشُّكْرُ بِالقَلْبِ: فَهُوَ أَنْ يَتَحَقَّقَ فِيهِ الرِّضَا عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ذَلِكَ الرِّضَا الَّذِي يُشْعِرُ الْمُؤْمِنَ دَائِمًا بِالتَّقْصِيرِ فِي جَنْبِ اللهِ، وَشُكْرُ القَلْبِ كَذَلِكَ بِأَنْ لاَ يُضْمِرَ لِلنَّاسِ سُوءًا وَلاَ بُغْضًا وَلاَ حِقْدًا، فَالحَاقِدُ عَلَىٰ النَّاسِ كَافِرٌ بِنِعْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، وَسَاخِطٌ عَلَىٰ تَدْبِيرِ اللَّهِ تَعَالَىٰ وَتَصْرِيفِهِ لِلخَلْقِ، وَرَحِمَ اللهُ مَنْ

---

(١) سبق تخريجه.

كَانَ يَقُولُ: لَيْسَ هُنَاكَ أَلَذُّ مِنْ سَجْدَةِ القَلْبِ شُكْرًا للهِ تَعَالَىٰ.

وَأَمَّا شُكْرُ الجَوارِحِ: فَهُوَ اسْتِعْمَالُ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ فِي طَاعَتِهِ، فَمِنْ شُكْرِ العَيْنَيْنِ أَنْ تَسْتُرَ كُلَّ عَيْبٍ تَرَاهُ، وَمِنْ شُكْرِ الأُذُنَيْنِ أَنْ تَسْتُرَ كُلَّ عَيْبٍ تَسْمَعُهُ، وَإِنْ كَانَ الجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، فَشُكْرُ الجَارِحَةِ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهَا.

فَلاَ يَنْبَغِي لِلمُسْلِمِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِنِعْمَةِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ، فَاليَدُ نِعْمَةٌ وَجَارِحَةٌ، فَلاَ يُسْتَعَانُ بِهَا عَلَىٰ ظُلْمِ النَّاسِ وَإِيذَائِهِمِ، وَالرِّجْلُ نِعْمَةٌ فَلاَ يُسْعَىٰ بِهَا إِلىَ الحَرَامِ أَوْ أَنْ تُشَارِكَ فِيهِ، وَهَكَذَا كُلُّ الجَوارِحِ.

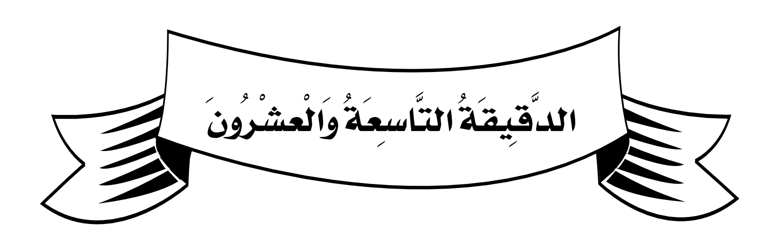
نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْزُقَنَا شكرًا يُوافِي نِعَمَهُ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الصَّابِرِينَ عَلَىٰ بَلائِكَ الشَّاكِرِينَ لِنَعْمَائِكَ.

اللَّهُمَّ أَلْهِمْنَا مَعَ كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتَ بِهِا عَلَيْنَا حُسْنَ شُكْرِهَا.

اللَّهُمَّ لاَ تَحرِمْنَا مَا عِنْدَكَ بِسُوءِ مَا عِنْدَنَا.





اللِّسَـــانُ

اللِّسَانُ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَىٰ، وَبَابٌ عَظِيمٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ؛ وَلِذَلِكَ رَوَىٰ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ ﷺ: «**مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ**»(١).

هَـٰذَا اللِّسَانُ سِلاحٌ عَظِيمٌ ذُو حَدَّيْنِ، إِمَّا أَنْ يُورِدَ صَاحِبَهُ الْمَوَارِدَ، وَإِمَّا أَنْ يُسْكِنَهُ أَعَلَىٰ الْجِنَانِ، إِمَّا أَنْ يَجْعَلَكَ اللِّسَانُ مِنَ الْمُغْتَابِينَ النَّمَّامِينَ الْكَذَّابِينَ، وَإِمَّا أَنْ يَجْعَلَكَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُسَبِّحِينَ الذَّاكِرِينَ الصَّادِقِينَ.

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ ﷺ: «**رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ**»، فَقَالَ مُعَاذٌ: بَلَىٰ، فَقَالَ ﷺ: «**كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا**»، وَأَشَارَ إِلَىٰ لِسَانِهِ ﷺ، فَقَالَ مُعَاذٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ** - أَوْ قَالَ: **عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(٢).

وَرَحِمَ اللهُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه الَّذِي كَانَ يُمْسِكُ بِلِسَانِ نَفْسِهِ مُعَاتِبًا مُحَاسِبًا قَائِلاً: هَـٰذَا الَّذِي أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ... هَـٰذَا الَّذِي أَوْرَدَنِي الْمَوَارِدَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، أَشْفَقَ عَلَيْهِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٤) عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وَلِهَـٰذَا يَقُولُ ابنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «مَا شَيءٌ أَحْوَجُ بِطُولِ حَبْسٍ مِنَ لِسَانٍ».

وَهَـٰذَا أَبُو الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه يَقُولُ كَلامًا نَفِيسًا فِي هَـٰذَا الْمَوْضُوعِ، يَقُولُ: «أَنْصِفْ أُذُنَيْكَ مِنْ فَمِكَ، فَإِنَّمَا جُعِلَتْ لَكَ أُذُنَانِ وَفَمٌ وَاحِدٌ لِتَسْمَعَ أَكْثَرَ مِمَّا تَتَكَلَّمُ».

حَقًا . . . فَمِنْ حِكْمَةِ اللهِ أَنْ جَعَلَ لَنَا لِسَانًا وَاحِدًا وأُذُنَيْنِ.

فَهَلْ تَفَكَّرَ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ؟

يَقُولُ مَخْلَدُ بنُ الْحُسَيْنِ: «مَا تَكَلَّمْتُ مُنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً بِكَلِمَةٍ أُرِيدُ أَنْ أَعْتَذِرَ مِنْهَا».

قَالَ عُقْبَةُ بنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مَا النَّجَاةُ؟ فَقَالَ ﷺ: **«أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»**[(١)].

وَقَدْ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ ﷺ: **«تَقْوَى اللَّهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ»**. وَسُئِلَ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ ﷺ: **«الْفَمُ وَالْفَرْجُ»**[(٢)].

وَمَا هَـٰذَا إِلَّا لأَنَّ حُسْنَ الْخُلُقِ يَجْمَعُ فَضَائِلَ الإِسْلامِ، فَفِيهِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ، وَفِيهِ الصِّدْقُ، وَفِيهِ الْكَرَمُ وَالْجُودُ وَالسَّخَاءُ، وَفِيهِ الأُخُوَّةُ وَالإِيْثَارُ، وَفِيهِ الْفَضَائِلُ كُلُّهَا.

أَمَّا اللِّسَانُ، فَيَجْمَعُ كَذَلِكَ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الآفَاتِ: فَفِيهِ الْغِيبَةُ وَالنَّمِيمَةُ، وَفِيهِ السَّبُّ وَالشَّتْمُ وَالْكَذِبُ، فَهُوَ بِذَلِكَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ وَثَغْرٌ عَظِيمٌ مِنْ ثُغُورِ الإِيْمَانِ.

مِنْ أَجْلِ خُطُورَةِ هَـٰذَا اللِّسَانِ عَلَى الإِيْمَانِ، نَهَجَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّالِحِينَ طُرُقًا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦) وقال: «حديث حسن»، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) وابن ماجه (٤٢٤٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الترمذي: «حديث صحيح غريب»، وحسنه الألباني.

لِحِفْظِهِ، وكَانَتْ لَهُمْ حِكَمٌ وأَمْثَالٌ، مِنْهَا:

أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه كَانَ يَضَعُ حَصَاةً دَائِمًا فِي فَمِهِ، ويَقْصِدُ بِهَا أنْ يمْنَعَ نَفْسَهُ مِن الْكَلامِ الْكَثِيرِ.

وقَالَ طَاوُوس بنُ كَيْسَانَ: «لِسَانِي سَبُعٌ وإِنْ أرْسَلْتُه أكَلَنِي».

وقَالَ الإِمَامُ الأوْزَاعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ: «كَتَبَ إِلَيْنَا عُمَرُ بنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ: «أمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ أكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِاليَسِيرِ، ومَنْ عَدَّ كَلامَهُ مِنْ عَمَلِهِ، قَلَّ كَلامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ».

وقَالَ مُحَمَّدُ بنُ وَاسِعٍ لِمَالِكِ بنِ دِينَارٍ: «يَا أَبَا يَحْيَىٰ، حِفْظُ اللِّسَانِ أَشَدُّ علَىٰ النَّاسِ مِنْ حِفْظِ الدِّينَارِ والدِّرْهَمِ.

وإِنْ كَانَتِ الْحِكْمَةُ ضَالَّةَ الْمُؤْمِنِ، فَهَـٰذِهِ حِكْمَةُ أَبِي بَكْرِ بنِ عَيَّاشٍ، قَالَ: «اجْتَمَعَتْ أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حِكْمَةً:

قَالَ الأَوَّلُ: أنَا أنْدَمُ عَلَىٰ مَا قُلْتُ، ولَا أَنْدَمُ عَلَىٰ مَا لَمْ أَقُلْ.

وقَالَ الثَّانِي: إِنِّي إِذَا تَكَلَّمْتُ بِكَلِمَةٍ مَلَكَتْنِي ولَمْ أَمْلِكْهَا، وإِنْ لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكْتُهَا ولَمْ تَمْلِكْنِي.

وقَالَ الثَّالِثُ: عَجِبْتُ لِلْمُتَكَلِّمِ إِذَا رَجَعَتْ عَلَيْهِ كَلِمَتُهُ ضَرَّتْهُ، وإِنْ لَمْ تَرْجِعْ لَمْ تَنْفَعْهُ.

وقَالَ الرَّابِعُ: أَنَا عَلَىٰ رَدِّ مَا لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ عَلَىٰ رَدِّ مَا قُلْتُ.

إِذَا كَانَ الْكَلامُ بِهَـٰذِهِ الْخُطُورَةِ، فَهَلْ مَعْنَىٰ ذَلِكَ أنْ يَظَلَّ الإِنْسَانُ صَامِتًا مُعَالِجًا لِنَفْسِهِ عَلَىٰ عَدَمِ الْكَلامِ، كَمَا فَعَلَ أَحَدُ الصَّالِحِينَ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْمَنْصُورَ ابْنَ الْمُعْتَزِّ ظَلَّ مَا يُقَارِبُ الأَرْبَعِينَ سَنَةً لَا يَتَكَلَّمُ بَعْدَ الْعِشَاءِ.

وَهَـٰذَا الْفِعْلُ - لَا شَكَّ - صَعْبٌ تَحْصِيلُهُ، كَمَا أَنَّ اللِّسَانَ إِذَا اعْتَبَرْنَاهُ وَسِيلَةً لِلآفَاتِ، فَهُو كَذَلِكَ بَابٌ عَظِيمٌ مِنْ أَبْوَابِ الْفَضَائِلِ، فَهُوَ لَا يَملُّ وَلَا يَتْعَبُ، وَمَا هَـٰذَا إِلَّا لِيَفْطَنَ الْمُسْلِمُ إِلَىٰ مُهِمَّةٍ عَظِيمَةٍ وَعِبَادَةٍ جَلِيلَةٍ، وَهِيَ ذِكْرُ الله تَعَالَىٰ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، وَكَمَا أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يُورِدُهُ لِسَانُهُ الْمَوَارِدَ هُنَاكَ مَنْ جَعَلَهُ اللِّسَانُ مِن الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيراً، لَكِنَّ مَنْبَعَ الْخَوْفِ مِنْ الْحَدِيثِ جَاءَ مِنْ حِرْصِ الصَّالِحِينَ وَشُعُورِهِمْ بِصُعُوبَةِ حِفْظِ اللِّسَانِ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ، فَلِلِّسَانِ زَلَّاتٌ، وَلِلِّسَانِ وَقَعَاتٌ قَدْ يَسْلَمُ مِنْهَا وَقَدْ لَا يَسْلَمُ، وَيَكْفِي مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَرَى أَنْ تَبْلُغَ حَيْثُ بَلَغَتْ، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا...**»[1]، فَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ فِي سَخَطِ الله سَبَبًا لِلْهُوِيِّ فِي النَّارِ الزَّمَانَ، فَحِفْظُ اللِّسَانِ إِذَن أَوْلَىٰ مِنْ كَثِيرٍ مِن الأَعْمَالِ؛ وَلِهَـٰذَا حَرَصَ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم عَلَىٰ الصَّمْتِ عَنِ الْكَلامِ.

● **آفَاتُ اللِّسَانِ:**

لِلِّسَانِ آفَاتٌ قَدْ يَصْعُبُ حَصْرُهَا، لَكِنْ سَنُورِدُ أَهَمَّهَا؛ لِلتَّحْذِيرِ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهَا:

أَوَّلاً: الْكَلامُ فِيمَا لا يَعْنِي:

فَالْكَلامُ فِيمَا لَا يَعْنِي، آفَةٌ عَظِيمَةٌ، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «خَمْسٌ لَهُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن الدَّرَاهِمِ الْمَوْقُوفَةِ: لاَ تَتَكَلَّمْ فِيمَا لا يَعْنِيكَ، فإِنَّهُ فَضْلٌ، وَلا آمَنُ عَلَيْكَ الْوِزْرَ، وَلاَ تَتَكَلَّمْ فِيمَا يَعْنِيكَ حَتَّىٰ تَجِدَ لَهُ مَوْضِعًا، فَإِنَّهُ رُبَّ مُتَكَلِّمٍ فِي أَمْرٍ يَعْنِيهِ، قَدْ وَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَلاَ تُمَارِ حَلِيمًا وَلاَ سَفِيهًا، فَإِنَّ الْحَلِيمَ يَقْلِيكَ، وَالسَّفِيهَ يُؤْذِيكَ، وَاذْكُرْ أَخَاكَ إِذَا غَابَ عَنْكَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يَذْكُرَكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨)، وأحمد (٢/ ٥٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ لأحمد.

بِهِ، وَأَعْفِهِ مِمَّا تُحِبُّ أَنْ يُعْفِيَكَ مِنْهُ، وَعَامِلْ أَخَاكَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يُعَامِلَكَ بِهِ، وَاعْمَلْ عَمَلَ رَجُلٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُجَازَىٰ بِالإِحْسَانِ مَأْخُوذٌ بِالاحْتِرَامِ».

وَقَالَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّاب رضي الله عنه: «لاَ تَتَعَرَّضْ لِمَا لاَ يَعْنِيكَ، وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ، وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ مِن الْقَوْمِ إِلَّا الأَمِينَ، وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ خَشِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا تَصْحَبْ الْفَاجِرَ، فَتَتَعَلَّمَ مِنْ فُجُورِهِ وَلَا تُطْلِعْهُ عَلَىٰ سِرِّكَ، وَاسْتَشِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللهَ تَعَالَىٰ.

وَحَدُّ الْكَلامِ فِيمَا يَعْنِي، هُوَ أَنْ تَتَكَلَّمَ إِذَا دُعِيتَ إِلَىٰ الْكَلامِ، وَإِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ، فَاحْرِصْ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ صَامِتًا أَكْثَرَ مِمَّا تَكُونُ مُتَكَلِّمًا، وَاجْعَلْ حِرْصَكَ عَلَىٰ الصَّمْتِ يَغْلِبُ حِرْصَكَ عَلَىٰ الْكَلامِ.

ثَانِيًا: الْخَوْضُ فِي الْبَاطِلِ:

والْخَوْضُ فِي الْبَاطِلِ قَدْ يَنْتُجُ مِن الصُّحْبَةِ غَيْرِ الصَّالِحَةِ، وَطُولِ مُجَالَسَةِ السُّفَهَاءِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُعَرِّضُ الْعَبْدَ عَلَىٰ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِدَايَةً فِيمَا لَا يَعْنِيهِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فِي حُدُودِ الْكَلَامِ بِالْبَاطِلِ؛ وَلِهَـٰذَا يَقُولُ عَلْقَمَةُ: كَمْ مِنْ كَلَامٍ مَنَعنيه حَدِيثُ بِلَالٍ ابْنِ الْحَارِثِ وَهُوَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١).

وَقَالَ ابنُ سِيرِينَ: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ يَمُرُّ بِمَجْلِسٍ، فَيَقُولُ لِلْمُجْتَمِعِينَ: تَوَضَّؤُوا، فَإِنَّ بَعْضَ مَا تَقُولُونَ شَرٌّ مِن الْحَدَثِ».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٩) عن بلال بن الحارث رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن صحيح»، وصححه الألباني.

وَقَالَ سَلْمَانُ: «أَكْثَرُ النَّاسِ ذُنُوبًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَكْثَرُهُمْ كَلَامًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ».

ثَالِثًا: الْمِرَاءُ وَالْجِدَالُ:

قَالَ الزُّبَيْرُ لابْنِهِ: «لَا تُجَادِلْ النَّاسَ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُهُم، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالسُّنَّةِ».

وَقَالَ مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ: «إِيَّاكُمْ وَالْمِرَاءَ، فَإِنَّهُ جَهْلٌ»، وَقِيلَ فِي هَـٰذَا أَيْضًا: مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمُ اللهُ تَعالَىٰ، إِلَّا بِالْجَدَلِ.

وَقَالَ مَالِكٌ: «لَيْسَ الْجِدَالُ مِن الدِّينِ فِي شَيْءٍ».

وَقَالَ ابنُ أَبِي لَيْلَىٰ: «لَا أُمَارِي صَاحِبِي، فَإِمَّا أَنْ أُكَذِّبَهُ وإِمَّا أَنْ أُغْضِبَهُ».

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «كَفَىٰ بِكَ إِثْمًا أَنْ لَا تَزَالَ مُرَائِيًا».

وَقَالَ عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «لَا تَتَعَلَّمِ الْعِلْمَ لِثَلاثٍ وَلَا تَتْرُكْهُ لِثَلاثٍ: لَا تَتَعَلَّمْهُ لِتُمَارِيَ بِهِ، وَلَا تَتَبَاهَىٰ بِهِ، وَلَا لِتُرَائِيَ بِهِ. وَلَا تَتْرُكْهُ حَيَاءً مِنْ طَلَبِهِ، وَلَا زَهَادَةً فِيهِ، وَلَا رِضًا بِالْجَهْلِ مِنْهُ».

وَقِيلَ لِمَيْمُونِ بنِ مِهْرَانَ: مَا لَكَ لَا تَتْرُكْ أَخَاكَ عَن قِلَىٰ؟ فَقَالَ: إِنِّي لَا أُشَارِيهِ وَلَا أُمَارِيهِ.

وَرُوِيَ أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللهُ - قَالَ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ: «لِمَ آثَرْتَ الانْزِوَاءَ؟».

قَالَ: «لأُجَاهِدَ نَفْسِي بِتَرْكِ الْجِدَالِ». فَقَالَ: «احْضَرْ الْمَجَالِسَ وَاسْتَمِعْ مَا يُقَالُ وَلَا تَتَكَلَّمْ»، قَالَ: «فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَمَا رَأَيتُ مُجَاهَدَةً أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْهَا».

فَالْمِرَاءُ وَالْجِدَالُ، يُمَزِّقُ أَوَاصِرَ الأُخُوَّةِ، وَلَا يُبْقِي لَهَا وَلَا لِلْوِدِّ سَبِيلاً.

رَابِعًا: الْفُحْشُ وَالسَّبُّ وَالْبَذَاءَةُ:

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاحِشَ وَالْمُتَفَحِّشَ**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤٣١)، وابن حبان (٥١٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢١٧).

بَلْ حَتَّىٰ وَلَوْ كَانَ هَـٰذَا السَّبُّ فِي كُفَّارٍ، فَقَدْ رَوَىٰ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: نَهَىٰ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ أَنْ تُسَبَّ قَتْلَىٰ بَدْرٍ مِن الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: «**لاَ تَسُبُّوا هؤلاءِ، فَإِنَّهُ لاَ يَخْلُصُ إِلَيْهِمْ شَيْءٌ مِمَّا تَقُولُونَ وَتُؤْذُونَ الأَحْيَاءَ**»[1].

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلاَ اللَّعَّانِ وَلاَ الْفَاحِشِ وَلاَ الْبَذِيءِ**»[2].



(١) أخرجه النسائي (٤٧٧٥) عن ابن عباس بنحوه، وضعفه الألباني، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٣٢٠) عن محمد بن علي رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٧٧) وقال: «حديث حسن غريب»، وصححه الألباني.



الدَّقِيقَةُ الثَّلاثُون

إِنَّهُمْ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ هُمُ الأَفْضَلُ!

هُمُ الأَفْضَلُ... لاَ لِحَسَبٍ أَوْ نَسَبٍ، لاَ لِمَكَانَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ أَوْ وَضْعٍ سِيَاسِيٍّ تَشَابَهُوا مَعَ النَّاسِ جِنْسًا وَنَوْعًا لَكِنَّهُمْ هُمُ الأَفْضَلُ!!... مَنْ يَا تُرَىٰ؟

إِنَّهُمْ الَّذِينَ يَتَهَجَّدُونَ فِي لَيْلِهِمْ، وَالَّذِينَ خَصَّهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[(١)].

هُمْ مَنْ أَعْلَىٰ النَّبِيُّ ﷺ شَرَفَهُمْ بِقِيَامِهِمُ اللَّيْلَ حِينَ قَالَ: «**شَرَفُ الْمُؤْمِنِ قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ**»[(٢)].

هُمْ مَنْ حَافَظُوا عَلَىٰ صَلاةِ العِشَاءِ فِي جَمَاعَةٍ وَعَلَىٰ صَلاةِ الفَجْرِ فِي جَمَاعَةٍ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ صَلَّى العِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ**»[(٣)].

هُمْ مَنْ حَافَظُوا عَلَىٰ صَلاةِ الجَمَاعَةِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَلاةُ الرَّجُلِ فِي الْجَمَاعَةِ تُضَعَّفُ عَلَى صَلاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَفِي سُوقِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ**

---

(١) الذاريات: ١٥-١٨.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٢٧٨) عن سهل بن سعد رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٨٢٤).

(٣) مسلم (٦٥٦) عن عثمان رضي الله عنه.

فأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى المَسْجِدِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ الصَّلاَةُ لَمْ يَخْطُ خُطْوَةً إِلاَّ رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ فَإِذَا صَلَّى لَمْ تَزَلِ المَلائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلاَّهُ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ وَلا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلاةَ»[1].

هُمْ مَنْ تَصَدَّقُوا فَسَدَّتْ صَدَقَاتُهُمْ عَنْهُمْ سَبْعِينَ بَابًا مِنَ السُّوءِ.

هُمْ أَهْلُ الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّسْبِيحِ وَإِنْ كَانُوا أَقَلَّ حَظًّا مِنْ مَالٍ وَجَاهٍ، كَمَا رَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنْ نَاسًا مِنَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: «**أَوَلَيْسَ اللهُ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»[2].

هُمْ مَنْ حَصَّنُوا أَمْوَالَهُمْ بِالزَّكَاةِ، وَدَاوَوا مَرْضَاهُمْ بِالصَّدَقَةِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ.

هُمُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ، وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ.

هُمْ أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ بِحُسْنِ أَخْلاقِهِمْ كَمَا فِي الحَدِيثِ: «**أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧)، ومسلم (٦٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٠٠٦).

(٣) أخرجه الترمذي (١١٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح»، ووافقه الألباني.

هُمْ مَنْ ثَقَّلُوا مَوازِينَهُمْ بِبِرِّهِمْ وَحُسْنِ خُلُقِهِمْ، كَمَا فِي الحَدِيثِ الشَّرِيفِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللهَ لَيُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيءَ**»(١).

هُمْ مَنْ رَفَعَ اللهُ قَدْرَهُمْ حِينَمَا تَوَاضَعُوا وَفِي الحَدِيثِ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ**»(٢).

هُمْ أَهْلُ العِلْمِ النَّافِعِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾(٣).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾(٤).

هَـٰؤُلاَءِ هُمْ أَحْسَنُ النَّاسِ حَالاً، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلَ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ سُلْطَانٍ.

هَـٰؤُلاءِ هُمُ السُّعَدَاءُ حَقًّا كَمَا قَالَ أَحَدُهُمْ: «لَوْ يَعْلَمُ المُلُوكُ وَأَصْحَابُ المُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ السَّعَادَةِ؛ لَقَاتَلُونَا عَلَيْهَا».

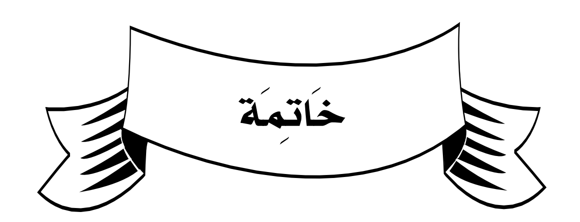
تَسَاوَىٰ عِنْدَهُمْ تِبْرُ الأَرْضِ بِتُرَابِهَا، فَآثَرُوا البَاقِي عَلَىٰ الفَانِي، وَرِثُوا فَضَائِلَ الزَّاهِدِينَ، يُسْأَلُ أَحَدُهُمْ: يَا فُلاَنُ مَا لَكَ رَضِيتَ مِنَ الدُّنْيَا بِالكَفَافِ؟ فَيَقُولُ: أَلاَ أَدُلُّكَ بِمَنْ رَضِيَ بِأَقَلَّ مِمَّا رَضِيتُ؟ قِيلَ: بَلَىٰ، قَالَ: مَنْ رَضِيَ بِالدُّنْيَا بَدَلاً عَنِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٢) عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال الترمذي: «حسن صحيح».
(٢) سبق تخريجه.
(٣) التوبة: ١٠٥.
(٤) الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥.

الآخِرَةِ، فَالدُّنْيَا وَإِنْ كَانَتْ ذَهَبًا إِلاَّ أَنَّهَا تَفْنَىٰ وَالآخِرَةُ وَإِنْ كَانَتْ تُرَابًا إِلَّا أَنَّهَا تَبْقَىٰ، فَمَا الظَّنُّ وَالدُّنْيَا تُرَابٌ يَفْنَىٰ وَالآخِرَةُ ذَهَبٌ يَبْقَىٰ؟! فَهَلْ يَزْهَدُ فِيهَا بَعْدَ اليَوْمِ زَاهِدٌ؟!

نَسْأَلُ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ قُبِلَ صَوْمُهُمْ وَصَلاتُهُمْ وَخُشُوعُهُمْ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ عُتَقَاءِ هَـٰذَا الشَّهْرِ الكَرِيمِ.





مَرَّتْ بِنَا الدَّقَائِقُ مُسْرِعَةً لَا تَتَوَقَّفُ، وَهَـٰكَذَا هِيَ دَائِمًا، وَحَسْبُنَا أَنَّنَا حَاوَلْنَا أنْ نَمْلأَهَا مِنْ أَقْوَالِ الصَّالِحِينَ وَأَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَطَائِفِ الرَّبَّانِيِّينَ.

تَعَدَّدَتْ مَوْضُوعَاتُنَا فِي هَـٰذِهِ الدَّقَائِقِ، وَكُلُّهَا فِي النِّهَايَةِ تَصُبُّ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ، هُوَ: إِنَاءُ الْقَلْبِ، تُحَاوِلُ أَنْ تَمْلأَهُ يَقِينًا بِاللهِ، وَثِقَةً بِهِ، وَتَوَكُّلاً عَلَيْهِ، وَرِضًا بِقَضَائِهِ، وَصَبْرًا عَلَىٰ بَلَائِهِ، وَشُكْرًا عَلَىٰ نَعْمَائِهِ...

حَاوَلْنَا أَنْ نَمْلأَ الْقُلُوبَ حُبًّا للهِ وَفِي اللهِ، وَأَنْ نُطَهِّرَهَا مِنْ كُلِّ بَغْضَاءَ وَحَسَدٍ وَهَمٍّ وَنَكَدٍ وَشَحْنَاءَ وَكَمَدٍ... حَاوَلْنَا أَنْ تَعْلَقَ قُلُوبُنَا بِاللهِ حَتَّىٰ تَطْمَئِنَّ وَتَسْكُنَ وَتَعْلَمَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَعَهَا اللهُ فَمَنْ عَلَيْهَا؟ وَإِنْ كَانَ اللهُ عَلَيْهَا فَمَنْ مَعَهَا؟!

نَسْأَلُ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْ يَجْعَلَ هَـٰذِهِ الدَّقَائِقَ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِنَا، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

* * *



الموضوع	الصفحة
• الإهْداء نَثْراً	٥
• الإهْداء شِعْراً	٧
• الْمُقَدِّمَة	٩
• الدَّقِيقَةُ الأولَى: الْفُرْصَةُ الْجَدِيدَةُ	١١
• الدَّقِيقَةُ الثَّانِيَةُ: لِمَاذَا نَعْصِي اللَّهَ؟!	١٧
• الدَّقِيقَةُ الثَّالِثَةُ: الغنيمةُ البَارِدَةُ	٢٣
• الدَّقِيقَةُ الرَّابِعَةُ: فَنُّ الْمُحَاسَبَةِ	٢٩
• الدَّقِيقَةُ الْخَامِسَةُ: أَهْلُ الجَنَّاتِ والعُيُونِ	٣٧
• الدَّقِيقَةُ السَّادِسَةُ: فَنُّ الدُّعَاءِ	٤٥
• الدَّقِيقَةُ السَّابِعَةُ: وَرِيثُ الأَنْبِيَاءِ	٥٣
• الدَّقِيقَةُ الثَّامِنَةُ: اصْطِنَاعُ الْمَعْرُوفِ وَإِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ	٦٥
• الدَّقِيقَةُ التَّاسِعَةُ: الرِّضَا	٦٩
• الدَّقِيقَةُ الْعَاشِرَةُ: رَبِحَ الْبَيْعُ . . . رَبِحَ الْبَيْعُ	٧٩
• الدَّقِيقَةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ: حياةُ القُلوبِ	٨٣
• الدَّقِيقَةُ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ: عِبَادَةُ التَّفَكُّرِ	٩١
• الدَّقِيقَةُ الثَّالِثَةُ عَشْرَةَ: هَكَذَا كَانَ العِتَابُ	٩٥
• الدَّقِيقَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ: وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنْ	٩٨
• الدَّقِيقَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةَ: لاَ تَغْضَبْ	١٠٨
• الدَّقِيقَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ: الأُخوةُ عِمَادُ ظُهُورِنَا	١١٥

الموضوع | الصفحة

• **الدَّقِيقَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ**: الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ ١٢٤
• **الدَّقِيقَةُ الثَّامِنَةُ عَشْرَةَ**: الصِّدْقُ ١٣٢
• **الدَّقِيقَةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَةَ**: وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ ١٤١
• **الدَّقِيقَةُ الْعِشْرُونَ**: الْحِلْمُ وَالصَّفْحُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ ١٤٤
• **الدَّقِيقَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ**: التَّوَكُّلُ ١٤٨
• **الدَّقِيقَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ**: موَازَنَةُ الْكِبَار ١٥٧
• **الدَّقِيقَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ**: عَلاقَةٌ رَبَّانِيَّةٌ ١٦٠
• **الدَّقِيقَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ**: الصَّدَقَة ١٦٧
• **الدَّقِيقَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ**: الْخَوْفُ مِن اللَّهِ ١٧٦
• **الدَّقِيقَةُ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ**: الصَّلاةُ ١٨٢
• **الدَّقِيقَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ**: غَضُّ الْبَصَرِ ١٩٢
• **الدَّقِيقَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ**: عِبَادَةُ الشُّكْرِ ١٩٥
• **الدَّقِيقَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ**: اللِّسَانُ ٢٠١
• **الدَّقِيقَةُ الثَّلاثُونَ**: إِنَّهُمْ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ هُمُ الأَفْضَلُ ٢٠٨
• **خَاتِمَةٌ** ٢١٣
• **الْفِهْرِس** ٢١٥

* * *

هَذَا الْكِتَابُ

الإنْسَانُ مَا هُوَ إلاَّ دَقَائِقُ ولحظَاتٌ... إنْ مَرَّتْ دَقِيقَةٌ لاَ تَعُودُ أبداً، وَهَذِهِ الدَّقِيقَةُ الَّتِي تَمُرُّ؛ إمَّا لَهُ أَوْ عَلَيْهِ. فَإِنْ كَانَتْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهِيَ رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ، وَإِنْ كَانَتْ فِي مَعْصِيَتِهِ. نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ. فَهِيَ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهَا.

وَهَذَا الْكِتَابُ، نُحَاوِلُ بِهِ أنْ نَمْلأَ دَقَائِقَ حَيَاتِنَا طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى، فَفِيهِ تَجِدُ اللَّطَائِفَ فِي الأَخْلاَقِ وَالْمَوَاقِفِ، وَتَجِدُ حِكَماً لِلصَّالِحِينَ، وَأَقْوَالاً لِلْمُفَسِّرِينَ، وَلَطَائِفَ لِلرَّبَّانِيِّينَ.

تَعَدَّدَتْ مَوْضُوعَاتُ هَذَا الْكِتَابِ وَكُلُّهَا فِي النِّهَايَةِ تَصُبُّ فِي إنَاءِ الْقَلْبِ عَلَّهُ يَزْدَادُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى قُرْباً.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

هـذا الكتـاب

الإنسان ما هو إلا دقائق ولحظات ... إن مرت دقيقة لا تعود أبداً ، وهـذه الدقيقة التـى تمر ؛إما له أو عليه .

فإن كانت فى طاعة الله تعالى ، فهى روح وريحان ، وإن كانت فى معصيتـه -نسأل الله العافية - فهـى وبـال على صاحبها.

وهذا الكتاب ، نحاول به أن نملأ دقائق حياتنا طاعة لله تعالى ، ففيه تجد اللطائف فى الأخلاق والمواقف ، وتجد حكماً للصالحين ، وأقوالاً للمفسرين ،ولطائف للربانيين.

تعددت موضوعات هذا الكتاب وكلها فى النهاية تصب فى إناء القلب عله يزداد من الله تعالى قرباً .

والحمد لله رب العالمين



مؤسسة السماحة للطباعة والنشر والتوزيع
الكويت - المنطقة التجارية رقم ٩بلوك ١مكتب ١٢.
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com